
علامات آخر الزمان
بين
العولمة والإرهاب



# علامات آخر الزمان
## بين
## العولمة والإرهاب



د. مصطفى حسن البدوي

الطبعة الأولى
١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م
رقم الإيداع: ٢٠٠٨/٩٤٧٢
الترقيم الدولي I.S.B.N.
٠-١٥-٦٢١٤-٩٧٧

بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

بدوي، مصطفى حسن
علامات آخر الزمان بين العولمة والإرهاب
مصطفى حسن بدوي- القاهرة
الوابل الصيب للإنتاج والتوزيع والنشر، ٢٠٠٨
٢٠٠ص ؛٢٤سم.
تدمك ٠-١٥-٦٢١٤-٩٧٧
١- القيامة- يوم
٢- الإرهاب
٣- العولمة
أ- العنوان
٢٤٣



الوابل الصيب للإنتاج والتوزيع والنشر
تراثنا .......... أمانة في أعناقنا

٧٠٤٧ شارع ١٧- المقطم - القاهرة - مصر
تليفون: ٢٥٠٨٧٣٨٣- ٢٠٢+ - ٢٥٠٧٦١٤٥- ٢٠٢+
E-Mail: Info@Alwabell.com
www.alwabell.com
www.alimamalallama.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله الرحمن الرحيم

# أولاً: المدخل

## عِلْم أشراط الساعة وعلامات آخر الزمان:

الحمد لله الذي أحسن كل شيء خلقه، خلق الزمان فجعل له أولاً وآخراً؛ دبّر الوجود بحكمته، وهَدى من هَدى من الخلق برحمته؛ جعل لهم علاماتٍ تهتدي بها العقول، وآياتٍ تستنير بها القلوب؛ أنزل كل شيء بقدر، وجعل لكل شيء أجلا. وصلى الله على نبي آخر الزمان، مُعَلِّم البشر وهادي الأنام، وعلى آله وصحبه وسلم.

إن الحياة على كوكب الأرض أصبحت في زماننا هذا خطيرة إلى درجة مفزعة، وأصبح الناس في حيرة من أمرهم، فبين الكوارث الطبيعية، والحروب، والإرهاب، والتلوث، وبين الفتن التي انفتحت على الناس فأخذت تسوقهم أمامها سوقًا إلى جهنم، أصبح المسلم المعاصر في دوامة، لا يدري كيف يفسر ما يحدث حوله. لماذا الانهيار السياسي والاقتصادي والعسكري الذي عمّ كل بلاد المسلمين؟ لماذا لا يتعامل الناس هذه الأيام إلا بالعنف، أفرادًا وحكومات؟ لماذا توحّشت أمريكا هذا التوحش الذي نراه منذ صارت بلا منافس؟ هل الإجابة عن مثل هذه التساؤلات يُبحث عنها في التحليلات السياسية المعاصرة، أم في دراسة التاريخ، أم الفلسفة، أم علم الاجتماع، أم هي من التساؤلات التي ليس لها إجابة أصلا؟

إن الله ﷻ لم يترك هذه الأمة، أمة حبيبه ﷺ في الظلام، ولكنه أعطاهم كل ما يحتاجون إليه من علم إلى قيام الساعة. فمما يحتاجون إليه من العلوم في كل زمان ومكان: علوم الإيمان «أي العقائد»، والإسلام «أي الشرائع»، والإحسان «أي تزكية القلوب»، ثم علم سنن التاريخ، المعروف «بعلم أشراط الساعة»، وقد أشار إلى ذلك

مؤلف كتاب «التليد والطارف»، وهو من العلماء الأفاضل من أهل اليمن[1]، وسمَّى ذلك العلم باسم «علم التحولات والمواقف»، أي علم التحولات النوعية التي تتولد عنها المراحل التاريخية المختلفة، وفقه المواقف التي قابل بها النبي ﷺ والخلفاء الراشدون والصحابة ﷺ هذه التحولات. وبيّن جزاه الله خيرًا أن هذا العلم هو الركن الرابع من أركان الدين[2]، بعد الإسلام، والإيمان، والإحسان. كما يفهم من حديث جبريل المشهور والمذكور في أكثر كتب الحديث.

وفي رواية البخاري يقول أبوهريرة ﷺ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ بَارزًا يَوْمًا لِلنَّاس، فَأَتَاهُ رَجُلٌ فَقَالَ: مَا الإِيمَانُ؟ قَالَ: «**الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِالله، وَمَلاَئِكَتِهِ، وَبِلِقَائِهِ، وَرُسُلِهِ، وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ**». قَالَ: مَا الإِسْلاَمُ؟ قَالَ: «**الإِسْلاَمُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَلاَ تُشْرِكَ بِهِ، وَتُقِيمَ الصَّلاَةَ، وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ المَفْرُوضَةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ**». قَالَ: مَا الإِحْسَانُ؟ قَالَ: «**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**». قَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ «**مَا المَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ، وَسَأُخْبِرُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا: إِذَا وَلَدَتِ الأَمَةُ رَبَّهَا، وَإِذَا تَطَاوَلَ رُعَاةُ الإِبِلِ الْبُهْمُ فِي الْبُنْيَانِ، فِي خَمْسٍ لاَ يَعْلَمُهُنَّ إِلاَّ اللهُ**». ثُمَّ تَلاَ النَّبِيُّ ﷺ: ﴿**إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ...**﴾ الآيَةَ. ثُمَّ أَدْبَرَ، فَقَالَ: «**رُدُّوهُ**». فَلَمْ يَرَوْا شَيْئًا. فَقَالَ: «**هَذَا جِبْرِيلُ جَاءَ يُعَلِّمُ النَّاسَ دِينَهُمْ**»[3]، فلفظ الحديث واضح في أن الغرض من أسئلة جبريل عليه السلام إنما هو تعليم الناس دينهم، وقد أسهب في السؤال عن علامات الساعة، مما يدل على أهميتها، وأهمية تعليمها للناس تمامًا كالعقائد والفقه.

لذلك فمن البديهي أن يعتبر علم أشراط الساعة[4] هو الركن الرابع من أركان

---

(١) السيد أبوبكر العدني بن علي المشهور، في كتابه: التليد والطارف، شرح منظومة فقه التحولات وسنة المواقف، (بدون ناشر).

(٢) أركان الدين: الإسلام، والإيمان، والإحسان؛ وأركان الإسلام: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، والصلاة، والزكاة، وصوم رمضان، والحج لمن استطاع إليه سبيلاً. البخاري: (٨/ ٤٢٤٣)؛ مسلم: (١٥، ١٦).

(٣) صحيح البخاري: (٥٠).

(٤) أشراط: جمع شرط، بنصب الراء، أي علامة أو أمارة.

الدين، ومن البديهي أن الأركان لا يمكن الاستغناء عن أي منها وإلا نقص الدين نقصًا خطيرًا، ولذلك ينبغي دراسة هذا الركن بنفس التركيز، والتمحيص، والتفصيل، التي تدرس بها الأركان الأخرى.

فإذا أردنا أن نتكلم عن الأشراط التي تخص زمننا هذا بالذات، وهل نحن في ما يطلق عليه آخر الزمان أم لا؟ وجب علينا أولاً أن نستقري من النصوص إلى أي درجة اقتربت الساعة. فإن النبي ﷺ أخبرنا عما يحدث بعد وفاته، ثم الأشراط الوسطى، وهي العلامات الصغرى، ثم العلامات الكبرى.

ونحن نعلم أن الله تعالى يقول في كتابه العزيز: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾[1]. فالأمر إذاً مقضي والساعة لا شك قريبة، ولكن إلى أي درجة؟

قال رسول الله ﷺ: «**بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ**». وَأَشَارَ إِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَة وَالْوُسْطَى[2]، والوسطى كما لا يخفى تسبق السبابة بشيء قليل.

وقال ﷺ: «**بُعِثْتُ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ بِالسَّيْفِ حَتَّى يُعْبَدَ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي، وَجُعِلَ الذُّلُّ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي، وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ**»[3].

وقال ﷺ: «**إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمًا فَقَالَ: يَا قَوْمِ، إِنِّي رَأَيْتُ الجَيْشَ بِعَيْنَيَّ، وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ**[4] **فَالنَّجَاءَ! فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ فَأَدْلَجُوا، فَانْطَلَقُوا عَلَى مَهَلِهِمْ فَنَجَوْا، وَكَذَّبَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ، فَصَبَّحَهُمُ الجَيْشُ، فَأَهْلَكَهُمْ وَاجْتَاحَهُمْ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ أَطَاعَنِي، فَاتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِهِ، وَمَثَلُ مَنْ**

---

(١) سورة القمر، آية: [١].
(٢) صحيح البخاري: (٤٦٥٢، ٦١٣٨)؛ صحيح مسلم: (٨٦٧، ٤٦٥٢).
(٣) مسند الإمام أحمد: (٥٦٦٧)؛ مصنف ابن أبي شيبة: (٣٣٠١٠).
(٤) النذير العريان هو المستطلع الذي أبصر بالعدو يقترب، وعَلِمَ أن لا وقت لديه للعودة إلى ديار قومه لإنذارهم، فخلع ثوبيه، ووقف على ربوة يلوّح بهما ليراه الناس عن بُعْد، معلنًا أن الكارثة على وشك الوقوع.

**عَصَانِي وَكَذَّبَ بِمَا جِئْتُ بِهِ مِنَ الحَقِّ**»[1].

وقال أبو سَعِيد الْخُدْرِيّ ﷺ: صَلَّى بنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا صَلاَةَ الْعَصْرِ بِنَهَارٍ ثُمَّ قَامَ خَطِيبًا فَلَمْ يَدَعْ شَيْئًا يَكُونُ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ إِلاَّ أَخْبَرَنَا بِهِ، حَفِظَهُ مَنْ حَفِظَهُ وَنَسِيَهُ مَنْ نَسِيَهُ... إلى أن قَالَ: وَجَعَلْنَا نَلْتَفِتُ إِلَى الشَّمْسِ هَلْ بَقِيَ مِنْهَا شَيْءٌ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَلاَ إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنَ الدُّنْيَا فِيمَا مَضَى مِنْهَا إِلاَّ كَمَا بَقِيَ مِنْ يَوْمِكُمْ هَذَا فِيمَا مَضَى مِنْهُ**»[2].

وقال الشيخ الألوسي في تفسيره لسورة العصر[3]: وقيل إن «العصر» هو زمان حياته ﷺ وما بعده إلى يوم القيامة، ومقداره فيما مضى من الزمان مقدار وقت العصر من النهار، ويؤذن بذلك ما رواه البخاري عن سَالِم بن عَبْدِ اللَّهِ عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّمَا بَقَاؤُكُمْ فِيمَا سَلَفَ قَبْلَكُمْ مِنَ الأُمَمِ كَمَا بَيْنَ صَلاَةِ الْعَصْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ**...».

والحديث بتمامه: «**إِنَّمَا بَقَاؤُكُمْ فِيمَا سَلَفَ قَبْلَكُمْ مِنَ الأُمَمِ كَمَا بَيْنَ صَلاَةِ الْعَصْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ، أُوتِيَ أَهْلُ التَّوْرَاةِ التَّوْرَاةَ فَعَمِلُوا حَتَّى إِذَا انْتَصَفَ النَّهَارُ عَجَزُوا، فَأُعْطُوا قِيرَاطًا قِيرَاطًا، ثُمَّ أُوتِيَ أَهْلُ الإِنْجِيلِ الإِنْجِيلَ فَعَمِلُوا إِلَى صَلاَةِ الْعَصْرِ، ثُمَّ عَجَزُوا، فَأُعْطُوا قِيرَاطًا قِيرَاطًا، ثُمَّ أُوتِينَا الْقُرْآنَ فَعَمِلْنَا إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ، فَأُعْطِينَا قِيرَاطَيْنِ قِيرَاطَيْنِ، فَقَالَ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ: أَيْ رَبَّنَا أَعْطَيْتَ هَؤُلاَءِ قِيرَاطَيْنِ قِيرَاطَيْنِ، وَأَعْطَيْتَنَا قِيرَاطًا قِيرَاطًا، وَنَحْنُ كُنَّا أَكْثَرَ عَمَلاً؟**

**قَالَ: قَالَ اللهُ ﷻ: هَلْ ظَلَمْتُكُمْ مِنْ أَجْرِكُمْ مِنْ شَيْءٍ؟ قَالُوا: لاَ!**

**قَالَ: فَهُوَ فَضْلِي أُوتِيهِ مَنْ أَشَاءُ**»[4].

---

(١) صحيح البخاري: (٧٢٨٣).

(٢) صحيح الترمذي: (٢١٩١).

(٣) «روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني»، للعلامة الألوسي: دار الفكر، بيروت، ١٣٩٨، الجزء ٢٨، ص٢٩٢.

(٤) صحيح البخاري، (٧٠٢٩، ٧٠٩٥).

وإن كانت دورة الزمن المكونة من الليل والنهار تبدأ بمغرب الشمس وتنتهي بمغربها في اليوم التالي، فإن مثل عمر الأمة المحمدية في هذه الدورة كمثل آخر ساعات النهار، أي من بعد العصر إلى المغرب، فعند المغرب تقوم الساعة. ولذلك يخبرنا الحديث المذكور آنفا أن وقت اليهود كان قبل انتصاف النهار، ووقت النصارى من الزوال إلى العصر، ويكون وقت الأمم السابقة لليهود ما قبل ذلك.

يدل كل ذلك على أنه في زمن رسول الله ﷺ كان قد انقضى من عمر الدنيا أكثره، ولم يبق منه إلا القليل حتى قيام الساعة. ولقد مرَّ على هذه الأمة منذ أن تفوه رسول الله ﷺ بهذه الأحاديث إلى الآن أكثر من ألف وأربعمائة سنة، فأين نحن من قيام الساعة؟ هل تقوم الساعة بعد الآلاف من السنين؟ أم بعد المئات؟ أم العشرات؟ وما أهمية معرفة ذلك؟

واقع الأمر أن معرفة ذلك أمر حيوي للغاية لكل مسلم، إن لم يكن لكل إنسان على وجه الأرض، فإننا نعيش زمانا تزايدت فيه الفتن، وكثرت فيه الكوارث الطبيعية، وتعدَّدت فيه المذاهب الفكرية والإيديولوجية، وتغيَّرت فيه المجتمعات الإنسانية تغيرًا جذريًا وشاملاً عما كانت عليه حتى عهد قريب، وفرضت الحضارة الغربية سيادتها على أرجاء المعمورة، في الوقت الذي تدهور فيه المسلمون، وفقدوا تفوقهم الحضاري السياسي، والعسكري، والأدبي، والعلمي، والأخلاقي، والاجتماعي، وتردُّوا في هاوية الفشل، والجهل، والاستضعاف.

والحضارة الغربية حضارة مادية بحتة، قوتها العسكرية يظن الناظر إليها أنها لا تُقْهَر، وقوتها الاقتصادية لا تُغلب، وتفوقها الصناعي والتكنولوجي لا يُجارى، ولا يرقى إليه تطلع العالم الثالث. هذه الحضارة لها بريق مادي يخطف الأبصار ويستحوذ على النفوس، ولها قدرة فائقة على نشر أفكارها، ومبادئها، وأساليبها، وأغراضها، عبر وسائل الإعلام التي ابتدعتها وسخرتها لخدمتها تسخيرًا كاملاً متقنًا. كما ظهرت داخل الأمة فتن يثيرها الضالّون الْمُضِلّون الذين انسلخوا فكريًا عن الأمة وصاروا لها خطرًا داهمًا وسمّاً زعافًا.

هناك إذاً مصدران للخطر، أحدهما خارجي، وله من يساعده بالداخل، والآخر داخلي ومصدره أنواع الجاهلين، والمبطلين، والغالين الذين ذكرهم النبي ﷺ حين قال: «**يَرِثُ هَذَا الْعِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلَفٍ عُدُولُهُ، يَنْفُونَ عَنْهُ تَأْوِيلَ الجَاهِلِينَ، وَانْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ، وَتَحْرِيفَ الْغَالِينَ**»[1].

والتأويل إنما هو بيان ما تؤول إليه الألفاظ ومعانيها، والجاهل إنما يرد النصوص إلى ما رسخ عنده من العقائد، فهو عدو ما يجهل، ويرفض بإصرار كل ما لا يعلم وما يخالف ما يظنه الصواب، وقد يكون حسنَ النية وإن كان سيئَ العمل، وهو لذلك أقل الثلاثة ضررًا.

أما الانتحال فهو أن يدَّعي أمرًا ليس له، كأن يدعي أنه المهدي، أو أنه نبيٌّ آخر الزمان، وأن النبي ﷺ إنما هو خاتم المرسلين، وليس خاتم الأنبياء، كما ادَّعى الدَّجّال «غلام ميرزا قادياني» في باكستان، وأتباعه اليوم منتشرون في كل مكان، وغيره من الدجاجلة كثير. وبعضهم يدَّعي الإمامة في الدين والتمكين في العلم، مع ظهور قصورهم وبطلان دعواهم، إلا لمن يخدعونه من العوام الذين تغرهم الدعاوى العريضة.

أما الأمر الثالث، وهو تحريف الغالين، فهو ما يفعله الغلاة من كل مذهب من إحالة الأدلة العلمية عن معناها الصحيح. والغلاة هم المتنطعون الذين يتطرفون في مواقفهم ويتجاوزون الحدود، ويحتاجون لذلك أن يميّلوا أدلة العلم إلى الجانب الذي يناسبهم، فإما يحرّفون الألفاظ تحريفًا مباشرًا بالزيادة فيها أو النقصان، أو بإضافة قيود أو حذفها، أو بالتصرف في مراجع الضمائر، وإما يحرفونها تحريفًا غير مباشر بتصحيح الأسانيد أو تضعيفها بغير حق، أو بإيراد أضعف حديث في الباب؛ ليسهل رده. والغلاة أخطر الثلاثة؛ لأنهم يفسدون أدلة الدين وبالتالي يبطلون كونها عين الشيء الموصل إلى الحق. ولا أخطر من ذلك إلا من يجمع المثالب الثلاث.

(١) البيهقي في «السنن الكبرى»: (١٠/ ٢٠٩).

في ظل هذه الظروف أصبح من الواجب على المسلمين الرجوع إلى العلم الـذي جاء به الوحي الإلهي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا مـن خلفـه، علـم النبـوة الذي أظهره الخالق سبحانه وتعالى على لسان نبيه ﷺ والنظر في هذا العلم لمعرفة مـا قاله النبي ﷺ عن هـذا الزمـان، وصـفاته، وأمراضـه، وفتنـه، وكيـف نـشخّص هـذه الأمراض ونداويها؛ فإن هذا هو الذي ينقذنا من كلا الخطرين:

**الأول** وهو الانسياق الأعمى وراء الأفكـار الغربيـة المبثوثـة في وسـائل الإعـلام بدعوى أنها الحق الذي لا مراء فيه، فيجـد الإنـسان نفـسه وقـد تـرك الـدين، واتبـع الشهوات، واتخذ إلى جهنم سبيلا وهو يظن أنه متحرر.

**والثاني** وهو تصديق الجاهلين، والمبطلين، والغالين، فلا يلبث إلا وهو منضم إلى هذه الجماعة أو تلك، يُعَلمونه تكفير الناس، ويزينون له الإرهاب ويسمونه الجهاد.

إن هذا العلم النبوي هو الـذي يمكننـا مـن تفهّـم مـا نـراه حولنـا مـن أحـداث وظواهر، حتى نعلم كيف يكون التفريق فيها بين الحق والباطل، وبين الحلال الحـرام، ونعلم إلى أي مرحلة من مراحل البشرية وصلنا؟ وما هي أخطار هذه المرحلة علينـا؟ وكيف يكون الاحتراز والنجاة منها؟ وكيف لا يكون ذلك واجبًا على كل مسلم وقد قيل عن فتن آخر الزمان: إنها تهوي بالرجل إلى الكفر؟

قال ﷺ: «**مَثَلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهَا جَعَلَ الْفَرَاشُ وَهَـذِهِ الدَّوَابُّ الَّتِي فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا، وَجَعَلَ يَحْجُزُهُنَّ وَيَغْلِبْنَهُ فَيَتَقَحَّمْنَ فِيهَا قَالَ فَذَلِكُمْ مَـثَلِي وَمَثَلُكُمْ أَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ: هَلُمَّ عَنِ النَّارِ! هَلُمَّ عَـنِ النَّـارِ! فَتَغْلِبُـونِي تَقَحَّمُـونَ فِيهَا**»(١)، فهذه المخاطر التي جاهد النبي ﷺ في إبعاد أمته عنها تـشتمل علـى المعاصـي بأنواعها، والبدع بأنواعها، وكل ما يغضب رب العالمين، وكذلك تشتمل علـى الفـتن التي ينخدع بها المسلمون، فتقذفهم في النار.

(١) صحيح البخاري: (٣٢٤١، ٦١١٨)؛ صحيح مسلم: (١٧٨٩).

ألم يقل ﷺ: «**تَكُونُ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ فِتَنٌ كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ فِيهَا مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، وَيُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ أَقْوَامٌ دِينَهُمْ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا**»(١)، وكان الحسن البصري رضي الله عنه يقول في هذا الحديث: «يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُحَرِّمًا لِدَمِ أَخِيهِ وَعِرْضِهِ وَمَالِهِ وَيُمْسِي مُسْتَحِلاً لَهُ، وَيُمْسِي مُحَرِّمًا لِدَمِ أَخِيهِ وَعِرْضِهِ وَمَالِهِ وَيُصْبِحُ مُسْتَحِلاً لَهُ»(٢)، وكون بعض هذه الفتن الخطيرة فتنًا تنفذ إلى عقل الإنسان من خلال سمعه وبصره يفهم من لفظ الحديث الآتي: «**سَتَكُونُ فِتْنَةٌ صَمَّاءُ بَكْمَاءُ عَمْيَاءُ، مَنْ أَشْرَفَ لَهَا اسْتَشْرَفَتْ لَهُ، وَإِشْرَافُ اللِّسَانِ فِيهَا كَوُقُوعِ السَّيْفِ**»(٣)، وفي رواية: «**اللِّسَانُ فِيهَا أَشَدُّ وَقْعًا مِنَ السَّيْفِ**»(٤).

فما هي الفتنة؟ إن أَصل كلمة «الفتنة» مأْخوذ من قولهم: «فَتَنْتُ الذهب»، أي اختبرته بإذابته بالنار حتى تُظْهِر ما به من شوائب، ويتميَّز الرديء منه من الجيِّدِ. والفَتْنُ هوالإِحْراقُ، ومن هذا قوله ﷻ: ﴿**يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ**﴾(٥)، أَي يُحْرَقون بالنار، ولذلك يسمى الصائغ الفَتَّان، وكذلك الشيطان؛ لأنه يختبر الناس بأن يحرقهم بنار خداعه، وغروره، وتلبيسه، وتزيينه للباطل. من هنا صارت الفِتْنة تعني الابتلاءَ والامْتِحانَ والاختبارَ الذي يُظهر حقيقة الإنسان ومعدنه. وقد تكون الفتنة في المال، أو الأولاد، أو النساء، أو الجاه، أو السلطة، أو اختلاف الآراء والفرقة، أو الاضطهاد، أو الفتنة الكبرى التي ليس بعدها فتنة وهي الكفر.

قال الله تعالى: ﴿**الٓمٓ ۝ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ**﴾(٦)، فهم

(١) صحيح الترمذي: (٢١٩٧).
(٢) صحيح الترمذي: (٢١٩٧).
(٣) سنن أبي داود: (٤٢٦٥).
(٤) صحيح الترمذي: (٢١٧٨)؛ سنن ابن ماجه: (٣٩٦٧).
(٥) سورة الذاريات، آية: [١٣].
(٦) سورة العنكبوت، الآيات: [١-٣].

يُبْتَلَوْنَ في أَنفسـهم وأَموالهـم، فـيُعْلَـمُ بالصبر على البـلاء الصـادقُ الإيمان من غيره. وفِتْنَةُ الصَّدْرِ هي الوَسْواسُ، وفِتْنةُ الْمَحْيا هـي الميـل عَـن الـصراط المستقيم، وفِتْنـةُ الْمَمات هي سُؤالَ القبر، وفتنة المسيح الدجال هي إضلاله الذي يؤدي إلى الكفر.

وبيّن رسول الله ﷺ المخْرَج من الفتن، فقال: «**سَتكُونُ فِـتَنٌ يُـصْبِحُ الرَّجُـلُ فِيهَـا مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، إلاَّ مَنْ أَحْيَاهُ اللهُ بِالْعِلْمِ**»[1]، فما هو العلم المقـصود هنـا؟ إن هـذا العلم لا يمكنه أن يكون علمًا تجريبيًا من علوم الدنيا، فـإن هـذه لا تنقـذ مـن الفـتن، ولا يمكنه أن يكون من علوم الدين المعتادة مثل الفقـه، والتفسـير، والسمعيات، ومن ثمّ لا يكون إلا العلم بفتن آخر الزمان، من أين تأتي، وكيف تكون، وإلى ما تؤدي؟

لذلك فإن عِلْم أشراط الساعة وعلامات آخر الزمان لمن العلـوم الـتي لا ينبغـي لمسلم إهمالها، فإن هذا العلم هو المنقذ من أخطار الفتن المتلاحقة، المتنوعة، المتغيرة.

وإنَّا لفي زمان انقلبت فيه المـوازين رأسـًا علـى عقـب، وصـورت فيـه وسـائل الإعلام العربية المنساقة للفكر الغربي الأمور على عكس ما هي عليه، وبثت في الأمة الإسلامية الكثير من الأفكار التي أصبحت لدى الناس قضايا مُـسَلَّم بهـا، ولـو أنهـا عرضت على الكتاب والسنة لوجدت بينها وبينهما أمدًا بعيدًا.

**ولنضرب على ذلك مثالاً واحدًا:** كثيرًا ما نسمع قول المنبهرين بالحضارة الغربية: إن في الغرب إسلامًا بلا مسلمين، وفي ديار المسلمين مـسلمين بـلا إسـلام، يريـدون بذلك أن التفوق التكنولوجي وما جاء معـه مـن نظافـة، ونظـام، وتيـسير في الأمـور الدنيوية في الدول الغربية كان الأولى أن يكون القائمون به المسلمون، بينما الفوضـى، والصعوبات الدنيوية التي نعاني كلنا منها كان الأحرى أن يعاني منها الكفار لكفرهم. ولكن نسي هؤلاء أن سُنَّة الله في خلقه أنه كلما فسد المؤمنون ضيّق عليهم، بينما كلما ازداد الكفار طغيانا وكفرًا أوسع لهم في دنياهم.

(١) سنن ابن ماجه: (٣٩٥٤).

يقول تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾[1]، ويقول: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[2]، وليس ذلك فقط استدراجًا لهم، ومكرًا بهم، حتى يزدادوا غيًّا وخسرانًا، ولكن لأن الله لا يظلم أحدًا، والكافر إن اجتهد وأحسن في عمله، فلابد أن يجد نتيجة اجتهاده وإحسانه وإتقانه في هذه الدنيا، بينما المسلم المهمل في عمله، غير الصادق في مجهوده يستحق أن لا يجد حصادًا في أمور دنياه إلا ما قد زرع.

ولقد قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ ﷻ لاَ يَظْلِمُ الْمُؤْمِنَ حَسَنَةً، يُثَابُ عَلَيْهَا الرِّزْقَ فِي الدُّنْيَا وَيُجْزَى بِهَا فِي الآخِرَةِ. قَالَ: وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيُطْعَمُ بِحَسَنَاتِهِ فِي الدُّنْيَا حَتَّى إِذَا أَفْضَى إِلَى الآخِرَةِ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ يُعْطَى بِهَا خَيْرًا»[3]، وبالمقابلة إن فسد المسلمون سلط عليهم البلاء بأنواعه. قال النبي ﷺ: «أُمَّتِي أُمَّةٌ مَرْحُومَةٌ، لاَ عَذَابَ عَلَيْهَا فِي الآخِرَةِ، جَعَلَ اللهُ عَذَابَهَا فِي الدُّنْيَا: الْقَتْلَ، وَالزَّلازِلَ، وَالْفِتَنَ»[4].

أما إذا صدق المسلمون مع ربهم ولم يخونوا الأمانة، يقول الله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[5]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[6]، ثم بيّن أن هؤلاء المؤمنين إنما هم الأنبياء ومن يتبعهم: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾[7]، ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[8].

(١) سورة مريم، آية: [٧٥].
(٢) سورة البقرة، آية: [١٥].
(٣) صحيح ابن حبان: (٣٧٧)، مسند الإمام أحمد: (١٤٠٥٠).
(٤) الحاكم في المستدرك: (٨٣٧٢).
(٥) سورة الحج، آية: [٤٠].
(٦) سورة الروم، آية: [٤٧].
(٧) سورة المجادلة، آية: [٢١].
(٨) سورة غافر، آية: [٥١].

كما بيّن سبحانه وتعالى أن سبب النصر أن هؤلاء نصروا الله وكانوا له فنصرهم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾[1]، ويقول: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾[2]..

هكذا وعد الله جنده أي الجند المنسوبون إليه، أي أولئك الذين أخلصوا له بالنصر، وإن كانوا قلة مستضعفين، فقال تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾[3]، ﴿وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ﴾[4].

وقال عمر ﷺ: «إِنَّا كُنَّا أَذلَّ قَوْمٍ فَأَعَزَّنَا اللهُ بالإسلامِ، فَمَهْمَا نَطْلُبُ الْعِزَّةَ بِغَيْرِ مَا أَعَزَّنَا اللهُ بِهِ أَذَلَّنَا اللهُ»[5]، كما نسي هؤلاء أن هذا الاستدراج له أجل محتوم، وأن الواجهة البرَّاقة للحضارة الغربية تخفي ما بهم من الأمراض والأسقام التي لم تكن في أسلافهم، والفوضى الاجتماعية، وتلوث البيئة، والانحلال الخلقي، ثم أهم من هذا وذاك، نسي هؤلاء أن الكافر مهما تمتع في الدنيا فمصيره إلى النار.

وفي ذلك يقول المولى ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾[6]، ويقول: ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾[7].

هنا وجب علينا أن نستخلص قانونًا أو سنة كونية لله في خلقه، وهو أن نجاح المسلمين منوط بتمسكهم بدينهم، فإن تركوه ابتلاهم ربهم بالذل على قدر ما تركوا،

---

(١) سورة محمد، آية: [٧].
(٢) سورة الصافات، آية: [١٧٣].
(٣) سورة البقرة، آية: [٢٤٩].
(٤) سورة آل عمران، آية: [١٢٣].
(٥) الحاكم في المستدرك: (٢٠٧).
(٦) سورة محمد، آية: [١٢].
(٧) سورة النور، آية: [٥٧].

فإن الله لا يسمح لهم أبدًا بالفلاح في الدنيا طالما هم بعيدون عن الصراط المستقيم؛ بينما القاعدة بالنسبة للكفار هي أنهم كلما ازدادوا كفرًا ازدادوا تمكيناً في الدنيا إلى حين.

وقد أوصى النبي ﷺ أمته بالاستعاذة من مضلات الفتن، ما ظهر منها وما بطن، وخصوصاً الفتنة الكبرى التي هي فتنة الدجال، فإن من خطورتها على الناس ما ورد عن النبي ﷺ من وصية للأمة بالاستعاذة منها بالإتيان بهذا الدعاء عقب التشهد الأخير من كل صلاة، وبعد كل صلاة مكتوبة: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ عَذَابِ النَّارِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ**»[(١)].

وقد غرس ﷺ هذه الاستعاذة في الأمة في زمنه وهو يعلم تمامًا أن الدجّال لن يأتي قبل مرور مئات السنين، ولكن لكي يكون المسلمون متمسكون بهذه الدعوات النبوية حين يظهر الدجال، متحصنين بها من إغوائه وإضلاله. وكذلك الأحاديث الخاصة بأشراط الساعة، فإنما قيلت للصحابة رضوان الله عليهم لكي تبلغنا، ونتفكر فيها، ونستقي منها علمًا، ونهتدي بها عند ورود مضلات الفتن. فقد قال النبي ﷺ يومًا، بعد أن تحدث عن الدجّال: «**إِنَّمَا أُحَدِّثُكُمْ هَذَا لِتَعْقِلُوهُ، وَتَفْقَهُوهُ، وَتَعُوهُ، فَاعْمَلُوا عَلَيْهِ، وَحَدِّثُوا بِهِ مَنْ خَلْفَكُمْ، وَلْيُحَدِّثْ الآخَرُ الآخَرَ، فَإِنَّ فِتْنَتَهُ أَشَدُّ الْفِتَنِ**»[(٢)] فليس ثمّ أوضح ولا أشدّ تأكيدًا من هذه الأوامر النبوية التي لا تدع مجالاً للتواني ولا للتراخي.

وقد أكد رسول الله ﷺ على أهمية طلب العلم فقال: «**طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ**»[(٣)]. وقال ﷺ: «**عَلَيْكُمْ بِهَذَا الْعِلْمِ قَبْلَ أَنْ يُقْبَضَ، وَقَبْضُهُ أَنْ يُرْفَعَ**». وَجَمَعَ بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ الْوُسْطَى وَالَّتِي تَلِي الإِبْهَامَ هَكَذَا ثُمَّ قَالَ: «**الْعَالِمُ وَالْمُتَعَلِّمُ شَرِيكَانِ فِي الأَجْرِ، وَلاَ خَيْرَ فِي سَائِرِ النَّاسِ**»[(٤)].

---

(١) صحيح البخاري: (١٣١١)؛ صحيح مسلم: (٥٨٨).
(٢) نعيم بن حماد في كتاب الفتن: (٢/٥٣٨- حديث رقم ١٥١٨).
(٣) سنن ابن ماجه.
(٤) سنن ابن ماجه: (٢٢٤، ٢٢٨).

**الغرض من تأليف الكتاب:**

لم يكن الغرض من تأليف هذا الكتاب استقصاء وشرح كل ما ورد في علامات الساعة شرحًا مفصلاً، وإنما هو عرض الأحاديث على القارئ المعاصر بصورة فيها شيء من التنظيم، مع إشارات موجزة إلى كيفية الاستدلال بها على ما يحدث حولنا من أحداث، ثم تركه ليُعْمِل فكره فيها، وليستنتج ما يجب استنتاجه منها من السنن أو القوانين الإلهية التي وضعها فاطر السماوات والأرض للخليقة، حتى يصل إلى فهم ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ﴾[1]، ثم يطبق ما قد فهم على ما يرى من مظاهر وأحداث في زماننا هذا، فتظهر له الأمور على حقيقتها، ويتبين له مدى التعمية والتضليل التي ترزح تحت أعبائهما الأمة، ثم يرسم لنفسه طريق النجاة والخلاص.

ولقد وجدنا أن كثيرًا من الناس ليس لهم علم بهذه الأحاديث أصلاً، كما أن آخرين منهم لهم علم ببعضها ولكنهم لم يتفكروا فيها وفي دلالاتها، فكان هذا هو الدافع الأول لجمعها وتبويبها على هذه الصورة، بما يلائم العقلية المعاصرة؛ فمن نظر فيها بتأني وتفكُّر، ثم أنصف، ولم يحاول إخضاع ما يفهمه منها لما قد يكون مؤمنًا به من نظريات أو أيديولوجيات أو أفكار مسبقة، فلابد وأن يستخرج منها المفاهيم التي تستنير بها بصيرته. والله وليّ التوفيق.

(١) سورة الروم، آية: ٣٠.

## ثانيًا: إخبار النبي ﷺ بما تمر به الأمة إلى يوم القيامة

أطلع المولى ﷻ حبيبه المصطفى ﷺ على ما كان وما سيكون، وأراه كل شيء رؤية عين، فأخبر أمته بما يحتاجون إلى معرفته من هذه الأمور، لكي يكونوا على بصيرة من أمرهم، وليعرفوا ماذا يفعلون عند نزول الفتن والبلايا، وحتى يورِّثوا هذه العلوم إلى من بعدهم، طبقة بعد طبقة، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

قال أبوزيد الأنصاري ﷺ: «صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْفَجْرَ وَصَعِدَ الْمِنْبَرَ فَخَطَبَنَا حَتَّى حَضَرَتِ الظُّهْرُ، فَنَزَلَ فَصَلَّى، ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ فَخَطَبَنَا حَتَّى حَضَرَتِ الْعَصْرُ، ثُمَّ نَزَلَ فَصَلَّى، ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ فَخَطَبَنَا حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ، فَأَخْبَرَنَا بِمَا كَانَ وَبِمَا هُوَ كَائِنٌ، فَأَعْلَمُنَا أَحْفَظُنَا»(١).

وقال الْمُغِيرَة بن شُعْبَة ﷺ: «قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَقَامًا فَأَخْبَرَنَا بِمَا يَكُونُ فِي أُمَّتِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَعَاهُ مَنْ وَعَاهُ وَنَسِيَهُ مَنْ نَسِيَهُ»(٢).

وقال عمر ﷺ: «قَامَ فِينَا النَّبِيُّ ﷺ مَقَامًا، فَأَخْبَرَنَا عَنْ بَدْءِ الْخَلْقِ حَتَّى دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ مَنَازِلَهُمْ، وَأَهْلُ النَّارِ مَنَازِلَهُمْ، حَفِظَ ذَلِكَ مَنْ حَفِظَهُ، وَنَسِيَهُ مَنْ نَسِيَهُ»(٣).

وقال حُذَيْفَة بن الْيَمَان ﷺ: «لَقَدْ خَطَبَنَا النَّبِيُّ ﷺ خُطْبَةً، مَا تَرَكَ فِيهَا شَيْئًا إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ إِلاَّ ذَكَرَهُ، عَلِمَهُ مَنْ عَلِمَهُ، وَجَهِلَهُ مَنْ جَهِلَهُ، إِنْ كُنْتُ لأَرَى الشَّيْءَ

---

(١) صحيح مسلم: (٢٨٩٢).
(٢) مسند الإمام أحمد: (٤/ ٢٥٤)؛ الطبراني في المعجم الكبير: (١٠٧٧).
(٣) صحيح البخاري: (٣١٩٢).

قَدْ نَسِيتُ، فَأَعْرِفُ مَا يَعْرِفُ الرَّجُلُ إِذَا غَابَ عَنْهُ فَرَآهُ فَعَرَفَهُ»(١).

كما قال حذيفة ﵁: «وَاللَّهِ مَا أَدْرِي أَنَسِيَ أَصْحَابِي أَمْ تَنَاسَوْا؟ وَاللَّهِ مَا تَرَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ قَائِدِ فِتْنَةٍ إِلَى أَنْ تَنْقَضِيَ الدُّنْيَا، يَبْلُغُ مَنْ مَعَهُ ثَلاَثَمِائَةٍ فَصَاعِدًا، إِلاَّ قَدْ سَمَّاهُ لَنَا باسْمِهِ وَاسْمِ أَبِيهِ وَاسْمِ قَبِيلَتِهِ»(٢).

وقال ﵁: «أَخْبَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ، فَمَا مِنْهُ شَيْءٌ إِلاَّ قَدْ سَأَلْتُهُ، إِلاَّ أَنِّي لَمْ أَسْأَلْهُ مَا يُخْرِجُ أَهْلَ الْمَدِينَةِ مِنَ الْمَدِينَةِ»(٣).

وقال حُذَيْفَةُ ﵁: «أَنَا أَعْلَمُ النَّاسِ بِكُلِّ فِتْنَةٍ هِيَ كَائِنَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَا بِي أَنْ يَكُونَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَسَرَّ إِلَيَّ فِي ذَلِكَ شَيْئًا لَمْ يُحَدِّثْ بِهِ غَيْرِي، وَلَكِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ حَدَّثَ مَجْلِسًا أَنَا فِيهِ عَنِ الْفِتَنِ الَّتِي تَكُونُ، مِنْهَا صِغَارٌ، وَمِنْهَا كِبَارٌ، فَذَهَبَ أُولَئِكَ الرَّهْطِ كُلُّهُمْ غَيْرِي». وعنه ﵁ أن رسول الله ﷺ قَالَ: «**تَكُونُ فِتَنٌ كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يَتْبَعُ بَعْضُهَا بَعْضًا، تَأْتِيكُمْ مُشْتَبِهَةً كَوُجُوهِ الْبَقَرِ، لاَ تَدْرُونَ أَيُّهَا مِنْ أَيٍّ**». وقال ﵁: «هَذِهِ فِتَنٌ قَدْ أَظَلَّتْ كَجِبَاهِ الْبَقَرِ، يَهْلِكُ فِيهَا أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ مَنْ كَانَ يَعْرِفُهَا قَبْلَ ذَلِكَ»(٤).

أشار حذيفة ﵁ إلى أن الفتن مظلمة شديدة الظلام، لا تتبين ملامحها، كالبقر تتشابه وجوهه للناظر فلا يستطيع أن يميز بقرة من أخرى، ولذلك تُهْلِك كل من لم يكن على علم سابق بها، أي من علم النبوة.

ولا غرو في أن رسول الله ﷺ أخبر أصحابه عن كل شيء من بدء الخلق إلى يوم القيامة، فقد علَّمه الله عِلْم الأولين والآخرين.

---

(١) صحيح البخاري: (٦٢٣٠)؛ صحيح مسلم: (٢٨٩١).
(٢) سنن أبي داود: (٤٢٤٣).
(٣) صحيح مسلم: (٢٨٩٠).
(٤) كتاب الفتن لنعيم بن حماد: (٣، ٤، ٥).

وقال أَنسُ بْنُ مَالِكٍ رضي الله عنه: خَرَجَ النَّبِيّ ﷺ حِينَ زَاغَتِ الشَّمْسُ فَصَلَّى الظُّهْرَ، فَقَامَ عَلَى الْمِنْبَرِ، فَذَكَرَ السَّاعَةَ، فَذَكَرَ أَنَّ فِيهَا أُمُورًا عِظَامًا، ثُمَّ قَالَ: **«مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَسْأَلَ عَنْ شَيْءٍ فَلْيَسْأَلْ، فَلاَ تَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ إِلاَّ أَخْبَرْتُكُمْ مَا دُمْتُ فِي مَقَامِي هَذَا»**[١].

هكذا فتح لهم باب السؤال عن أي شيء على الإطلاق، وهذا يشمل كل ما في السماوات والأرض، ظاهرًا كان أو باطنًا، في الدنيا أو في الآخرة.

وقد قال ﷺ: **«أَتَانِي رَبِّي فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَبِّي وَسَعْدَيْكَ! قَالَ: فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلأُ الأَعْلَى؟ قُلْتُ: رَبِّي لاَ أَدْرِي. فَوَضَعَ يَدَهُ بَيْنَ كَتِفَيَّ فَوَجَدْتُ بَرْدَهَا بَيْنَ ثَدْيَيَّ فَعَلِمْتُ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ...»**[٢]، وفي رواية: **«فَعَلِمْتُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ...»**[٣]، وفي رواية أخرى: **«فَتَجَلَّى لِي كُلُّ شَيْءٍ وَعَرَفْتُ...»**[٤].

وقد قال ﷺ يومًا: **«مَا مِنْ شَيْءٍ لَمْ أَرَهُ إِلاَّ وَقَدْ رَأَيْتُهُ فِي مَقَامِي هَذَا، حَتَّى الْجَنَّةَ وَالنَّارَ...»**[٥]، وقال ﷺ: **«إِنَّ اللهَ زَوَى لِيَ الأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا...»**[٦]. ولذلك لما وصف الفتن ﷺ وصفها وصف المشاهد لها، الناظر إليها.

قال أُسَامَة بن زَيْد رضي الله عنهما: أَشْرَفَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى أُطُمٍ مِنْ آطَامِ الْمَدِينَةِ، فَقَالَ: **«هَلْ تَرَوْنَ مَا أَرَى»**؟ قَالُوا: لاَ.

قَالَ: **«فَإِنِّي لأَرَى مَوَاقِعَ الْفِتَنِ خِلاَلَ بُيُوتِكُمْ كَمَوَاقِعِ الْقَطْرِ»**[٧].

---

(١) صحيح البخاري: (٧٢٩٤).
(٢) سنن الترمذي: (٣٢٣٤).
(٣) سنن الترمذي: (٣٢٣٣).
(٤) سنن الترمذي: (٣٢٣٥).
(٥) صحيح البخاري: (٧٢٨٧)؛ صحيح مسلم: (٩٠٥).
(٦) صحيح مسلم: (٢٨٨٩)؛ سنن الترمذي: (٢١٧٦)، سنن أبي داود: (٤٢٥٢).
(٧) صحيح البخاري: (١٧٧٩)؛ صحيح مسلم: (٢٨٨٥).

وقال ﷺ: «إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ، وَأَسْمَعُ مَا لاَ تَسْمَعُونَ، إِنَّ السَّمَاءَ أَطَّتْ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلاَّ وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لله. وَالله لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشَاتِ وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى الله»(١).

وقد أخبر النبي ﷺ أمته بما يحدث بعد وفاته من رِدَّة، ودجاجلة، ووفاة السيدة فاطمة الزهراء بعده بستة أشهر، ومقتل عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رضي الله عنهما، وفتح بيت المقدس ومصر، وطاعون عمواس بالشام، ثم الفتن التي تحصل في عهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه تفصيلاً، ثم تنازل الإمام الحسن رضي الله عنه عن الخلافة لحقن دماء المسلمين، ثم مقتل الإمام الحسين رضي الله عنه بكربلاء، واستيلاء بني أمية على الحكم وعلى المنبر النبوي بالمدينة المنورة، إلى آخر ما أخبر به مما جاء كما أخبر ﷺ.

(١) سنن الترمذي: (٢٣١٢)؛ سنن ابن ماجه: (٤١٩٠)؛ مسند الإمام أحمد: (٢١٥٥٥).

# ثالثًا: حتمية تدهور الزمـان

إن خير وقت لكل أمة، حين يكون الخير في ذروته والشر في أضعفه، هـو وقـت وجود نبيهم بين ظهرانيهم. ثم لا يزال الأمر في تدن مستمر حتى يـذهب الـصالحون ويذهب معهم العلم، ويندرس الدين فلا يبقى له أثر يذكر.

وقد حدث هذا في الأمم السابقة، وآخرهم النصارى الذين اندرس دينهم حتـى انطمس بالكلية، وقامت على أنقاضه الحضارة الحديثـة القائمـة علـى المادية وعبـادة الشهوات والأهواء، حتى أنه لم يعد فيهم -وإن ادَّعوا عكس ذلك- من يمكن وصـفه بأنه من أتباع سيدنا عيسى عليه السلام بأي حال من الأحوال.

وقد أخـبر ﷺ أن أحـوال الأمـة الإسـلامية لـن تـزال في تـدن إلى قيـام الـساعة، وقد وصف ﷺ هذا التدني والانخفاض وأسبابه، فقال ﷺ: «**لا يَزْدَادُ الأَمْرُ إلا شِدَّةً، وَلا يَزْدَادُ المَالُ إِلا إِفَاضَةً، وَلا يَزْدَادُ النَّاسُ إِلا شُحًّا، وَلا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلا عَلَى شِرَارِ النَّاسِ**»[1].

إن تدهور الأمة لم يكن أبدا بسبب الفقر، فإن المال لا يزداد إلا إفاضة، ولكن مع ذلك لا يزداد الأمر إلا شدة، ويكون الخير في نقصان عاماً بعد عـام، بينمـا الـشر في ازدياد، فلابد حينئذ أن يكون كل عام أسوأ من الذي قبله. لذلك لما اشتكى الناس إلى أَنس بن مَالِك ما يَلْقون مِنَ الْحَجَّاجِ، قَالَ: «**اصْبِرُوا، فَإِنَّهُ لاَ يَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ إِلاَّ الَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ، حَتَّى تَلْقَوْا رَبَّكُمْ**». سَمِعْتُهُ مِنْ نَبِيِّكُمْ ﷺ[2].

فكيف نحكم على زمان من الأزمنة بالـصلاح أو الفـساد؟ يقـول الإمـام عبـد الله

(١) الطبراني في المعجم الكبير: (٧٧٥٧، ٧٧٩٥)؛ الحاكم في المستدرك: (٨٣٥٩).
(٢) صحيح البخاري: (٧٠٦٨)؛ سنن الترمذي: (٢٢٠٦).

الحداد رحمه الله تعالى: «الأزمنة لم تزل قديمًا وحديثًا فيها الخير والشر، وتشتمل على الأخيار والأشرار، وأهل الصلاح وأهل الفساد. فإذا كان الغالب على الزمان وأهله الصلاح والخير والعمل بالبر والأخذ بالصواب، وكان ذلك هو الأكثر والأظهر، وكان الفساد والباطل والمفسدون والمبطلون مغلوبين، وهم الأقل والأخمل[1]، نُسِبَ الزمان إلى الصلاح والاستقامة، فقيل زمان صالح. وذلك مثل ما كان عليه الزمان في عهد رسول الله ﷺ وعهد الخلفاء الراشدين المهديين من بعده. ومتى كان الغالب على الزمان وأهله الشر والفساد، وكان الخير فيه نادرًا، والأخيار فيه قليلين ومستورين، نُسِبَ الزمان إلى الشر والفتنة، فقيل زمان شر وسوء، وزمان فتنة وبلاء. فظهر بما ذكرناه أن الأزمنة تُنسب وتُذكر بالغالب والأكثر، وإلا فليس يخلو زمان عن خير وعن شر، حسبما تقدَّم وتقرَّر. والغالب على زماننا هذا وعلى الأزمنة القريبة منه الفساد والسوء والشرور والأشرار، والخير والصلاح فيه نادر، والأخيار والصالحون قليلون مستورون ومغلوبون ومقهورون. فالله المستعان، وهو حسبنا ونعم الوكيل»[2].

وقد أكَّد ﷺ مررًا وتكرارًا أن خير القرون قرنه ثم يظل الناس في تدن حتى قيام الساعة، وذلك في الأحاديث التالية ومثلها: «**خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ**»[3]، وفي رواية: «**خَيْرُكُمْ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَكُونُ بَعْدَهُمْ قَوْمٌ يَشْهَدُونَ وَلاَ يُسْتَشْهَدُونَ، وَيَخُونُونَ وَلاَ يُؤْتَمَنُونَ، وَيَنْذِرُونَ وَلاَ يَفُونَ، وَيَظْهَرُ فِيهِمُ السِّمَنُ**»[4].

وقال ﷺ: «**نَحْنُ خَيْرٌ مِن أَبْنَائِنَا، وَبَنُونَا خَيْرٌ مِنْ أَبْنَائِهِمْ، وَأَبْنَاءُ بَنِينَا خَيْرٌ مِنْ أَبْنَاءِ أَبْنَائِهِمْ**»[5].

(١) الأخمل: أي الأقل ظهورًا.
(٢) الفصول العلمية والأصول الحكمية، للإمام عبد الله بن علوي الحداد المتوفى في ١١٣٢هجرية، دار الحاوي، الطبعة الثانية، ١٤١٤/ ١٩٩٤م.
(٣) صحيح البخاري: (٣٦٥١، ٦٤٢٩)؛ سنن الترمذي: (٢٢٢١).
(٤) صحيح البخاري: (٦٤٢٨).
(٥) الطبراني في المعجم الكبير: (١٦٦٥٢).

ومما يدل على خيرية القرون الثلاثة الأولى أن النبي ﷺ شَرَع للأمة التوسل بهم في القتال، فقال ﷺ: «**يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ فَيَغْزُو فِئَامٌ مِنَ النَّاسِ، فَيَقُولُونَ: فِيكُمْ مَنْ صَاحَبَ رَسُولَ الله ﷺ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ. فَيُفْتَحُ لَـهُمْ. ثُمَّ يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ فَيَغْزُو فِئَامٌ مِنَ النَّاسِ، فَيُقَالُ: هَلْ فِيكُمْ مَنْ صَاحَبَ أَصْحَابَ رَسُولِ الله ﷺ ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ. فَيُفْتَحُ لَـهُمْ، ثُمَّ يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ فَيَغْزُو فِئَامٌ مِنَ النَّاسِ، فَيُقَالُ: هَلْ فِيكُمْ مَنْ صَاحَبَ مَنْ صَاحَبَ أَصْحَابَ رَسُولِ الله ﷺ ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ. فَيُفْتَحُ لَـهُمْ**»[1].

إذاً بلغت خيرية القرون الأولى أن مجرد وجود واحد منهم فقط في الجيش وتقديمه يأتي بالاستجابة والنصر من الله ﷻ. ويدل الحديث أن أهل هذه الأزمنة كانوا مدركين تمامًا لهذا الأمر، مدركين لمقام رجل واحد من الصحابة، أو التابعين، أو تابعي التابعين. ولكن هل تنتهي هذه السنة الكونية، كون كل من القرون الأولى خير من الذي يليه، بانقضاء هذه القرون الثلاثة الأولى؟ يُبيِّن لنا النبي ﷺ أن التدهور مستمر إلى يوم القيامة. فقد قال ﷺ: «**وَلا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلا عَلَى شِرَارِ النَّاسِ**»[2]، وقال ﷺ: «**يَذْهَبُ الصَّالِحُونَ الأَوَّلُ فَالأَوَّلُ، وَيَبْقَى حُفَالَةٌ كَحُفَالَةِ الشَّعِيرِ أَوِ التَّمْرِ، لاَ يُبَالِيهِمُ اللهُ بَالَةً**»[3]، وفي لفظ: حُثَالَة.

وقال ﷺ: «**إِنَّ أَوَّلَ هَذِهِ الأُمَّةِ خِيَارُهُمْ، وَآخِرهَا شِرَارُهُمْ، مُختلِفِينَ مُتَفَرِّقِينَ، فَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يَأْتِي إِلَى النَّاسِ مَا يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ**»[4].

وعن رُوَيْفِع بن ثابت ؓ قَالَ: قُرِّبَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ تَمْرٌ وَرُطَبٌ، فَأَكَلُوا مِنْهُ حَتَّى لَمْ يَبْقَ مِنْهُ شَيْءٌ إِلا نَوَاهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَتَدْرُونَ مَا هَذَا**»؟ قَالُوا:

(١) صحيح البخاري: (٣٦٤٩). والفِئَام: الجماعة الكثيرة.
(٢) الطبراني في المعجم الكبير، (٧٧٥٧، ٧٧٩٥)، الحاكم في المستدرك، (٨٣٥٩).
(٣) صحيح البخاري: (٦٤٣٤). والحُفَالة: الرديء.
(٤) مجمع الزوائد: (٨/ ١٨٤).

اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «تَذْهَبُونَ الخَيْرَ فَالخَيْرَ حَتَّى لا يَبْقَى مِنْكُمْ إلا مِثْلُ هَذَا»[١]، وقال ﷺ: «لَمْ يَبْقَ مِنَ الدُّنْيَا إِلاَّ بَلاَءٌ وَفِتْنَةٌ»[٢]، وقال ﷺ: «إِنَّ أُمَّتَكُمْ هَذِهِ جُعِلَتْ عَافِيَتُهَا فِي أَوَّلِهَا، وَإِنَّ آخِرَهُمْ يُصِيبُهُمْ بَلاَءٌ وَأُمُورٌ تُنْكِرُونَهَا» وسيأتي تفصيل أنواع البلاء الذي يصيب الأمة في آخر الزمان في الفصول القادمة إن شاء الله.

أما الحديث بكامله فهو كالآتي:

قال عَبْد اللَّه بن عَمْرو بن الْعَاص رضي الله عنهما: بَيْنَا نَحْنُ مَعَ رَسُول اللَّهِ ﷺ فِي سَفَر إِذْ نَزَلَ مَنْزِلاً، فَمِنَّا مَنْ يَضْرِبُ خِبَاءَهُ، وَمِنَّا مَنْ يَنْتَضِلُ، وَمِنَّا مَنْ هُوَ فِي جَشَرِهِ[٣] إِذْ نَادَى مُنَادِيهِ: الصَّلاَةُ جَامِعَةٌ! فَاجْتَمَعْنَا فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَخَطَبَنَا فَقَالَ: «إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلاَّ كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى مَا يَعْلَمُهُ خَيْرًا لَهُمْ، وَيُنْذِرَهُمْ مَا يَعْلَمُهُ شَرًّا لَهُمْ، وَإِنَّ أُمَّتَكُمْ هَذِهِ جُعِلَتْ عَافِيَتُهَا فِي أَوَّلِهَا، وَإِنَّ آخِرَهُمْ يُصِيبُهُمْ بَلاَءٌ وَأُمُورٌ تُنْكِرُونَهَا، ثُمَّ تَجِيءُ فِتَنٌ يُرَقِّقُ بَعْضُهَا بَعْضًا[٤]، فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: هَذِهِ مُهْلِكَتِي، ثُمَّ تَنْكَشِفُ. ثُمَّ تَجِيءُ فِتْنَةٌ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: هَذِهِ مُهْلِكَتِي، ثُمَّ تَنْكَشِفُ. فَمَنْ سَرَّهُ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ وَيُدْخَلَ الجَنَّةَ فَلْتُدْرِكْهُ مَوْتَتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يَأْتُوا إِلَيْهِ. وَمَنْ بَايَعَ إِمَامًا فَأَعْطَاهُ صَفْقَةَ يَمِينِهِ وَثَمَرَةَ قَلْبِهِ فَلْيُطِعْهُ مَا اسْتَطَاعَ؛ فَإِنْ جَاءَ آخَرُ يُنَازِعُهُ فَاضْرِبُوا عُنُقَ الآخَرِ»[٥].

وقد فهم أصحاب رسول الله ﷺ هذا الأمر حق الفهم، وربطوا تدهور الدين تارة بذهاب العلماء واندراس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتارة بالمعاصي

(١) صحيح ابن حبان: (٧٢٢٥)؛ الحاكم في المستدرك: (٨٣٣٦)؛ الطبراني في المعجم الكبير: (٤٤٩٢).
(٢) سنن ابن ماجه: (٤٠٣٥)؛ مسند الإمام أحمد: (٤/ ٩٢).
(٣) **خباءه**: الخباء البيت من الصوف أو الوبر، لا من الشعر. **ينتضل**: يتنافس في الرمي بالنبل. **الجشر**: القوم يبيتون مكانهم بين الإبل.
(٤) تكون كل فتنة أعظم من التي قبلها، فترى كل فتنة رقيقة بالمقارنة للتي سبقتها.
(٥) سنن ابن ماجه: (٣٩٥٦).

وكُفر النعمة من كلٍّ من الحكام والرعية، وفهموا كيف أن ما من عام إلا والذي بعده شر منه، وأورثوا هذا العلم من بعدهم.

قال عبد الله بن مسعود ﷺ: «لاَ يَأْتِي عَلَيْكُمْ يَوْمٌ إلاَّ وَهُوَ شَرٌّ مِنَ الْيَوْمِ الَّذِي كَانَ قَبْلَهُ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ، لَسْتُ أَعْنِي رَخَاءً مِنَ الْعَيْشِ يُصِيبُهُ، وَلاَ مَالاً يُفِيدُهُ، وَلَكِنْ لاَ يَأْتِي عَلَيْكُمْ يَوْمٌ إلاَّ وَهُوَ أَقَلُّ عِلْمًا مِنَ الْيَوْمِ الَّذِي مَضَى قَبْلَهُ، فَإِذَا ذَهَبَ الْعُلَمَاءُ اسْتَوَى النَّاسُ، فَلاَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ، وَلاَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَهْلَكُونَ». كما قال ﷺ: «لاَ يَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ إلاَّ وَهُوَ أَشَرُّ مِمَّا كَانَ قَبْلَهُ، أَمَا إنِّي لاَ أَعْنِي أَمِيرًا خَيْرًا مِنْ أَمِيرٍ، وَلاَ عَامًا خَيْرًا مِنْ عَامٍ، وَلَكِنْ عُلَمَاؤُكُمْ وَفُقَهَاؤُكُمْ يَذْهَبُونَ، ثُمَّ لاَ تَجِدُونَ مِنْهُمْ خَلَفًا، وَيَجِيءُ قَوْمٌ يُفْتُونَ بِرَأْيِهِمْ»(١).

وقال عبد الله بن عمرو ﷺ: «لا تَزَالُوا فِي بَلاءٍ وَفِتْنَةٍ، وَلا يَزْدَادُ الأَمْرُ إلا شِدَّةً، فَإِذَا لَمْ يَلِ الْوَالِي للهِ، وَلَمْ يُؤَدِّ الْمُوَلَّى عَلَيْهِ طَاعَةَ اللهِ، فَأَوْشَكُوا بِكُرْهِ اللهِ، فَإِنَّ كُرْهَ اللهِ أَشَدُّ مِنْ كُرْهِ النَّاسِ»(٢).

وقال معاذ بن جبل ﷺ: «أَمَا إِنَّكُمْ لَنْ تَرَوْا مِنَ الدُّنْيَا إلا بَلاءً وَفِتْنَةً، وَلَنْ يَزْدَادَ الأَمْرُ إلا شِدَّةً، وَلَنْ تَرَوْا أَمْرًا يَهُولُكُمْ أَوْ يَشْتَدَّ عَلَيْكُمْ إلا حَقَرَهُ بَعْدَهُ مَا هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ»(٣).

وقال عُتْبَةُ بْنُ غَزْوَانَ ﷺ: «أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ آذَنَتْ بِصُرْمٍ، وَوَلَّتْ حَذَّاءَ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إلاَّ صُبَابَةٌ كَصُبَابَةِ الإِنَاءِ يَتَصَابُّهَا صَاحِبُهَا...» إلى أن قال: «وَإِنَّهَا لَمْ تَكُنْ نُبُوَّةٌ قَطُّ إلاَّ تَنَاسَخَتْ حَتَّى يَكُونَ آخِرُ عَاقِبَتِهَا مُلْكًا...»(٤). يريد الصحابي الجليل أن الدنيا أعلمت بذهابها وفنائها وانقضائها سريعًا حالاً، ولم يبق فيها إلا كما يتبقى من

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني: (١٣/ ٢١).

(٢) نعيم بن حماد في كتاب الفتن، (١٩).

(٣) نعيم بن حماد في كتاب الفتن، (٤٤).

(٤) صحيح مسلم: كتاب الزهد. «آذنت»: أعلمت، «الصُرْم»: الانقطاع والذهاب، «حذَّاء»: مسرعة الانقطاع، «الصُبَابة»: البقية اليسيرة من الشراب تبقى أسفل الإناء.

مخلفات السائل في الكأس بعد الشرب. كما يشير إلى أنهم يعلمون تمامًا أن الدولة التي قامت على النبوة لابد وأن تتحول مع الوقت وتدهور الزمان إلى ملك.

نفهم من كل ذلك إذن أن كل جيل يأتي يكون أسوأ من الذي قبله وخير من الذي يليه، وأن من علامات تدهور الزمان زيادة الأموال في أيدي الناس، والتطاول في البنيان، أي التطور الحضاري بأشكاله، ولكن هذا التطور الحضاري، أو التقدم كما يحلو للبعض أن يسميه، يصاحبه تدهور كبير في المروءة والأخلاق، فيفشو البخل والشح، والكذب، ونقض العهود، والاختلاف والفرقة. وهذا يعني عموم الفوضى في جميع نواحي الحياة.

عند هذا الحد يمكننا أن نستنبط قانونًا، أو سنة كونية أخرى من سنن الله في خلقه، ألا وهي أن الدنيا لن تزال في تدهور حتى قيام الساعة. وذلك قول النبي ﷺ: **«لاَ يَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ إِلاَّ الَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ، حَتَّى تَلْقَوْا رَبَّكُمْ»**[(1)]، وهذا هو القانون العام لسير التاريخ، وله تقييدات، منها أن التدهور الديني لا يكون في خط هابط مستقيم، بل تتخلله فترات انتعاش، وذلك لظهور المجددين، وكذلك التدهور الدنيوي لا يكون بالضرورة شامل لكل بلاد المسلمين، بل تأتي على بعضهم أيام ازدهار تتلوها أيام انهيار، وقد يحدث إصلاح في مجالات دون مجالات، وهذا في الغالب مرتبط بوجود أهل الإحسان والحزم والإبداع، فهذه الدولة نهض بها سلطانها في أحد العصور، وتلك الدولة أصلح جيشها ذاك القائد في عصر آخر، وتلك المؤسسة أنجحها مديرها المخلص حتى أحيل إلى التقاعد فانهارت من بعده، وهذه المدرسة أخرجت أدباء ومفكرين حين كان ناظرها فلان، وهكذا. إلا أن المحصلة الكلية لمجموع هذه التقلبات تأخذ في النهاية مسارًا هابطًا.

وعد رسول الله ﷺ المسلمين أن الله سوف يتعهدهم في كل عصر بمن يرتضي من عباده الصالحين الذين يبعثون القوة في الدين وينصرونه بما يناسب ذلك العصر،

---

(١) صحيح البخاري، (٧٠٦٨)؛ سنن الترمذي، (٢٢٠٦).

فقال: «**إِنَّ اللهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَـنَةٍ مَـنْ يُجَـدِّدُ لَهَـا دِينَهَـا**»[1]، وقـال: «**لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَوَّامَةً عَلَى أَمْرِ الله لاَ يَضُرُّهَا مَنْ خَالَفَهَا**»[2]، وفي رواية: «**لاَ يَزَالُ مِنْ أُمَّتِي أُمَّةٌ قَائِمَةٌ بِأَمْرِ الله، لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلاَ مَنْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى يَـأْتِيَهُمْ أَمْـرُ الله وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ**»[3]، قال الإمام ابن حجر تعليقًا على الحديث الخاص بتجديد الـدين: «إِنَّهُ لاَ يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ فِي رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ وَاحِدٌ فَقَطْ، بَلْ يَكُونُ الأَمْرُ فِيهِ كَمَا ذَكَرَ فِي الطَّائِفَةِ وَهُوَ مُتَّجَهٌ، فَإِنَّ اجْتِمَاعَ الصِّفَاتِ الْمُحْتَاجِ إِلَى تَجْدِيـدِهَا لاَ يَنْحَـصِرُ فِـي نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْخَيْرِ، وَلاَ يَلْزَمُ أَنَّ جَمِيعَ خِصَالِ الْخَيْـرِ كُلِّهَا فِي شَـخْصٍ وَاحِـدٍ، إِلاَّ أَنْ يُدَّعَى ذلِكَ فِي عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيـزِ، فَإِنَّـهُ كَـانَ الْقَـائِمَ بـالأَمْرِ عَلَـى رَأْسِ الْمِائَـةِ الأُولَى باتِّصَافِهِ بجَمِيعِ صِفَاتِ الْخَيْرِ وَتَقَدُّمِهِ فِيهَا؛ وَمِنْ ثَـمَّ أَطْلَقَ أَحْمَـدُ أَنَّهُـمْ كَـانُوا يَحْمِلُونَ الْحَدِيثَ عَلَيْهِ، وَأَمَّا مَنْ جَـاءَ بَعْـدَهُ فَالـشَّافِعِيُّ وَإِنْ كَـانَ مُتَّـصِفًا بالـصِّفَاتِ الْجَمِيلَةِ، إِلاَّ أَنَّهُ لَمْ يَكُنِ الْقَائِمَ بِأَمْرِ الْجِهَادِ وَالْحُكْمِ بالْعَدْلِ، فَعَلَى هَذا كُلُّ مَنْ كَـانَ مُتَّصِفًا بشَيْءٍ مِنْ ذلِكَ عِنْدَ رَأْسِ الْمِائَةِ هُوَ الْمُرَادُ، سَوَاءٌ تَعَدَّدَ أَمْ لاَ»[4]، ويظهـر مـن كلام الحافظ أن تجديد الدين لا يكون بواسطة العلمـاء فقـط، ولكـن أيـضًا بواسـطة الحكام، وذلك مفهوم بالنسبة للمسلمين الذين قامـت حـضارتهم ومجتمعـاتهم علـى الدين، فتجديد أمور الدنيا عندهم أيضًا جزء من تجديد الدين.

(١) سنن أبي داود: (٤٢٩١).
(٢) سنن ابن ماجه: (٧).
(٣) صحيح البخاري: (٣٦٤١).
(٤) فتح الباري: (١٣/ ٢٩٥).

# رابعًا: الدين يضعف شيئاً فشيئاً بذهاب أهله

إن قيام دولة الإسلام وقوة الدين إنما يكون بالرجال، ورجال المجتمع الإسلامي الذين بهم يصلح أو يفسد إنما هم العلماء، والأمراء، والأغنياء، ففساد كل من هؤلاء يؤدي إلى فساد دين الناس ودنياهم. وقد بيَّن ﷺ أن الدين يضعف ويذهب شيئاً فشيئاً حتى لا يبقى منه شيء. قال ﷺ: «**لَيُنْقَضَنَّ الإِسْلاَمُ عُرْوَةً عُرْوَةً**»(١).

وأخبرنا ﷺ أنه سيأتي يوم يذهب فيه الذاكرون الله كثيرًا والذاكرات، فقال: «**لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لاَ يُقَالَ فِي الأَرْضِ: اللهُ! اللهُ!**»(٢).

وفي رواية: «**لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ عَلَى أَحَدٍ يَقُولُ: اللهُ! اللهُ!**»(٣)، ثم تندرس بعد ذلك معالم الدين ومناسكه وشرائعه. يقول ﷺ: «**يَدْرُسُ الإِسْلاَمُ كَمَا يَدْرُسُ وَشْيُ الثَّوْبِ**(٤)، **حَتَّى لاَ يُدْرَى مَا صِيَامٌ وَلاَ صَلاَةٌ وَلاَ نُسُكٌ وَلاَ صَدَقَةٌ، وَلَيُسْرَى عَلَى كِتَابِ اللهِ ﷻ فِي لَيْلَةٍ فَلاَ يَبْقَى فِي الأَرْضِ مِنْهُ آيَةٌ. وَتَبْقَى طَوَائِفُ مِنَ النَّاسِ، الشَّيْخُ الْكَبِيرُ وَالْعَجُوزُ يَقُولُونَ: أَدْرَكْنَا آبَاءَنَا عَلَى هَذِهِ الْكَلِمَةِ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ فَنَحْنُ نَقُولُهَا...**»(٥)، وقال ﷺ: «**بَدَأَ الإِسْلاَمُ**

(١) مسند الإمام أحمد: (٤/ ٢٣٢).
و«**العروة**»: هي طرف الحبل إذا ربط على هيئة الحلقة يمسك بها من ينزل في بئر أو يصعد منها. (زبدة التفسير للدكتور محمد سليمان الأشقر، دار النفائس، عمان، ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م؛ ص٤٢).
(٢) صحيح مسلم: (١٤٨)؛ سنن الترمذي: (٢٢٠٧)، صحيح ابن حبان: (٦٨٤٩).
(٣) صحيح مسلم: (١٤٨).
(٤) «**درس الشيء**»: عفا وهلك. «**وَشْي الثوب**»: نقشه.
(٥) سنن ابن ماجه: (٤٠٤٩)؛ الحاكم في المستدرك: (٨٤٦٠، ٨٦٣٦). «**يُسْرَى**»: يذهب بالليل.

**غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ**»(١)، أي أن المتمسكين بدينهم، الجادين في المحافظة على السنة المحمدية، سوف يتناقصون عددًا ويختفون عن الأعين حتى يصل بهم الحال أن يكونوا كالأغراب في أوطانهم، حين يبتعد المجتمع عن الدين إلى درجة يُنظر عندها للمتدين نظرة استغراب واستنكار، وفي رواية: «**فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ الَّذِينَ يُصْلِحُونَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ مِنْ بَعْدِي مِنْ سُنَّتِي**»(٢).

وقال ﷺ: «**لَتُنْقَضَنَّ عُرَى الإِسْلاَمِ عُرْوَةً عُرْوَةً، فَكُلَّمَا انْتَقَضَتْ عُرْوَةٌ تَشَبَّثَ النَّاسُ بِالَّتِي تَلِيهَا، فَأَوَّلُهُنَّ نَقْضًا الْحُكْمُ، وَآخِرُهُنَّ الصَّلاَةُ**»(٣)، كما قال حذيفة رضي الله عنه إنه سمع النبي ﷺ يقول: «**لَتُنْقَضَنَّ عُرَى الإِسْلامِ عُرْوَةً عُرْوَةً، وَلَيَكُونُنَّ أَئِمَةً مُضِلُّونَ، وَلْيَخْرُجَنَّ عَلَى أَثَرِ ذَلِكَ الدَّجَّالُونَ الثَّلاثَةُ**»(٤).

وقال ﷺ: «**سَتَكُونُ فِتَنٌ، الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَائِمِ، وَالْقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي، وَالْمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي، وَمَنْ يُشْرِفْ لَهَا تَسْتَشْرِفْهُ، وَمَنْ وَجَدَ مَلْجَأً أَوْ مَعَاذًا فَلْيَعُذْ بِهِ**»(٥)، والفتن التي وجب على الناس البعد عنها واتقاء شرها عادة هي التقاتل على الملك وعلى السلطة السياسية. أسوأ الناس حينئذ الساعي فيها بحيث يهيجها أو يكون سببًا في اشتعالها، وأقل منه جرمًا الماشي فيها الذي يتبع الساعي ويساهم جهده، وخير منه القاعد الذي لا يساعد إلا بالقليل، ولكنه لم يتجنبهم ويتركهم ويذهب. من لم يعرض عنها أي تشرف لها تستشرفه أي تهلكه.

---

(١) صحيح مسلم: (١٤٥)؛ سنن الترمذي: (٢٦٢٩)؛ سنن ابن ماجه: (٤٠٣٥)؛ مسند الإمام أحمد: (١/ ١٨٤، ٣٩٨؛ ٢/ ١٧٧، ٢٢٢).

(٢) سنن الترمذي: (٢٦٣٠).

(٣) صحيح ابن حبان: (٦٧١٥)؛ الحاكم في المستدرك: (٧٠٢٢)؛ مسند الإمام أحمد: (٢٢٢١٤).

(٤) الحاكم في المستدرك: (٨٦١١).

(٥) صحيح البخاري: (٧٠٨٢).

قال ﷺ: «**الخِلاَفَةُ فِي أُمَّتِي ثَلاثُونَ سَنَةً ثُمَّ مُلْكٌ بَعْدَ ذَلِكَ**»[1]، والثلاثون سنة المذكورة هي خلافة الخلفاء الراشدين الأربعة، ثم خلافة الإمام الحسن لمدة ستة أشهر تكمل بها الثلاثون سنة.

والنبوة رحمة للعالمين، فإن كان الحكم بعد ذلك خلافة، استمرت الخلافة رحمة، واستمرت الفتوحات، وساد العدل، فإن الرحمات إنما تتنزل على الأمة المستقيمة حكامًا ورعية. بعد ذلك يتحول الأمر إلى ملك، أي تدخل فيه الأهواء الدنيوية، ثم يصير الملوك جبابرة، وتنقطع الرحمات، وتصب عليهم اللعنات، ويهزمهم الأعداء. وقد قال ﷺ: «**إِنَّ هَذَا الأَمْرَ بَدَأَ رَحْمَةً وَنُبُوَّةً، ثُمَّ يَكُونُ رَحْمَةً وَخِلافَةً، ثُمَّ كَائِنًا مُلْكًا عَضُوضًا، ثُمَّ كَائِنًا عُتُوًّا وَجَبَرِيَّةً، وَفَسَادًا فِي الأَرْضِ، يَسْتَحِلُّونَ الحَرِيرَ، وَالْفُرُوجَ، وَالخُمُورَ، يُرْزَقُونَ عَلَى ذَلِكَ، وَيُنْصَرُونَ حَتَّى يَلْقَوُا اللهَ ﷻ**»[2]، وقال ﷺ: «**إِنَّ فِيكُمُ النُّبُوَّةَ، ثُمَّ تَكُونُ خِلافَةً عَلَى مِنهاجِ النُّبُوَّةْ، ثُمَّ يَكُونُ مُلْكًا وَجَبَرِيَّةً**»[3].

ولما جَاءَ إلى عمر رضي الله عنه رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَقَالَ: «السَّلامُ عَلَيْكَ يَا مَلِكَ الْعَرَبِ»، قَالَ عُمَرُ: «وَهَكَذَا تَجِدُونَهُ فِي كِتَابِكُمْ؟ أَلَيْسَ تَجِدُونَ النَّبِيَّ، ثُمَّ الْخَلِيفَةَ، ثُمَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، ثُمَّ الْمُلُوكَ بَعْدُ؟» قَالَ لَهُ: «بَلَى»[4].

---

(١) سنن الترمذي: (٢٢٢٦)؛ سنن أبي داود: (٤٦٤٦)؛ النسائي في السنن الكبرى: (٨١٥٥)؛ مسند الإمام أحمد: (٢١٩٧٨).
(٢) البيهقي في شعب الإيمان: (٥٦١٦)؛ الطبراني في الكبير: (٩١، ٣٦٧).
(٣) الطبراني في الكبير: (٣٦٨)؛ مسند الإمام أحمد: (٤/ ٢٧٣)؛ البزار: (٧/ ٢٢٤).
(٤) مصنف ابن أبي شيبة: (٣٧٧٣٨).

# خامسًا: أسباب التدهور

إن تدهور الأمة كما يظهر من الأحاديث النبوية له أسباب خمسة أساسية مرتبطة ومتداخل بعضها بالبعض. فالسبب الأول فساد الأمراء، والثاني غياب العلماء العاملين وفساد من يسمون بعدهم بالعلماء، والثالث، وهو ناشئ عن السببين السابقين ويغذيهما ويزيدهما قوة، وهو تباعد عوام الناس عن الدين، وتكالبهم على الدنيا، وعدم احترامهم وامتثالهم للعلماء، ووقوعهم في الكبائر التي تمحق البركات وتجر عليهم اللعنات. والسبب الرابع، وهو وليد الثالث، هو تقليد الأمم الأخرى في كل كبيرة وصغيرة. أما السبب الخامس فهو فقدان مفهوم الإحسان الذي لا يكون بدونه فلاح، والذي حث وأكَّد عليه النبي ﷺ مرارًا.

وقد سأل عمر رضي الله عنه أحدهم يومًا: «هَلْ تَعْرِفُ مَا يَهْدِمُ الإِسْلاَمَ»؟ قَالَ الرَّجُل: «لاَ». قَالَ: «يَهْدِمُهُ زَلَّةُ الْعَالِمِ، وَجِدَالُ الْمُنَافِقِ بِالْكِتَابِ، وَحُكْمُ الأَئِمَّةِ الْمُضِلِّينَ»(١)، فبدأ بالعلماء، ثم بالدجالين الذين يتزايد تأثيرهم بضعف وغياب العلماء، ثم ثلّث بالحكام الضالين المضلين.

ونتيجة لهذه العوامل وهذا التدهور نجد أن الأمة تضعف ويصيبها الوهن، حتى تصير لقمة سائغة في أفواه الأمم الأخرى، إلى درجة أن تداعى هذه على هذه الأمة المنكوبة تداعي الآكلة على قصعتها. وتظهر فيهم الأمراض والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم، ويكثر موت الفجاءة، وتكثر الكوارث الطبيعية من زلازل وعواصف، إلى آخر ما سيظهر من دراسة الأحاديث الشريفة.

(١) سنن الدارمي: (١/ ٧١).

### ١- فساد الأمراء ومن حولهم:

#### مهمـة الأمـراء:

تكلم النبي ﷺ مرارًا عن كيفية تأدية الحاكم، وهو الأمير أو الإمام أو السلطان، لوظيفته بما يرضي الله تعالى، وَبَشَّر من يفعل ذلك منهم بالرضا والتأييد من الله، وتوعَّد من يظلم منهم بالغضب والعذاب من الله، وبيّن للناس مقام الحاكم وحقيقته عند الله، وأوضح لهم كيفية التعامل معه إن أحسن وإن أساء.

يقول ﷺ: «**أَلاَ كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالأَمِيرُ الَّذِي عَلَى النَّاسِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ...**»[١]، ويقول ﷺ: «**لابُدَّ لِلنَّاسِ مِنْ إِمَارَةٍ، بَرَّةٍ أَوْ فَاجِرَةٍ، فَأَمَّا الْبَرَّةُ فَتَعْدِلُ فِي الْقَسْمِ وَتَقْسِمُ بِالسَّوِيَّةِ، وَأَمَّا الْفَاجِرَةُ فَيُبْتَلَى فِيهَا الْمُؤْمِنُ. وَالإِمَارَةُ الْفَاجِرَةُ خَيْرٌ مِنَ الهرْج**» قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا الهَرْجُ؟ قَالَ: «**الْقَتْلُ وَالْكَذِبُ**»[٢].

ويقول الإمام علي رضي الله عنه في بيان وظيفة الحاكم: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ لا يُصْلِحُكُمْ إلا أَمِيرٌ، بَرٌّ أَوْ فَاجِرٌ. قَالُوا: هَذَا الْبَرُّ قَدْ عَرَفْنَاهُ، فَمَا بَالُ الْفَاجِرِ؟ فَقَالَ: يَعْمَلُ الْمُؤْمِنُ، وَيُمْلِي لِلْفَاجِرِ، وَيُبَلِّغُ اللهُ الأَجَلَ، وَتَأْمَنُ سُبُلُكُمْ، وَتَقُومُ أَسْوَاقُكُمْ، وَيُقَسَّمُ فَيْؤُكُمْ، وَيُجَاهِدُ عَدُوُّكُمْ، وَيُؤْخَذُ للضَّعِيفِ مِنَ الْقَوِيِّ -أَوْ قَالَ: مِنَ الشَّدِيدِ- مِنْكُمْ»[٣]، تظهر هنا واضحة الوظيفة الأساسية للحاكم في الدولة الإسلامية، ألا وهي الحفاظ على الأمن.

والأمن الذي به يأمن الناس في عباداتهم ومعاملاتهم، في شوارعهم وأسفارهم وأسواقهم، يكون بمنع العدوان من الخارج، أي بالجيش، ولذلك ذكر جهاد العدو وردع الظلم، والجريمة في الداخل، وذلك يكون بالشرطة والقضاء، ولذلك ذكر أمن السبل والأسواق، وأَخْذ حق الضعيف من القوي.

---

(١) صحيح مسلم: (١٨٢٩)؛ سنن الترمذي: (١٧٠٥).
(٢) مجمع الزوائد: (٥/ ٢٢٢).
(٣) مصنف ابن أبي شيبة: (٣٧٩٣١).

وترتيب الجيوش والشرطة والقضاة أهم وظائف الإمام الأعظم أو أمير البلاد. وهذا يفسر قوله ﷺ: «**إِذَا مَرَرْتَ بِبَلْدَةٍ لَيْسَ فِيهَا سُلْطَانٌ فَلاَ تَدْخُلْهَا، إِنَّمَا السُّلْطَانُ ظِلُّ اللهِ وَرُمْحُهُ فِي الأَرْضِ**»[1].

ويقول ﷺ: «**إِنَّ السُّلْطَانَ ظِلُّ اللهِ فِي الأَرْضِ، يَأْوِي إِلَيْهِ كُلّ مَظْلُوم مِنْ عِبَادِهِ، فَإِذَا عَدَلَ كَانَ لَهُ الأَجْرُ وَعَلَى الرَّعِيَّةِ الشُّكْرُ، وَإِذَا جَارَ كَانَ عَلَيْهِ الإِصْرُ وَعَلَى الرَّعِيَّةِ الصَّبْرُ، وَإِذَا جَارَتِ الْوُلاةُ قَحِطَتِ السَّمَاءُ، وَإِذَا مُنِعَتِ الزَّكَاةُ هَلَكَتِ المَوَاشِي، وَإِذَا ظَهَرَ الزِّنَا ظَهَرَ الْفَقْرُ وَالمَسْكَنَةُ، وَإِذَا خُفِرَتِ الذِّمَّةُ أُدِيلَ الْكُفَّارُ**»[2].

قال صاحب «فيض القدير»: السلطان ظل الله في الأرض؛ لأنه يدفع الأذى عن الناس كما يدفع الظل حر الشمس...، وأضافه إلى الله تشريفًا له، مثل يد الله، وناقة الله، وإيذانًا بأنه ظل ليس كسائر الظلال، بل له شأن ومزيد اختصاص بالله بما جعله خليفة في الأرض ينشر عدله وإحسانه في عباده. ولما كان في الدنيا ظل الله يأوي إليه كل ملهوف، استوجب أن يأوي في الآخرة إلى ظل العرش... فمن أكرمه أكرمه الله، ومن أهانه أهانه الله؛ لأن نظام الدين إنما هو بالمعرفة والعبادة، وذلك لا يحصل إلا بإمام مطاع، ولولاه لوقع التغلب، وكثر الهرج، وعمت الفتن، وتعطل أمر الدين والدنيا. فالسلطان حارس وراعي، ومن لا راعي له فهو ضال.

السلطان ظل الله في الأرض تشبيه، وقوله يأوي إليه كل مظلوم من عباده، جملة مبينة. إنما شبّه بالظل؛ لأن الناس يستريحون إلى برد عدله من حر الظلم. فإن عدل كان له الأجر وكان على الرعية الشكر، وإن جار أو حاف أو ظلم كان عليه الوزر، أي الوزر العظيم الشديد، وكان على الرعية الصبر أي يلزمهم الصبر على جوره ولا يجوز لهم الخروج عليه إلا إن كفر. ثم إنه لا منافاة بين فرض جوره وما اقتضاه مطلع الحديث من عدله؛ لأن قوله السلطان ظل الله بيان لشأنه، وأنه ينبغي كونه

---

(١) البيهقي في شعب الإيمان: (٧٣٧٥)، وفي السنن الكبرى: (٨/ ١٦٢).

(٢) مجمع الزوائد: (٥/ ١٩٦)؛ الحكيم الترمذي في نوادر الأصول: (٤/ ١٥٣). والحديث ضعيف ولكن له شواهد كثيرة. (**أُدِيلَ الكفارُ**): أي صارت لهم الدولة، أي الغلبة والتمكين.

كذلك، فإن جار خرج عن كونه ظل الله، فهو من قبيل: ﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾[1]. فرتب على الحكم الوصف المناسب ونهاه عما لا يناسب. وإذا جارت الولاة قحطت السماء، أي إذا ذهب العدل انقطع القطر، فلم تنبت الأرض، فحصل القحط؛ لأن الوالي فاصل بين الحق والباطل، فإذا ذهب الفاصل انقطعت الرحمة. وإذا منعت الزكاة هلكت المواشي؛ لأن الزكاة تنميها، والنمو بركة، وإذا منعت الزكاة بقيَ المال بدنسه، ولا بقاء للبركة مع الدنس، وإذا ارتحلت البركة عن شيء هلك؛ لأن نسله ينقطع. وإذا ظهر الزنا ظهر الفقر والمسكنة؛ لأن هذا من فضل الله، والفضل لأهل الفرح بالله وبعطائه، وبالمناكحة الشرعية يلتقي الزوجان على الفرح بما أعطاهم الله، فمن زنا فقد آثر الفرح الذي من قبل العدو على الفرح الذي بفضل الله، فأورثه الفقر. وإذا أخفرت الذمة أديل الكفار؛ لأن المؤمن عاهد الله بالوفاء بذمته، فإذا أخفر نقض العهد وإذا نقض وهن عقد المعرفة؛ لأن المعرفة مقرونة بالعهد، معقودة به، وبنقض العهد يخاف انحلال العقد، وبالانحلال تذهب هيبة الإسلام، ويقذف الوهن في القلوب...»[2].

**فضل الأمير أو الإمام العادل:**

تحدَّث النبي ﷺ عن فضل الإمام العادل، فقال: «**يَوْمٌ مِنْ إِمَامٍ عَدْلٍ أَفْضَلُ مِنْ عِبَادَةِ سِتِّينَ سَنَةٍ، وَحَدٌّ يُقَامُ فِي الأَرْضِ بِحَقِّهِ أَزْكَى فِيهَا مِنْ مَطَرِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا**»[3].

وقال ﷺ: «**سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ: الإِمَامُ الْعَادِلُ**،...»[4]، فذكر في أول السبعة (الإمام العادل).

وقال ﷺ: «**إِنَّ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَى اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ مَجْلِسًا إِمَامٌ عَادِلٌ**،

(١) سورة ص، آية: [٢٦].
(٢) فيض القدير: (٤/ ١٤٢، ١٤٣).
(٣) البيهقي في السنن الكبرى: (٨/ ١٦٢).
(٤) صحيح البخاري: (٦٢٩، ١٣٥٧)؛ صحيح مسلم: (١٠٣١).

**وَأَبْغَضَ النَّاسِ إِلَى اللهِ وَأَبْعَدَهُمْ مِنْهُ مَجْلِسًا إِمَامٌ جَائِرٌ**»[١].

إن استقامة أمر الأمة منوط بصلاح الحاكم ونوابه، ولذلك لما سألت امرأة أبا بكر ﷺ يومًا: «مَا بَقَاؤُنا عَلَى هَذا الأَمْرِ الصَّالِحِ الَّذِي جَاءَ اللَّهُ بِهِ بَعْدَ الْجَاهِلِيَّةِ»؟ قَالَ أَبُوبَكْر: «بَقَاؤُكُمْ عَلَيْهِ مَا اسْتَقَامَتْ بِكُمْ أَئِمَّتُكُمْ». قَالَتْ: «وَمَا الأَئِمَّةُ»؟ قَالَ: «أَمَا كَانَ لِقَوْمِكِ رُءُوسٌ وَأَشْرَافٌ يَأْمُرُونَهُمْ فَيُطِيعُونَهُمْ»؟ قَالَتْ: «بَلَى». قَالَ: «فَهُمْ أُولَئِكَ عَلَى النَّاسِ»[٢].

وقَالَ عُمَرُ ﷺ: «اعْلَمُوا أَنَّ النَّاسَ لَنْ يَزَالُوا بِخَيْرٍ مَا اسْتَقَامَتْ لَهُمْ وُلاَتُهُمْ وَهُدَاتُهُمْ»[٣]، وقال أنس بن مالك: «السُّلْطَانُ ظِلُّ اللهِ فِي الأَرْضِ، فَمَنْ غَشَّهُ ضَلَّ، وَمَنْ نَصَحَهُ اهْتَدَى»[٤].

وتوعَّد النبي ﷺ أمراء السوء فكان مما قال: «**اللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ فَاشْقُقْ عَلَيْهِ، وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَرَفَقَ بِهِمْ فَارْفُقْ بِهِ**»[٥].

وقال ﷺ: «**مَا مِنْ أَمِيرٍ يَلِي أَمْرَ الْمُسْلِمِينَ ثُمَّ لاَ يَجْهَدُ لَهُمْ وَيَنْصَحُ إِلاَّ لَمْ يَدْخُلْ مَعَهُمُ الْجَنَّةَ**»[٦]. وقال ﷺ: «**مَا مِنْ إِمَامٍ يُغْلِقُ بَابَهُ دُونَ ذَوِي الْحَاجَةِ وَالْخَلَّةِ وَالْمَسْكَنَةِ إِلاَّ أَغْلَقَ اللهُ أَبْوَابَ السَّمَاءِ دُونَ خَلَّتِهِ وَحَاجَتِهِ وَمَسْكَنَتِهِ**»[٧].

### كيف يفسد الأمراء؟

ثم أخبر ﷺ عما سيكون بعده ـ وإلى يوم القيامة ـ من تدهور الحكام، فقال:

---

(١) سنن الترمذي: (١٣٢٩)؛ مسند الإمام أحمد: (١١١٩٠).
(٢) صحيح البخاري: (٣٦٢٢).
(٣) البيهقي في السنن الكبرى: (٨/ ١٦٢).
(٤) البيهقي في شعب الإيمان: (٧٣٧٦).
(٥) صحيح مسلم: فضيلة الأمير العادل.
(٦) صحيح مسلم: (١٤٢، ١٨٢٩)؛ مسند أبي عوانة: (١/ ٣٢).
(٧) سنن الترمذي: (١٣٣٢).

**«يَكُونُ بَعْدِي قَوْمٌ يَأْخُذُونَ الْمُلْكَ، يَقْتُلُ عَلَيْهِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا»**(١).

ويقول ﷺ: **«سَيَكُونُ مِنْ بَعْدِي خُلَفَاءُ، وَمِنْ بَعْدِ الْخُلَفَاءِ أُمَرَاءُ، وَمِنْ بَعْدِ الأُمَرَاءِ مُلُوكٌ، وَمِنْ بَعْدِ الْمُلُوكِ جَبَابِرَةٌ، ثُمَّ يَخْرُجُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي يَمْلأُ الأَرْضَ عَدْلاً كَمَا مُلِئَتْ جَوْرًا، ثُمَّ يُؤَمَّرُ الْقَحْطَانِيُّ، فَوَالَّذِي بَعَثَنِي بِالْحَقِّ مَا هُوَ دُونَهُ»**(٢) هكذا وصف ﷺ تدهور أنظمة الحكم عبر الزمن، ومن الواضح أننا أصبحنا الآن في العالم الإسلامي في المرحلة الأخيرة والسفلى من هذا الوصف التي هي مرحلة الجبابرة، قد وصفهم ﷺ في أحاديث شتى فقال: **«سَيَكُونُ أَئِمَّةٌ مِنْ بَعْدِي يَقُولُونَ وَلاَ يُرَدُّ عَلَيْهِمْ، يَتَقَاحَمُونَ فِي النَّارِ كَمَا تَتَقَاحَمُ الْقِرَدَةُ»**(٣)، وهؤلاء لا يُرَدّ عليهم؛ لأنهم من بطشهم يخاف من حولهم أن يسمعونهم رأيًا آخر أو يأمرونهم بالمعروف. وفي رواية: **«يَكُونُ أُمَرَاءُ يَقُولُونَ وَلاَ يُرَدُّ عَلَيْهِمْ، يَتَهَافَتُونَ فِي النَّارِ، يَتْبَعُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا»**(٤).

تشير الأحاديث إلى أن ما يقوله هؤلاء الأمراء نافذ، لا يرد عليهم من حولهم إلا: «موافقون! موافقون».

وليس هؤلاء الأمراء أو الجبابرة في فراغ، فحولهم بطانة من أصحاب المراكز والمصالح، وقد جاء ذكرهم في مثل الأحاديث التالية: يقول ﷺ: **«مَا بَعَثَ اللهُ مِنْ نَبِيٍّ، وَلاَ اسْتَخْلَفَ مِنْ خَلِيفَةٍ، إِلاَّ كَانَتْ لَهُ بِطَانَتَانِ؛ بِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالمَعْرُوفِ وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ، وَبِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالشَّرِّ وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ، فَالمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَ اللهُ تَعَالَى»**(٥)، وفي رواية: **«مَا بُعِثَ مِنْ نَبِيٍّ، وَلاَ كَانَ بَعْدَهُ مِنْ خَلِيفَةٍ، إِلاَّ وَلَهُ بِطَانَتَانِ؛ بِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَاهُ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَبِطَانَةٌ**

---

(١) مسند الإمام أحمد: (٤/ ٢٦٣).

(٢) الطبراني في الكبير: (٩٣٧).

(٣) الطبراني في الكبير: (٩٢٥)، وفي الأوسط، (٥٣١١)؛ أبويعلى: (٧٣٨٢). و(**التقاحم**): التزاحم على الدخول في أمر بسرعة وبدون روية.

(٤) أبويعلى: (٧٣٧٧)؛ الطبراني في الكبير: (٧٩٠).

(٥) صحيح البخاري: (٧١٩٨)؛ سنن النسائي: (٤٢٠٢)؛ مسند الإمام أحمد: (١١٣٦٠).

**لاَ تَأْلُوهُ خَبَالاً؛ فَمَنْ وُقِيَ بِطَانَةَ السُّوءِ فَقَدْ وُقِيَ**»[1]، وبطانة السوء أشد تأثيرًا وخطرًا من بطانة الخير؛ لأنها لا تتقيد بشرف ولا أخلاق في الصراع على السلطة، ولذلك: «**مَا اخْتَلَفَتْ أُمَّةٌ بَعْدَ نَبِيِّهَا إِلا ظَهَرَ أَهْلُ بَاطِلِهَا عَلَى أَهْلِ حَقِّهَا**»[2].

وهذه الأحاديث فيها دلالة واضحة وجلية على أن كل جبار له بطانة سوء، وهم المنتفعون من مراكزهم وقربهم من ذلك الجبار، وهم الذين يديرون أمور البلاد لحسابه وحسابهم الخاص، فيأمرونه بالمنكر، وينهونه على إيتاء كل ذي حق حقه، ويزينون له اضطهاد الناس، والتنكيل بمن يظن فيه المعارضة، والأخذ بالشبهات. وهم كما يتضح من الأحاديث القادمة يسيرون في درب غير درب الإسلام.

يقول ﷺ: «**أَلاَ إِنَّ رَحَى الإِسْلاَمِ دَائِرَةٌ، فَدُورُوا مَعَ الْكِتَابِ حَيْثُ دَارَ، أَلاَ إِنَّ الْكِتَابَ وَالسُّلْطَانَ سَيَفْتَرِقَانِ فَلاَ تُفَارِقُوا الْكِتَابَ...**»[3].

وافتراق الحكم عن الشريعة تم على مراحل، حتى وصل إلى ما نراه اليوم من دول تُسمِّي نفسها إسلامية ويُقضَى فيها بقوانين وضعية وليس بشرع الله ﷻ، ويكون فيها الضعيف مقهوراً، بينما صاحب الجاه الدنيوي فوق القانون.

وهذه الأمور تَجُرُّ على الأمة البلاء الشديد، فقد قال ﷺ: «**أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ النَّاسَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمِ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الحَدَّ..**»[4]، أي إن كون الأقوياء والأغنياء فوق القانون لابد وأن يَجُرَّ على الأمم المصائب حتى يؤدي إلى هلاكها.

(١) سنن النسائي: (٤٢٠٣). (**تألوه**): تقصر في إفساد أمره. (**خبالاً**): فسادًا، والمراد: لا تُقَصِّر في إفساد أمره.
(٢) الطبراني في الأوسط: (٧٧٥٤)؛ أبونعيم في حلية الأولياء: (٤/ ٣١٣).
(٣) الطبراني في الصغير: (٧٤٩)، والكبير: (١٧٢)؛ أبونعيم في حلية الأولياء: (٥/ ١٦٥)، مسند الشاميين: (١/ ٣٧٩).
(٤) صحيح البخاري: (٤٠٥٣)؛ صحيح مسلم: (١٦٨٨)؛ سنن الترمذي: (١٤٣٠)؛ سنن أبي داود: (٤٣٧٣)؛ سنن النسائي: (٤٨٩٨)؛ سنن ابن ماجه: (٢٥٤٧).

وفي حديث آخر يقول ﷺ: «**حَدٌّ يُعْمَلُ فِي الأَرْضِ خَيْرٌ لأَهْلِ الأَرْضِ مِنْ أَنْ يُمْطَرُوا ثَلاَثِينَ صَبَاحًا**»[1]، أي إن إقامة العدل سبب في حصول الرخاء أكثر من نزول المطر ثلاثين يومًا متتالية على الأرض المحتاجة للماء.

وفي حديث آخر: «**وَلاَ حَكَمَ أُمَرَاؤُهُمْ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللهُ ﷻ إِلا سَلَّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوَّهُمْ، وَاسْتَفْقَدُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ، وَمَا عَطَّلُوا كِتَابَ اللهِ وَسُنَّةَ رَسُولِهِ إِلاَّ جَعَلَ اللهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ...**»[2]، وقد سَلَّط الله المغول على الأمة لَمَّا حكم الأمراء بغير ما أنزل الله، ثم الصليبيين، والروم، ونصارى الأندلس، ثم الدول الاستعمارية كلها، ثم الصهاينة، وأخيرًا الأمريكان، كما جعل بأسهم بينهم، لما عطَّلوا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فتقاتلوا وتناحروا، ولا زالوا متفرقين.

وفي حديث آخر: «**وَمَا حَكَمُوا بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللهُ إِلا فَشَا فِيهُمُ الْفَقْرُ**»[3]، أي أن الفقر أيضًا نتيجة للحكم بغير ما أنزل الله ﷻ.

### فما موقف المسلم من هؤلاء الحكام؟

يقول ﷺ: «**اسْمَعُوا، هَلْ سَمِعْتُمْ أَنَّهُ سَيَكُونُ بَعْدِي أُمَرَاءُ، فَمَنْ دَخَلَ عَلَيْهِمْ فَصَدَّقَهُمْ بِكَذِبِهِمْ، وَأَعَانَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ، وَلَيْسَ بِوَارِدٍ عَلَيَّ الحَوْضَ، وَمَنْ لَمْ يَدْخُلْ عَلَيْهِمْ وَلَمْ يُعِنْهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ، وَلَمْ يُصَدِّقْهُمْ بِكَذِبِهِمْ، فَهُوَ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ، وَهُوَ وَارِدٌ عَلَيَّ الحَوْضَ**»[4]، وللحديث روايات أخرى عديدة.

ويقول ﷺ: «**يَكُونُ بَعْدِي أَئِمَّةٌ لاَ يَهْتَدُونَ بِهُدَايَ، وَلاَ يَسْتَنُّونَ بِسُنَّتِي، وَسَيَقُومُ فِيهِمْ رِجَالٌ قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الشَّيَاطِينِ فِي جُثْمَانِ إِنْسٍ**». قَالَ حُذَيْفَةُ -راوي الحديث-:

---

(١) سنن النسائي: (٤٩٠٤)؛ مسند الإمام أحمد: (٨٧٢٣، ٩٢١٥).
(٢) البيهقي في شعب الإيمان: (٣٣١٤).
(٣) الطبراني في الكبير: (١٠٩٩٢).
(٤) سنن الترمذي: (٢٢٥٩)؛ سنن النسائي: (٧٨٣١)؛ مسند الإمام أحمد: (٤/ ٢٤٣).

كَيْفَ أَصْنَعُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ أَدْرَكْتُ ذلِكَ؟ قَالَ: «**تَسْمَعُ وَتُطِيعُ لِلأَمِيرِ، وَإِنْ ضُرِبَ ظَهْرُكَ، وَأُخِذَ مَالُكَ فَاسْمَعْ وَأَطِعْ**»(١).

ويقول ﷺ: «**سَيَكُونُ عَلَيْكُمْ أَئِمَّةٌ يَمْلِكُونَ أَرْزَاقَكُمْ يُحَدِّثُونَكُمْ فَيَكْذِبُونَكُمْ، وَيَعْمَلُونَ وَيُسِيئُونَ الْعَمَلَ، لاَ يَرْضَوْنَ مِنْكُمْ حَتَّى تُحَسِّنُوا قَبِيحَهُمْ وَتُصَدِّقُوا كَذِبَهُمْ، فَأَعْطُوهُمُ الحَقَّ مَا رَضُوا بِهِ، فَإِذَا تَجَاوَزُوا فَمَنْ قُتِلَ عَلَى ذَلِكَ فَهُوَ شَهِيدٌ**»(٢).

وكذلك قال ﷺ لأصحابه: «**إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ بَعْدِي أَثَرَةً وَأُمُورًا تُنْكِرُونَهَا**». قَالُوا: فَمَا تَأْمُرُنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «**أَدُّوا إِلَيْهِمْ حَقَّهُمْ، وَسَلُوا اللهَ حَقَّكُمْ**»(٣).

ولقد سأل الصحابة يومًا سول الله ﷺ: أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَيْنَا أُمَرَاءُ يَمْنَعُونَا حَقَّنَا وَيَسْأَلُونَا حَقَّهُمْ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ -تأكيدًا لهذا المعنى-: «**اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا، فَإِنَّمَا عَلَيْهِمْ مَا حُمِّلُوا، وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ**»(٤).

وقال النبي ﷺ يومًا: «**إِنَّهُ يُسْتَعْمَلُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ فَتَعْرِفُونَ وَتُنْكِرُونَ، فَمَنْ كَرِهَ فَقَدْ بَرِئَ، وَمَنْ أَنْكَرَ فَقَدْ سَلِمَ، وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ**». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلاَ نُقَاتِلُهُمْ؟ قَالَ: «**لاَ، مَا صَلَّوْا**». أَيْ مَنْ كَرِهَ بِقَلْبِهِ وَأَنْكَرَ بِقَلْبِهِ.(٥).

يقول الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في شرح هذا الحديث: «مَنْ كَرِهَ ذَلِكَ الْمُنْكَر فَقَدْ بَرِئَ مِنْ إِثْمه وَعُقُوبَته، وَهَذَا فِي حَقّ مَنْ لاَ يَسْتَطِيع إِنْكَاره بِيَدِهِ ولاَ لِسَانه، فَلْيَكْرَهْهُ بِقَلْبِهِ وَلْيَبْرَأْ.. ولَكِنَّ الإِثْم وَالْعُقُوبَة عَلَى مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ. وَفِيهِ: دَلِيل عَلَى أَنَّ مَنْ عَجَزَ عَنْ إِزَالَة الْمُنْكَر لاَ يَأْثَم بِمُجَرَّدِ السُّكُوت، بَلْ إِنَّمَا يَأْثَم بِالرِّضَى بِهِ، أَوْ بِأَن لا يَكْرَههُ بِقَلْبِهِ

(١) صحيح مسلم: (١٨٤٧).
(٢) الطبراني في الكبير: (٩١٠).
(٣) صحيح البخاري: (٧٠٥٢). (**والأَثَرَة**): الجَدْب والحال غير المرضية.
(٤) سنن الترمذي: (٢١٩٩).
(٥) صحيح مسلم: وجوب الإنكار على الأمراء فيما يخالف الشرع؛ سنن الترمذي: (٢٢٦٥).

أَوْ بالْمُتَابَعَةِ عَلَيْهِ. وَأَمَّا قَوْله: (أَفَلاَ نُقَاتِلهُمْ؟ قَالَ: لاَ، مَا صَلَّوْا) فَفِيهِ مَعْنَى مَا سَبَقَ أَنهُ لاَ يَجُوز الْخُرُوج عَلَى الْخُلَفَاء بِمُجَرَّدِ الظُّلْم أَوْ الْفِسْق، مَا لَمْ يُغَيِّرُوا شَيْئًا مِنْ قَوَاعِد الإِسْلاَم»[1].

صدق رسول الله ﷺ، الحكام يستأثرون بأموال الشعوب، ويتحكَّمون في أرزاقهم، ويكذبون عليهم بالتصريحات الكاذبة والوعود الجوفاء، ويسيرون بالناس في طريق لا يؤدي إلا إلى اضطرارهم لأكل الحرام من رشوة واختلاس وخلافه. ومع ذلك كله يقول ﷺ: «أَدُّوا إِلَيْهِمْ حَقَّهُمْ»، أي على الرغم من الظلم الواقع، «وَسَلُوا اللَّهَ حَقَّكُمْ»، أي فوضوا الأمر إلى الله، إن شاء آتاكم حقكم في الدنيا، وإن شاء في الآخرة. ومع ذلك يأمر الناس باحترام الأمراء حتى لا تكون فتنة، فيقول ﷺ: «**مَنْ أَكْرَمَ سُلْطَانَ اللهِ فِي الدُّنْيَا أَكْرَمَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ أَهَانَ سُلْطَانَ اللهِ فِي الدُّنْيَا أَهَانَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[2]، ويقول ﷺ: «**مَا مِنْ قَوْمٍ مَشَوْا إِلَى سُلْطَانِ اللهِ لِيَذِلُّوهُ إِلا أَذَلَّهُمُ اللهُ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ**»[3].

ويقول ﷺ: «**إِنَّ مِنْ إِكْرَامِ جَلاَلِ اللهِ إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ، وَالإِمَامِ الْعَادِلِ، وَحَامِلِ الْقُرْآنِ، لاَ يَغْلُو فِيهِ، وَلاَ يَجْفُو عَنْهُ**»[4].

ويخبر ﷺ عن مفارقة الأمراء لشرع الله، فيقول: «**خُذُوا الْعَطَاءَ مَا دَامَ عَطَاءً، فَإِذَا صَارَ رِشْوَةً عَلَى الدِّينِ فَلاَ تَأْخُذُوهُ، وَلَسْتُمْ بِتَارِكِيهِ، يَمْنَعْكُمُ الْفَقْرَ وَالْحَاجَةَ، أَلاَ إِنَّ رَحَى الإِسْلاَمِ دَائِرَةٌ، فَدُورُوا مَعَ الْكِتَابِ حَيْثُ دَارَ، أَلاَ إِنَّ الْكِتَابَ وَالسُّلْطَانَ سَيَفْتَرِقَانِ، فَلاَ تُفَارِقُوا الْكِتَابَ، أَلاَ إِنَّهُ سَيَكُونُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ يَقْضُونَ لأَنْفُسِهِمْ مَا لاَ يَقْضُونَ لَكُمْ،**

(١) الإمام النووي، شرح صحيح مسلم، وجوب الإنكار على الأمراء فيما يخالف الشرع: ص٢٤٤.

(٢) مسند الإمام أحمد: (٥/ ٤٢، ٤٨)؛ البيهقي في السنن الكبرى: (٨/ ١٦٣)؛ وأخرج الترمذي شطر الحديث الثاني: (٢٢٢٤).

(٣) مسند البزار: (٢٤٦٩).

(٤) مجمع الزوائد: (٥/ ٢١٥).

إِنْ عَصَيْتُمُوهُمْ قَتَلُوكُمْ، وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ أَضَلُّوكُمْ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ نَصْنَعُ؟ قَالَ: «كَمَا صَنَعَ أَصْحَابُ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، نُشِرُوا بِالْمَنَاشِيرِ، وَحُمِلُوا عَلَى الْخَشَبِ؛ مَوْتٌ فِي طَاعَةِ اللهِ خَيْرٌ مِنْ حَيَاةٍ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ»(١)، وفي رواية: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ خُذُوا الْعَطَاءَ مَا كَانَ عَطَاءً، فَإِذَا تَجَاحَفَتْ قُرَيْشٌ عَلَى الْمُلْكِ وَكَانَ عَنْ دِينِ أَحَدِكُمْ فَدَعُوهُ»(٢).

فأول الأشياء إذا هو طاعة هؤلاء الجبابرة في كل ما ليس فيه معصية لله، وعدم طاعتهم فيما فيه ظلم للناس، وإن تعرض المرء للأذى بسبب ذلك.

وأما ثانيها فهو عدم الرضا عن عملهم بالقلب.

وأما ثالثها فهو -كما فيما مر وما يأتي من الأحاديث- عدم مساعدتهم على ظلمهم بالعمل لحسابهم وخدمتهم.

يقول ﷺ: «السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ، فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ، مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلاَ سَمْعَ وَلاَ طَاعَةَ»(٣)، ويقول ﷺ: «لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَكُونُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ سُفَهَاءُ، يُقَدِّمُونَ شِرَارَ النَّاسِ، وَيَظْهَرُونَ بِخِيَارِهِمْ، وَيُؤَخِّرُونَ الصَّلاَةَ عَنْ مَوَاقِيتِهَا، فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَلاَ يَكُونَنَّ عَرِيفًا، وَلاَ شُرْطِيًّا، وَلاَ جَابِيًا، وَلاَ خَازِنًا»(٤)، فهذه تعليمات نبوية مباشرة ألا يعمل الإنسان لحساب الظلمة في الوظائف التي فيها ظلم ظاهر فيكون لهم بذلك معينًا على الظلم، ويحدد الحديث هذه الوظائف بأنها أن يكون عريفًا، أي أن يكون مسئولا كبيرًا كالوزير أو المحافظ أو ما شابه ذلك؛ وأن يعمل بالشرطة، وهي أجهزة الأمن التي يفرض بها الظالم سلطانه ويرهب بها الناس؛ و(الجباية) وهي جمع الضرائب وغير ذلك مما يفرض على الناس تعسفًا وعدوانًا؛

(١) الطبراني في الكبير: (١٧٢)، والصغير: (٧٤٩)؛ أبونعيم في حلية الأولياء: (٥/ ١٦٥)؛ مسند الشاميين: (١/ ٣٧٩).

(٢) سنن أبي داود: (٢٩٥٨، ٢٩٥٩). (تَجَاحَفَتْ): تخاصمت.

(٣) البخاري: (٧١٤٤).

(٤) أبويعلى: (١١١٥)؛ الطبراني في الأوسط: (٤١٩٠)، والصغير: (٥٦٤)؛ ابن حبان: (٤٥٨٦).

و(الخزانة) وهي أن يقوم على هذا المال الذي تم جمعه ظلمًا، فيقوم بتوزيعه ظلمًا على الحاكم وبطانته. قال ﷺ: «**وَيْلٌ لِلْعُرَفَاءِ، وَيْلٌ لِلأُمَرَاءِ، وَيْلٌ لِلأُمَنَاءِ، لَيَأْتِيَنَّ عَلَى أَحَدِهِمْ يَوْمٌ يَوَدّ أَنَّهُ كَانَ مُعَلَّقًا بِذُؤَابَتِهِ مَتَى طَلَعَتِ الثُّرَيَّا وَأَنَّهُ لَمْ يَتَأَمَّرِ النَّاسَ**»(١)، وينصحهم بعدم أخذ الناس بالظن، وبعدم التجسس عليهم، إذ أن ذلك يكون سببًا في فسادهم: «**إِنَّ الأَمِيرَ إِذَا ابْتَغَى الرِّيبَةَ فِي النَّاسِ أَفْسَدَهُمْ**»(٢).

ومن المسئولين الذين يُعَيِّنهم الحاكم لإقامة العدل بين الناس: القضاة، فيقول لهم ﷺ: «**إِنَّ اللهَ مَعَ الْقَاضِي مَا لَمْ يَجُرْ، فَإِذَا جَارَ تَخَلَّى عَنْهُ وَلَزِمَهُ الشَّيْطَانُ**»(٣)، ويقول ﷺ: «**قَاضِيَانِ فِي النَّارِ وَقَاضٍ فِي الْجَنَّةِ. قَاضٍ قَضَى بِالْحَقِّ فَهُوَ فِي الْجَنَّةِ، وَقَاضٍ قَضَى بِجَوْرٍ فَهُوَ فِي النَّارِ، وقَاضٍ قَضَى بِجَهْلِهِ فَهُوَ فِي النَّارِ**» قَالُوا: فَمَا ذَنْبُ هَذَا الَّذِي يَجْهَلُ؟ قَالَ: «**ذَنْبُهُ أَنْ لاَ يَكُونَ قَاضِيًا حَتَّى يَعْلَمَ**»(٤).

وأما رابعها، فهو النصيحة لهم إن أمكن وكان الناصح يطمع أن يستمع له.

يقول ﷺ: «**إِنَّمَا الدِّينُ النَّصِيحَةُ**». قَالُوا: لِمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «**للهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ، وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ**»(٥).

وقد عَرَضَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ يومًا رَجُلٌ عِنْدَ الْجَمْرَةِ الأُولَى، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الْجِهَادِ أَفْضَلُ؟ فَسَكَتَ عَنْهُ. فَلَمَّا رَمَى الْجَمْرَةَ الثَّانِيَةَ سَأَلَهُ، فَسَكَتَ عَنْهُ. فَلَمَّا رَمَى جَمْرَةَ الْعَقَبَةِ وَوَضَعَ رِجْلَهُ فِي الْغَرْزِ لِيَرْكَبَ، قَالَ ﷺ: «**أَيْنَ السَّائِلُ**»؟

---

(١) الحاكم في المستدرك: (٧٠١٥)، مسند الإمام أحمد: (٨٦١٢)؛ البيهقي في السنن الكبرى: (١٠/ ٩٧)؛ مسند أبي يعلى: (٦٢١٧).

(٢) البزار: (٢٨٤٨)؛ مجمع الزوائد: (٥/ ٢١٦).

(٣) سنن الترمذي: (١٣٣٠).

(٤) الحاكم في المستدرك: (٧٠١٣).

(٥) صحيح مسلم: (٥٥)؛ سنن الترمذي: (١٩٢٦)؛ سنن أبي داود: (٤٩٤٥)؛ سنن النسائي: (٤١٩٧).

قَالَ: أَنا يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «**كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ ذِي سُلْطَانٍ جَائِرٍ**»[(١)]، ويقول ﷺ: «**إِذَا رَأَيْتَ أُمَّتِي تَهَابُ الظَّالِمَ أَنْ تَقُولَ لَهُ أَنْتَ ظَالِمٌ فَقَدْ تُوُدِّعَ مِنْهُمْ**»[(٢)].

فإذا كان الحاكم ممن لا يخاف الله، ولا يستمع النصحية، ويؤذي من ينصحه، ويضطهد من يأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر، فماذا يكون العمل حينئذ؟

يقول ﷺ: «**خِيَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ، وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ، وَشِرَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ، وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ**». قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلاَ نُنَابِذُهُمْ بِالسَّيْفِ؟ فَقَالَ: «**لاَ، مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلاَةَ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْ وُلاَتِكُمْ شَيْئًا تَكْرَهُونَهُ فَاكْرَهُوا عَمَلَهُ، وَلاَ تَنْزِعُوا يَدًا مِنْ طَاعَةٍ**»[(٣)].

ويقول ﷺ: «**يَكُونُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ تَطْمَئِنُ إِلَيْهِمُ الْقُلُوبُ، وَتَلِينُ لَهُمُ الْجُلُودُ، ثُمَّ يَكُونُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ تَشْمَئِزُّ مِنْهُمُ الْقُلُوبُ وَتَقْشَعِرُّ مِنْهُمُ الْجُلُودُ**». فَقَالَ رَجُلٌ: أَنُقَاتِلُهُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «**لاَ، مَا أَقَامُوا الصَّلاَةَ**»[(٤)].

ويقول ﷺ: «**اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَإِنِ اسْتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ**»[(٥)].

ويقول ﷺ: «**إِنَّمَا الإِمَامُ جُنَّةٌ، يُقَاتَلُ مِنْ وَرَائِهِ وَيُتَّقَى بِهِ، فَإِنْ أَمَرَ بِتَقْوَى اللهِ وَعَدَلَ فَإِنَّ لَهُ بِذَلِكَ أَجْرًا، وَإِنْ أَمَرَ بِغَيْرِ ذَلِكَ فَإِنَّ عَلَيْهِ وِزْرًا**»[(٦)].

وقال عُبَادَة بن الصَّامِت ﵁: «دَعَانَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَبَايَعْنَاهُ، فَكَانَ فِيمَا أَخَذ

---

(١) سنن ابن ماجه: (٤٠١٣)؛ سنن النسائي: (٤٢٠٩)؛ سنن الترمذي: (٢١٧٤)؛ سنن أبي داود: (٤٣٤٤).

(٢) مسند الإمام أحمد: (٦٥٢١، ٦٧٨٤)؛ البزار: (٢٣٧٤).

(٣) صحيح مسلم: (١٨٠٥).

(٤) مسند الإمام أحمد: (١١٢٤٠)؛ البيهقي في شعب الإيمان: (٧٥٠٦).

(٥) صحيح البخاري: (٧١٤٢).

(٦) مسند الإمام أحمد، (١٠٧٨٧). (جُنَّة): وقاية.

عَلَيْنَا أَنْ بَايَعَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا، وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا، وَأَثَرَةٍ عَلَيْنَا، وَأَنْ لاَ نُنَازِعَ الأَمْرَ أَهْلَهُ»، قَالَ ﷺ: «**إِلاَّ أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنَ اللهِ فِيهِ بُرْهَانٌ**»[1].

ويقول ﷺ: «**مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلْيَصْبِرْ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الجَمَاعَةَ شِبْراً فَمَاتَ، إِلاَّ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً**»[2]، وفي رواية: «**فَإِنَّهُ مَنْ خَرَجَ مِنَ السُّلْطَانِ شِبْراً مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً**»[3].

يقول الإمام النووي رحمه الله في شرحه على صحيح مسلم: «وأما الخروج عليهم وقتالهم فحرام بإجماع المسلمين، وإن كانوا فسقة ظالمين. وقد تظاهرت الأحاديث بمعنى ما ذكرته، وأجمع أهل السنة أنه لا ينعزل السلطان بالفسق. أما الوجه المذكور في كتب الفقه لبعض أصحابنا أنه ينعزل، وحكي عن المعتزلة أيضًا، فغلط من قائله، مخالف للإجماع. قال العلماء: وسبب عدم انعزاله وتحريم الخروج عليه ما يترتب على ذلك من الفتن، وإراقة الدماء، وفساد ذات الْبَيْن، فتكون المفسدة في عزله أكثر منها في بقائه».

وقال الإمام النووي أيضًا: «وَقَالَ جَمَاهِير أَهْل السُّنَّة مِنْ الْفُقَهَاء وَالْمُحَدِّثِينَ وَالْمُتَكَلِّمِينَ: لاَ يَنْعَزِل بِالْفِسْقِ، وَالظُّلْم، وَتَعْطِيل الْحُقُوق، وَلاَ يُخْلَع وَلاَ يَجُوز الْخُرُوج عَلَيْهِ بِذَلِكَ، بَلْ يَجِب وَعْظه وَتَخْوِيفه؛ لِلأَحَادِيثِ الْوَارِدَة فِي ذَلِكَ»[4].

والحكمة من هذه الأوامر واضحة، فإن الفتنة نائمة ولعن الله من أيقظها، والأمور ذاهبة إلى الأسوأ لا محالة، وكل فتنة أو هزة في نظام الحكم إنما تسرع وتزيد من هذا التدهور. إن عدم الصبر على السلطان الجائر، وإحداث فتنة يختل بها النظام،

---

(١) صحيح البخاري: (٧٠٥٥)؛ صحيح مسلم: وجوب طاعة الأمراء في غير معصية.

(٢) صحيح البخاري: (٧٠٥٤، ٧١٤٣).

(٣) صحيح البخاري: (٧٠٥٣).

(٤) الإمام النووي، شرح صحيح مسلم، وجوب طاعة الأمراء في غير معصية: ص٢٢٩.

لابد وأن يؤدي إلى ظهور من هم أكثر ظلمًا وجورًا، فإن قانون الزمان أنه ما من عـام إلا والذي بعده شر منه، وأن الأرض لابـد وأن تمـلأ «ظلمًـا وجـورًا» كمـا ثبـت في أحاديث الإمام المهدي الكثيرة، وكل محاولة لتغيير النظام بالقوة فإنما تزيد مـن سـرعة التدهور ولا تأتي بخير أبدًا.

وهذا بالطبع عكس مبدأ الخوارج الذين قتلوا عثمـان ﷺ، ثـم رفـضوا إمـارة الإمام علي ﷺ وخرجوا عليه، وتمكنوا من اغتيالـه، ولم يزالـوا منـذ ذلـك الوقـت مصدر فتنة وقلاقل في الأمة، وذلك ليس لجهلهم بهذه القواعد الـتي أرسـاها رسـول الله ﷺ بقدر ما هو عدم التسليم للحكم الشرعي حين يتعـارض مـع غـيظ النفـوس وإرادة الانتقام التي تؤدي إلى العنف واتباع الهوى، وإمالة النـصوص لتوافـق فهمهـم ومذهبهم، مع ادعائهم أنهم أعلم من علماء الأمة، وأنهـم مـصلحون: ﴿**أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ**﴾[1]، وليس غير الخوارج في هذه الأمـة عنـدهم آليـات التكفير، والإخراج من الملة، وبالتالي استحلال الدماء، فمهما اغتاظ المسلم من فجور الحاكم فهو يعلم أنه لا يمكنه أن يستحل دمه، إلا الخارجي الذي يكفّـر كـل مـن هـو مخالف لجماعته وأميره.

* * *

## ٢- تناقص عدد العلماء العاملين وظهور الجهّال والدجّالين:

إن للعلماء في هذه الأمة مقامًا عظيمًا، فهم ورثة علم النبـوة، يبثونـه في النـاس، فيعلموهم الحلال والحرام، ويأمرونهم بالمعروف وينهـونهم عـن المنكـر، ويقـودونهم بذلك إلى الجنة. وهم مسئولون عن بذل النصح للحكام، وأمرهم بالمعروف وبالعـدل وبالرحمة للرعية، ونهيهم عن الظلم والفجور.

(١) سورة البقرة، آية: [١٢].

وقال الإمام البخاري رَحِمَهُ اللهُ عند شرحه لقوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾[2]: «وَكَانَتِ الأَئِمَّةُ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ يَسْتَشِيرُونَ الأُمَنَاءَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي الأُمُورِ الْمُبَاحَةِ، لِيَأْخُذُوا بِأَسْهَلِهَا، فَإِذَا وَضَحَ الْكِتَابُ أَوِ السُّنَّةُ لَمْ يَتَعَدَّوْهُ إِلَى غَيْرِهِ؛ اقْتِدَاءً بِالنَّبِيِّ ﷺ»[3].

وقد مر قوله ﷺ: «**يَرِثُ هَذَا الْعِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلَفٍ عُدُولُهُ، يَنْفُونَ عَنْهُ تَأْوِيلَ الجَاهِلِينَ، وَانْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ، وَتَحْرِيفَ الْغَالِينَ**»[4]، لكل ذلك يكون للعلماء مقام كبير عند الله يوم القيامة. يقول رسول الله ﷺ: «**يَشْفَعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلاَثَةٌ: الأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الْعُلَمَاءُ، ثُمَّ الشُّهَدَاءُ**»[5]، فذكر العلماء بعد الأنبياء مباشرة، وقبل الشهداء، مع ما للشهداء من مقام عظيم.

وقال ﷺ: «**لَيَدْخُلَنَّ الجَنَّةَ بِشَفَاعَةِ رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَكْثَرُ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ**». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ سِوَاكَ؟ قَالَ: «**سِوَايَ**»[6]، وقال ﷺ: «**إِنَّ أُمَّتِي لَنْ تَجْتَمِعَ عَلَى ضَلاَلَةٍ، فَإِذَا رَأَيْتُمُ اخْتِلاَفًا فَعَلَيْكُمْ بِالسَّوَادِ الأَعْظَمِ**»[7]، والسواد الأعظم جمهور العلماء، أي إنهم ملجأ الناس وملاذهم عند اشتداد الفتنة.

ولذلك أيضًا أمر رسول الله ﷺ باحترام العلماء وتوقيرهم، فقال ﷺ: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يُوَقِّرْ كَبِيرَنَا، وَلَمْ يَعْرِفْ لِعَالِمِنَا حَقَّهُ**»[8]، وأنذر أن من علامات الفساد بُغْض

(١) سورة الشورى، آية: [٣٨].
(٢) سورة آل عمران، آية: [١٥٩].
(٣) صحيح البخاري: (٢٨).
(٤) سبق تخريجه ص١٢ من الكتاب.
(٥) سنن ابن ماجه: (٤٣١٣).
(٦) سنن الترمذي: (٢٤٣٨)؛ سنن ابن ماجه: (٤٣١٦).
(٧) سنن ابن ماجه: (٣٩٥٠).
(٨) سنن الترمذي: (١٩١٩)؛ مسند الإمام أحمد: (١/ ٢٠٧، ٢٢٢).

العلماء فقال ﷺ: «**إِذَا أَبْغَضَ الْمُسْلِمُونَ عُلَمَاءَهُمْ، وأَظْهَرُوا عِمَارَةَ أَسْوَاقِهِمْ، وَتَأَلَّبُوا عَلَى جَمْعِ الدَّرَاهِمِ؛ رَمَاهُمُ اللهُ بِأَرْبَعِ خِصَالٍ: بِالْقَحْطِ مِنَ الزَّمَانِ، وَالجَوْرِ مِنَ السُّلْطَانِ، وَالخِيَانَةِ مِنْ ولاةِ الأَحْكَامِ، وَالصَّوْلَةِ مِنَ الْعَدُوِّ**»(١).

إن العالِم يجب ألا تكون نيته في كل عمل إلا الله والدار الآخرة، وليس الدنيا، والجاه، والمنزلة عند الناس، ولا المنافسة والمجادلة والمماراة. والعالِم يجب أن يعمل بعلمه، فيكون أول مستفيد منه، ويُعَلِّمه لغيره، ويدعو الناس إلى الله، ويوجههم إلى ما فيه الخير، وهذا أفضل العلماء عند الله. أما العالِم الذي يعمل بعلمه ولكن لا يُعَلِّمه، فهو أقل مرتبة، والذي يُعَلِّمه ولكنه لا يعمل به فهو أقل من الذي قبله، ولا زال فيه خير. أما الذي لا يعمل ولا يُعَلِّم، فحسابه يوم القيامة شديد، ولا أسوأ منه إلا الذي يدعو إلى الشر والضلالة، وترويج الشر في معرض الخير، وتصوير الباطل بصورة الحق.

وعلى العلماء دعوة الحكام أن يتبصروا في الدين، ويتعلموا ما لابد لهم منه، ويحثوهم على أن يكونوا أحرص الناس على إقامة فرائض الله، واجتناب محارمه، وتعظيم شعائر الدين، وأن يأمروا الرعية بذلك، ويزيلوا المنكرات. وعلى العلماء أن ينصحوا الحكام أن يكونوا رحماء، يظهروا اللين والرفق بالضعفاء والمظلومين وذوي الحاجات، ويشتدوا على الظالمين والمتجبرين، وأن يجعلوا أبوابهم مفتوحة لمن أراد الشكوى إليهم، وأن لا يقيموا في وظيفة -من قضاء، أو شرطة، أو استخبارات، أو مثلها- إلا من يثقوا بكفاءته، وأخلاقه، وعقله، ونزاهته.

وقد أخبر النبي ﷺ عن ذهاب العلماء، ورئاسة الجهلاء، فقال: «**إِنَّ اللهَ لاَ يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا، يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا، اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالاً فَسُئِلُوا، فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا**»(٢).

(١) الحاكم في المستدرك: (٧٩٢٣).
(٢) صحيح البخاري: (١٠٠)؛ صحيح مسلم: (٢٦٧٢)؛ سنن الترمذي: (٢٦٥٢)؛ سنن ابن ماجه: (٥٢).

وقال ﷺ: «**سَيَأْتِي عَلَى أُمَّتِي زَمَانٌ يَكْثُرُ فِيهِ الْقُرَّاءُ، وَيَقِلُّ الْفُقَهَاءُ، وَيُقْبَضُ الْعِلْمُ، وَيَكْثُرُ الْهَرْجُ**». قَالُوا: وَمَا الْهَرْجُ؟ قَالَ: «**الْقَتْلُ بَيْنَكُمْ، ثُمَّ يَأْتِي بَعْدَ ذَلِكَ زَمَانٌ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ رِجَالٌ لاَ يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، ثُمَّ يَأْتِي زَمَانٌ يُجَادِلُ الْمُنَافِقُ الْمُشْرِكُ الْمُؤْمِنَ**»[1].

والمفهوم من الحديث أن القراء هنا هم الذين يقرأون العلم ولا يعملون به ولا يفقهونه، أضف إلى ذلك وقياسًا عليه هؤلاء المثقفين الذي يقرأون كل شيء غير ذي فائدة ويتبعون الآراء والمذاهب المستوردة، وكذلك المتنطعون الذين يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم ويظنون أنهم هم قادة الأمة.

وكثرة القراء يصحبها قبض العلم بقبض العلماء الصالحين الذين هم «ورثة الأنبياء»، كما قال ﷺ: «**إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَاراً وَلاَ دِرْهَماً، وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ**»[2].

وقال ﷺ: «**إِنَّكُمْ قَدْ أَصْبَحْتُمْ فِي زَمَانٍ كَثِيرٍ فُقَهَاؤُهُ، قَلِيلٍ خُطَبَاؤُهُ، كَثِيرٍ مُعْطُوهُ، قَلِيلٍ سُؤَّالُهُ، الْعَمَلُ فِيهِ خَيْرٌ مِنَ الْعِلْمِ، وَسَيَأْتِي زَمَانٌ قَلِيلٌ فُقَهَاؤُهُ، كَثِيرٌ خُطَبَاؤُهُ، كَثِيرٌ سُؤَّالُهُ، قَلِيلٌ مُعْطُوهُ، الْعِلْمُ فِيهِ خَيْرٌ مِنَ الْعَمَلِ**»[3]، إن علماء السوء هم الذين باعوا دينهم واشتروا به الدنيا، فكانوا طوع إشارة الحكام، يحلون لهم الحرام، ويحرمون الحلال، وينكرون على العلماء العاملين. وعلماء السوء يقولون ولا يفعلون، ويستحلون ما يحرمونه على الناس.

قال ﷺ: «**يَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ عُبَّادٌ جُهَّالٌ، وَقُرَّاءُ فَسَقَة**»[4]، عندئذ يصبح المسلم رهين علمه، فإن كان ذا علم نجا، وإن كان ذا جهل هلك.

---

(١) الطبراني في الأوسط: (٣٢٧٧).

(٢) سنن الترمذي: (٢٦٨٢).

(٣) الطبراني في الكبير: (٣١١١).

(٤) الحاكم في المستدرك: (٧٨٨٣)؛ البيهقي في شعب الإيمان: (٦٩٥٤).

ولقد كان العلم في الزمان الأول منتشرًا، فكان الناس يتفاضلون في العمل به، أما في آخر الزمان فإن العمل من صلاة وزكاة وخلافة لا يغني شيئًا إن كان الإنسان يجهل كيف ينجو من الفتن، ولذلك قال النبي ﷺ: «**فَقِيهٌ وَاحِدٌ أَشَدُّ عَلَى الشَّيْطَانِ مِنْ أَلْفِ عَابِدٍ**»[1]، وقال ﷺ: «**فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ..**»[2].

إن العلماء هم الحصن الحاجز بين الناس وبين تلاعب الدجاجلة بعقولهم وعواطفهم، وإدخال أنواع الضلالة عليهم، كل نوع يبعدهم عن ربهم وصراطه المستقيم ويقربهم من جهنم. وإذا قَلَّ عدد العلماء الصالحين صارت الساحة خالية ممن يدافع عن دين الله، وظهر الدجالون الذين يزينون للناس المذاهب الفاسدة والبدع التي لم تكن في أسلافهم، ومنهم من يتكلم باسم الإسلام فيفسد على الناس دينهم، ومنهم من يتكلم بلسان الحضارة الغربية، يدعو الناس إلى قبول كل ما جاءت به دون تدبر ولا رَوِيَّة.

يقول ﷺ: «**إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ كَذَّابِينَ فَاحْذَرُوهُمْ**»[3]، ويقول ﷺ: «**لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَقْتَتِلَ فِئَتَانِ عَظِيمَتَانِ، يَكُونُ بَيْنَهُمَا مَقْتَلَةٌ عَظِيمَةٌ، دَعْوَتُهُمَا وَاحِدَةٌ، وَحَتَّى يُبْعَثَ دَجَّالُونَ كَذَّابُونَ، قَرِيبٌ مِنْ ثَلاَثِينَ، كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ رَسُولُ الله، وَحَتَّى يُقْبَضَ الْعِلْمُ، وَتَكْثُرَ الزَّلاَزِلُ، وَيَتَقَارَبَ الزَّمَانُ، وَتَظْهَرَ الْفِتَنُ، وَيَكْثُرَ الهَرْجُ وَهُوَ الْقَتْلُ...**»[4]، ويقول ﷺ: «**إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ ثَلاَثِينَ دَجَّالاً كَذَّابًا**»[5]. ويقول ﷺ: «**يَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ دَجَّالُونَ كَذَّابُونَ يَأْتُونَكُمْ مِنَ الأَحَادِيثِ بِمَا لَمْ تَسْمَعُوا أَنْتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ،**

(١) سنن ابن ماجه: (٢٢٢)؛ سنن الترمذي: (٢٦٨١).
(٢) سنن الترمذي: (٢٦٨٢).
(٣) صحيح مسلم: (١٨٢٢)؛ مسند الإمام أحمد: (٥/ ٨٩).
(٤) صحيح البخاري: (٧١٢١).
(٥) مسند الإمام أحمد: (٥٩٨٥).

**فَإِيَّاكُمْ وَإِيَّاهُمْ لاَ يُضِلُّونَكُمْ وَلاَ يَفْتِنُونَكُمْ**»[(1)]، نفهم من ذلك كله أن الإنسان في الواقع المعاصر على خطر كبير أن يضل أو يفتتن من كثرة ما يسمع من الدجل والكذب، أي التلبيس وقلب الأمور، وإخفاء بعض ما يتعلق بأمر، وإظهار البعض الآخر لقذف انطباع معين في قلب المستمع، كما يفعله الإعلام الغربي في كل القضايا وفي قضية فلسطين بالذات، فترى الإنسان العامي في الغرب يكره العرب ويتعاطف مع إسرائيل؛ لأن العرب يريدون إبادة إسرائيل الديمقراطية المتحضرة البريئة.

*** 

### ٣- فساد العامة:

وإذا تحدثنا عن أحوال العامة، وهجرهم لسنة سيد المرسلين ﷺ؛ لَهْثاً وراء الدنيا، فإن هذا الأمر مشاهد لكل ذي علم وبصيرة. ولقد قارن المصطفى ﷺ بين أحوال القرون الأولى وبين المتأخرين فقال: «**إِنَّكُمْ فِي زَمَانٍ عُلَمَاؤُهُ كَثِيرٌ، وَخُطَبَاؤُهُ قَلِيلٌ، مَنْ تَرَكَ فِيهِ عُشْرَ مَا يَعْلَمُ غَوَى، وَسَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَقِلُّ عُلَمَاؤُهُ وَيَكْثُرُ خُطَبَاؤُهُ، مَنْ تَمَسَّكَ فِيهِ بِعُشْرِ مَا يَعْلَمُ نَجَا**»[(2)].

وصدق رسول الله ﷺ فإنا في زمن الخطباء فيه في كل مكان، وقد اعتلوا منابر المساجد والمحافل والنوادي والمناسبات كالأعياد والاحتفالات القومية والحزبية والانتخابية والنقابية، وكثروا في البرلمان والتلفزيون والمدارس، أما العلماء فلم يعد لهم ظهور إلا في القليل النادر، ولذلك فسد أكثر الناس، وفي مثل هذه البيئة لعل من تمسك بعشر ما يعلم ينطبق عليه الحديث الشريف.

يقول صاحب «فيض القدير» أن خطاب الرسول ﷺ إلى أصحابه كان يراد به: «إنكم -أيها الصحب- في زمان متصف بالأمن وعزة الإسلام، من ترك منكم فيه عُشْر

(١) صحيح مسلم: (٧)؛ مسند الإمام أحمد: (٨٥٨٠)؛ الحاكم في المستدرك: (٣٥١).
(٢) مجمع الزوائد: (١/ ١٢٧، ٢/ ١٩٠، ١٠/ ٢٤٩)؛ مسند الإمام أحمد: (٢١٤٠٩).

ما أُمِرَ به من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ -إذ لا يجوز صرف هذا القول إلى عموم المأمورات، لما عُرف أن مسلمًا لا يُعْذر فيما يهمل من فرض عيني- هلك، أي في ورطات الهلاك؛ لأن الدين عزيز، وفي أنصاره كثرة، فالتَّرْك تقصير منكم، فلا عذر لأحد في التهاون حينئذ. ثم يأتي زمان يضعف فيه الإسلام، وتكثر الظلمة، ويعم الفسق، ويكثر الدَّجَّالون، وتقل أنصار الدين، فيعذر المسلمون في الترك إذ ذاك لعدم القدرة... وحينئذ من عمل منهم -أي من أهل ذلك الزمن المحتوي على المحن والفتن- بعشر ما أُمِرَ به نجا؛ لأنه المقدور، ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، فاتقوا الله ما استطعتم، قال الغزالي: لولا أنه قال ﷺ بأنه سيأتي زمان من تمسك فيه بعشر ما أمر به نجا لكان جديرًا بنا أن نقتحم والعياذ بالله ورطة اليأس والقنوط، مع ما نحن عليه من سوء أعمالنا»[1].

يقول ﷺ: «**إِذَا كَانَ أُمَرَاؤُكُمْ خِيَارَكُمْ، وَأَغْنِيَاؤُكُمْ سُمَحَاءَكُمْ، وَأُمُورُكُمْ شُورَى بَيْنَكُمْ، فَظَهْرُ الأَرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ بَطْنِهَا، وَإِذَا كَانَ أُمَرَاؤُكُمْ شِرَارَكُمْ، وَأَغْنِيَاؤُكُمْ بُخَلاَءَكُمْ، وَأُمُورُكُمْ إِلَى نِسَائِكُمْ، فَبَطْنُ الأَرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ ظَهْرِهَا**»[2].

إن رجال المجتمع الإسلامي -كما ذكرنا آنفًا- الذين يدور عليهم صلاحه وفساده ثلاثة: الأمراء، والعلماء، والأغنياء. فإذا كانت الأمراء من الأخيار، والأمر شورى أي يستشار أهل العلم والحكمة في أمور الدولة، والأغنياء سمحاء يخرجون زكاتهم المفروضة، ويحسنون إلى ذوي الحاجة ممن حولهم، ويقيمون المشاريع الخيرية، فإن المجتمع بلا شك يكون صالحًا، فيه البركة، منصورًا بتأييد الله، أما إذا كانت الأمراء شرار الناس، وساد كل قبيلة وكل سوق أراذلها، وكان الأغنياء بخلاء، لا يسعون في الخير، ولا يخرجون الزكاة، وكان رأي العلماء والحكماء منبوذ لا يؤخذ به، كان المجتمع فاسدًا، تظهر فيه جميع المصائب من فقر، ومرض، ومعاصي، وهزيمة.

ويذهب الظن إلى أن معنى كون الأمر إلى النساء ليس المراد منه إشراك النساء في

(١) فيض القدير: (٢/ ٥٥٦).
(٢) سنن الترمذي: (٢٢٦٦).

إدارة الأمور، فذلك جائز إن كن مؤهلات، ولكن أن يعيش المجتمع كله -وليس نصفه النسائي فقط- بالعقلية النسائية. إن الله خلق للرجل طبيعة خشنة، تكتفي بالقليل من الراحة الجسمانية، فوظيفته خارج المنزل في طلب العيش تقتضي ذلك، فهو يفلح الأرض، ويرعى الغنم، ويصطاد، ويرحل تاجرًا إلى بلاد بعيدة، ويدافع عن داره ووطنه بالسلاح إذا احتاج الأمر. أما المرأة فهي التي تجعل داره فيها الراحة والدفء، وتربي الأطفال، وتنظفهم، وتشتري لهم ملابس العيد، فهي دائمًا تريد أن تزداد من وسائل الراحة في البيت. وفي ذلك -كما في جميع الأمور- يعلم المسلمون أن دينهم يرشدهم إلى الوسط، لا الإفراط ولا التفريط. أما إذا كان الجميع -رجالاً ونساءً- لا هَمَّ لهم إلا أثاث البيت، والغسالة الحديثة، والفيديو آخر طراز، والملابس الفاخرة، والهواتف المحمولة ذات الوظائف الغريبة التي لا أحد يحتاج إليها، وصار فكرهم محصورًا في مثل هذه الأشياء، فمثل هذا المجتمع لا يأتي منه خير ولا يصلح أصلاً لتربية أجيال صالحة.

يقول ﷺ: «**إِنَّ لِهَذَا الدِّينِ إِقْبَالاً وإِدْبَارًا، وَإِنَّ مِنْ إِقْبَالِ هَـذَا الـدِّينِ أَنْ تَفْقِـهَ الْقَبِيلَـةُ بِأَسْرِهَا حَتَّى لاَ يَبْقَى إلا الْفَاسِقُ، وَالْفَاسِقَانِ ذَلِيلانِ فِيهَا، إن تَكَلَّمَا قهرا وَاضْطُهِدَا، وَإِنَّ مِن إِدْبَارِ هَذَا الدِينِ، أَنْ تَجْفُوَ الْقَبِيلَةَ بِأَسْرِهَا، فَلاَ يَبْقَى إِلاَّ الْفَقِيهُ وَالْفَقِيهَانِ، فَهُمَا ذَلِيلاَنِ إِن تَكَلَّمَا قهرا واضْطُهِدَا، وَيَلْعَنُ آَخِرُ الأُمَّةِ أَوَّلَهَا، أَلاَ وَعَلَيْهِمْ حَلَّتِ اللَّعْنَةُ حَتَّى يَشْرَبُوا الخَمْرَ عَلاَنِيَةً، حَتَّى تَمُرَّ المَرْأَةُ بِالْقَوْمِ فَيَقُومُ إِلَيْهَا بَعْضُهُمْ، فَيَرْفَعُ بِذَيْلِهَا كَمَا يُرْفَعُ بِذَنَبِ النَّعْجَةِ، فَقَائِلٌ يَقُولُ يَوْمَئِذٍ: أَلاَ وَارَيْتها وَرَاءَ الحَائِطِ؟ فَهُوَ يَوْمَئِذٍ فِيهِمْ مِثْلُ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ فِيكُمْ، فَمَنْ أَمَرَ يَوْمَئِذٍ بِالمَعْرُوفِ، وَنَهَى عَنِ الْمُنْكَرِ فَلَهُ أَجْرُ خَمْسِينَ مِمَّنْ رَآني، وَآمَنَ بِي وَأَطَاعَنِي وَبَايَعَنِي**»[1]، ويقول ﷺ: «**إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ**»[2]، وقد أورد أبوداود حديثًا آخر يُبَيِّن المقصود من هذا

(١) الطبراني في الكبير: (٧٨٠٧)؛ مسند الحارث (زوائد الهيثمي): (٧٧١)؛ كشف الخفاء: (٢٠٧٠)، قال: رواه ابن السني وأبونعيم.

(٢) سنن الترمذي: (٢١٦٨)؛ سنن أبي داود: (٤٣٣٨).

الحديث، فقال: قال رسول الله ﷺ: «**مَا مِنْ قَوْمٍ يُعْمَلُ فِيهِمْ بِالْمَعَاصِي ثُمَّ يَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ يُغَيِّرُوا ثُمَّ لاَ يُغَيِّرُوا إِلاَّ يُوشِكُ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ مِنْهُ بِعِقَابٍ**»[1].

حتى إذا شاعت الفوضى، وصار الناس جميعهم من حكام وفقهاء ومحكومين يتصرفون تصرف من لا عقل له، يعتدون على بعضهم البعض ويدعون أعداءهم الكفار، كل منهم معجب برأيه وأفكاره ويتهم سائر الناس بأنهم لا يفقهون شيئاً، صاروا كما قال ﷺ: «**إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ لَهَرْجًا**». قَالَ أبوموسى الأشعري ؓ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الْهَرْجُ؟ قَالَ: «**الْقَتْلُ**». فَقَالَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا نَقْتُلُ الآنَ فِي الْعَامِ الْوَاحِدِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ كَذَا وَكَذَا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَيْسَ بِقَتْلِ الْمُشْرِكِينَ وَلَكِنْ يَقْتُلُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا، حَتَّى يَقْتُلَ الرَّجُلُ جَارَهُ وَابْنَ عَمِّهِ وَذَا قَرَابَتِهِ**». فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَعَنَا عُقُولُنَا ذلِكَ الْيَوْمَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لاَ، تُنْزَعُ عُقُولُ أَكْثَرِ ذَلِكَ الزَّمَانِ وَيَخْلُفُ لَهُ هَبَاءٌ مِنَ النَّاسِ لاَ عُقُولَ لَهُمْ**»[2]، وفي رواية: «**يَحْسِبُ أَكْثَرُهُمْ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ وَلَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ**»[3]، قرن رسول الله ﷺ غياب العقل بالقتل، قتل الرجل لأناس من أهله وعشيرته، وهذا عين ما يسمى اليوم بالإرهاب.

ثم إن في هذا الحديث خبرًا مهمًا جدًا، ألا وهو أنه ليس فقط القتلة غابت عقولهم، بل إن أكثر الناس في آخر الزمان يعيشون بلا عقل مفكر، أي بلا حكمة، أي لا يستعملون عقولهم التي وهبهم الله إلا في أضيق الحدود، فيسهل استخفافهم، فبعضهم تحجب عقله عواطفه من غيظ سياسي، أو عصبية، وبعضهم تحجب عقولهم شهواتهم، من حب المال والسلطة، وسائر الشهوات البهيمية. ومع ذلك يحسب أكثرهم أنهم على شيء. وفي هذا الحديث أشد التحذير للمسلمين أن يحكموا في أي قضية بدون دراسة وافية متأنية، وبدون مدارسة أهل العلم والخبرة في هذا المجال بالذات، ومع مراقبة النفس حتى لا يصدر الحكم عن عاطفة، أو شهوة، أو هوى.

---

(١) سنن أبي داود: (٤٣٣٨).

(٢) سنن ابن ماجه: (٣٩٥٩). (**هَبَاءٌ مِنَ النَّاس**): أراذل الناس.

(٣) مسند الإمام أحمد: (٤/ ٢٩٢، ٤٠٦، ٤١٤).

ويتأكد هذا المعنى، معنى غياب العقل، في حديث آخر، يقـول فيـه ﷺ: «**إِنَّ مِـنْ عَلاَمَاتِ الْبَلاَءِ وَأَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ تَعْزِبَ الْعُقُـولُ، وَتُـنْقَصُ الأَحْـلاَمُ**[١]**، وَيَكْثُـرُ الْقَتْـلُ، وَتُرْفَعُ عَلاَمَاتُ الخَيْرِ، وَتَظْهَرُ الْفِتَنُ**»[٢].

إن هذه الأخبار من النبي ﷺ لتثير الرعـب في الـنفس.. مـاذا؟ أيسير أصـحاب الدكتوراهات، والثقافات، والفلسفات، والمقابلات في الفضائيات، بـلا عقـول؟ ومـع ذلك يتجرأون على الفتوى في كل صغيرة وكبيرة؟ نعم! هذا كلام مـن لا ينطـق عـن الهوى، فانتبهوا يا أهل الإيمـان والإخـلاص، انتبهـوا ألا تكونـوا كليًـا أو جزئيًـا مـن هؤلاء! انتبهوا أن تفعلوا فعل الرويبضة وأنتم لا تشعرون!

يقول ﷺ: «**سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ سَنَوَاتٌ خَدَّاعَاتٌ، يُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ وَيُكَذَّبُ فِيهَـا الصَّادِقُ، وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الخَائِنُ وَيُخَوَّنُ فِيهَـا الأَمِـينُ، وَيَنْطِـقُ فِيهَـا الرُّوَيْبِـضَةُ**». قِيـلَ: وَمَـا الرُّوَيْبِضَةُ؟ قَالَ: «**الرَّجُلُ التَّافِهُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ**». والرُّوَيْبِـض مصغر رابض، وهو اللاصق بالأرض، أي السافل أو الوضيع، الذي ربض عن معالي الأمور فلم يطلبهـا، إلا أنـه سافل تافه، أي سويفل، ولذلك جاء في رواية: «**الْفُوَيْسِقُ يَـتَكَلَّمُ فِي أَمْـرِ الْعَامَّـةِ**»، وفي أخرى: «**السَّفِيهُ يَتَكَلَّمُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ**»[٣].

قال رسول الله ﷺ: «**سَيَكُونُ فِي آخِرِ أُمَّتِي أُنَـاسٌ يُحَـدِّثُونَكُمْ، مَـا لَمْ تَـسْمَعُوا أَنْـتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ، فَإِيَّـاكُمْ وَإِيَّـاهُمْ**»، وفي روايـة: «**يَكُـونُ فِي آخِـرِ الزَّمَـانِ دَجَّـالُونَ كَـذَّابُونَ، يَأْتُونَكُمْ مِنَ الأَحَادِيـثِ بِـمَا لَمْ تَـسْمَعُوا أَنْـتُمْ وَلاَ آبَـاؤُكُمْ، فَإِيَّـاكُمْ وَإِيَّـاهُمْ لاَ يُـضِلُّونَكُمْ**

(١) (**تَعْزب العقول**): أي تبعـد حتـى تغيـب، أي ينـدر استعمالها حتـى يظـن النـاظر أنهـا غائبـة بالمـرة؛ (**الأحلام**): العقول الرزينة.
(٢) مجمع الزوائد: (٧/ ٣٢٩).
(٣) سنن ابـن ماجـه: (٤٠٣٦)؛ مـسند الإمـام أحمـد: (٧٨٩٩، ٨٤٤١، ١٣٣٢٢)؛ الحـاكم في المستدرك: (٨٥٦٤)؛ الطبراني في الكبير: (١٢٣) والأوسط: (٣٢٥٨)؛ أبويعلى: (٣٧١٥)؛ البزار: (٢٧٤٠).

وَلاَ يَفْتِنُونَكُمْ»، وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ لَيَتَمَثَّلُ فِي صُورَةِ الرَّجُلِ فَيَأْتِي الْقَوْمَ فَيُحَدِّثُهُمْ بِالْحَدِيثِ مِنَ الْكَذِبِ فَيَتَفَرَّقُونَ، فَيَقُولُ الرَّجُلُ مِنْهُمْ: سَمِعْتُ رَجُلاً أَعْرِفُ وَجْهَهُ وَلاَ أَدْرِي مَا اسْمُهُ يُحَدِّثُ»(١).

***

### ٤- تقليد الأمم الكافرة تقليدًا أعمى يذهب بالبركات ويجلب اللعنات:

قال أبو سَعِيد الْخُدْرِي ﷺ: قَالَ النَّبِيّ ﷺ: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَةَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شِبْراً بِشِبْرٍ، وَذِرَاعاً بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَتَبِعْتُمُوهُمْ». قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: «فَمَنْ»؟(٢) والدخول في جحر الضب مثال ضربه النبي ﷺ لغاية الجهل والسفه وطمس البصيرة، أي أنهم سوف يقلدون اليهود والنصارى تقليدًا أعمى، بلا وعي ولا رَوِيَّة، إلى هذه الدرجة التي تفوق الخيال؛ وقد فعلوا!.

وفي الإسهاب الذي يتحدث به القرآن عن بني إسرائيل تحذير لهذه الأمة أن لا تقع في مثل ما وقعوا فيه من الأمور المهلكة. ولكنا نرى المسلمين في هذا الزمان لم يتركوا خطأ وقعت فيه بني إسرائيل إلا قلَّدوهم فيه بإصرار وإمعان، ومنها عبادة العجل، وقد أخبر النبي ﷺ أن عجل هذه الأمة الدينار والدرهم، ومنها الانقسام إلى فرق شتى، تناوئ كل منها الأخرى، وهلم جرا.

قَالَ أَبو هُرَيْرَة ﷺ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَأْخُذَ أُمَّتِي بِأَخْذِ الْقُرُونِ قَبْلَهَا، شِبْراً بِشِبْرٍ، وَذِرَاعاً بِذِرَاعٍ». فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَفَارِسَ وَالرُّومِ؟ فَقَالَ: «وَمَنِ النَّاسُ إِلاَّ أُولَئِكَ»؟(٣).

---

(١) صحيح مسلم: (٦، ٧).
(٢) صحيح البخاري: (٧٣٢٠).
(٣) صحيح البخاري: (٧٣١٩).

سوف نقلد الأمم العظمى الذين هم في زماننا يمثلون التقدم الحضاري كما مثلته فارس والروم في ذاك الزمان، وسوف نقلدهم بغباء وطيش، فنأخذ أسوأ ما عندهم، على حساب أحسن ما عندنا. وقد بيّن رسول الله ﷺ أن المبادرين إلى اتباع هذا المنهج هم شِرار الأمة، أي أسوأ العناصر، وهم الذين يبدأون بهذه التيارات الغربية التي لا يلبث الباقون أن ينجرفوا فيها، فقال ﷺ: «**لَيَحْذُونَّ شِرَارُ هَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى سَنَنِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلِ الْكِتَابِ حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ**»[1]، وقد حدث هذا بالرغم من التحذيرات النبوية المشددة: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَشَبَّهَ بِغَيْرِنَا، لاَ تَشَبَّهُوا بِالْيَهُودِ وَلاَ النَّصَارَى...**»[2]، «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ عَمِلَ سُنَّةَ غَيْرِنَا**»[3].

إن تقليد الأمم الأخرى يكون في أمور كثيرة، بعضها أخطر من الآخر. ومن الواضح أنا لا نقلدهم إلا في أسوأ ما عندهم، فلا نقلدهم مثلاً في الانضباط في العمل وفي الشارع، ولا في العدل في المعاملة لبعضنا البعض، ولا في الإتقان فيما نقوم به، ولا في الاجتهاد في عدم إضاعة الوقت، ولا في إرجاع كل شيء إلى القانون الوضعي، ولكن يختار شرارنا من عندهم ما لا يكون تقليده إلا وباء علينا. فمن أخطر الأمور تقليدهم في أيديولوجياتهم، وترتيب أولوياتهم، فعندهم كل شيء للدنيا ولا شيء للآخرة، وكل شيء للذة العاجلة ولا شيء للمصائب القادمة، وعندهم الغاية تبرر الوسيلة بغض النظر عن الحلال والحرام والمروءة والأخلاق، وليس عندهم ثوابت ولا مرجعية إلا أهوائهم المتغيرة من لحظة لأخرى. أقل من ذلك خطرًا تقليدهم في عاداتهم وتقاليدهم وسلوكياتهم، وفيما يأكلون ويشربون، وفي أثاث البيوت وما يلبسون، وفي أوقات الفراغ عندهم وكيف يلهون ويلعبون. وهذه وإن كانت أقل خطرًا مما قبلها، إلا أنها مع تغلغلها في جميع نواحي الحياة تؤدي إلى فقدان التمييز بين

(١) مسند الإمام أحمد: (٤/ ١٢٥)؛ الطبراني في الكبير: (٧١٤٠). و(**الْقُذَّة**): ريشة السهم، وريش السهم يكون متوازيًا متساويًا.

(٢) سنن الترمذي: (٢٦٩٥)؛ الطبراني في الأوسط: (٧٣٨٠).

(٣) الطبراني في الأوسط: (٩٤٢٦).

المقبول وغير المقبول، ما يتفق مع قيمنا وأخلاقنا وما لا يتفق، ويصبح الخطأ مع التعود شيئًا مألوفًا لا يثير الاشمئزاز ولا النفور.

إن هجر السُّنّة المحمدية المطهرة لابد وأن يؤدي إلى كوارث لا نهاية لها. وسوف نسوق الأحاديث الدالة على ذلك فيما بعد، ويكفينا هنا أن نشير إلى سُنَّة واحدة من السُّنَن التي تعتبر من العادات، وليست من أساسيات الدين، ولكن مع ذلك أخبرنا المصطفى ﷺ أن تركها سوف يكون مؤشرًا واضحًا، ليس سببًا، ولكن علامة ظاهرة على وصولنا إلى مرحلة من التدهور تذل فيها أعناقنا للكفار والجبابرة.

كانت العمامة سنة النبي ﷺ وقد ألبسها أصحابه بيده الشريفة، وأمر بها الأمة، فقال: «**عَلَيْكُمْ بِالْعَمَائِمِ، فَإِنَّهَا سِيَمَاءُ الْمَلائِكَةِ، وَأَرْخُوا لَهَا خَلْفَ ظُهُورِكُمْ**»[(١)]، وقال ﷺ: «**اعْتَمُّوا تَزْدَادُوا حِلْمًا، وَالْعَمَائِمُ تِيجَانُ الْعَرَبِ**»[(٢)]، ثم أخبر أن المسلمين سوف يتركون العمائم يومًا من الأيام وأن ذلك سوف يكون عند ذهاب عزهم، فقال ﷺ: «**الْعَمَائِمُ تِيجَانُ الْعَرَبِ، فَإِذَا وَضَعُوهَا وَضَعُوا عِزّهم**»، وفي رواية: «**الْعَمَائِمُ تِيجَانُ الْعَرَبِ، فَإِذَا وَضَعُوا الْعَمَائِم وَضَعَ اللهُ عِزّهم**»، وفي رواية أخرى: «**الْعَمَائِمُ وَقَارٌ لِلْمُؤْمِنِ وَعِزٌّ لِلْعَرَبِ، فَإِذَا وَضَعَتِ الْعَرَبُ عَمائمها وضعت عزها**»[(٣)]، وقال أبوأمامة ﷺ: «من أشراط الساعة أن توضع العمائم وتلبس القلانس»[(٤)].

ولقد حدث ما أنذر به، فإنه لم تترك العمائم فحسب ولكن ترك اللباس الإسلامي رأسًا، وكذلك الآداب النبوية في كل كبيرة وصغيرة من أمور الدنيا، حتى صار الناس أعاجم، أي «غربيين» في كل شيء ما عدا اللغة العربية التي لا زالوا ينطقون بها.

---

(١) الطبراني في الكبير: (١٣٤١٨)؛ والبيهقي في شعب الإيمان: (٦٢٦٢).
(٢) البيهقي في شعب الإيمان: (٦٢٦٠)؛ والنصف الأول من الحديث أخرجه الحاكم في المستدرك: (٧٤١١)؛ وأبويعلى: (١٦٥)؛ والطبراني في الكبير: (٥١٧، ١٢٩٤٦).
(٣) الروايات الثلاث للديلمي، وكلها ضعيفة، إلا أن وقوع الحدث كما أخبر به ﷺ يشير إلى صحة معناها.
(٤) الفردوس بمأثور الخطاب: (٦٠٠٢).

يقـول ﷺ: «اللَّهُـمَّ لاَ يُـدْرِكُنِي زَمَـانٌ أَوْ لاَ تُـدْرِكُوا زَمَاناً لاَ يُتْبَـعُ فِيـهِ الْعَلِـيمُ، وَلاَ يُسْتَحَى فِيهِ مِنَ الحَلِيمِ، قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الأَعَاجِمِ، وَأَلْسِنَتُهُمْ أَلْسِنَةُ الْعَرَبِ»[1].

إن قلوب الناس اليوم ليس فيها إلا الإعجاب بالغرب في شتي مجالات الحياة، خصوصا المنحطة منها، ويرى ذلك في شهرة ممثليهم ومشاهيرهم ولاعبي كرة القدم، والاهتمام بأغانيهم، وأفلامهم ومجلاتهم، وأزيائهم. وعند القلة المثقفة يظهر ذلك في تبني آراءهم وفلسفاتهم، حتى وإن كانت ظاهرة البطلان. وهذا يجعل الناس بحق قلوبهم قلوب الأعاجم مع إنهم لا يزالون ينطقون بالعربية.

القانون أو السُّنّة الكونية التي يمكن استنتاجها هنا أن مسار هذه الأمة نحو الغثائية نتيجة لفساد الحكام، وذهاب تأثير العلماء، وظهور الدَّجَّالين، وأن نتيجة ذلك أنه سوف تقلد العامة الأمم التي لها القوة والسطوة في آخر الزمان، أي أمريكا التي هي أمة اليهود والنصارى. وهذا التقليد يكون في كل كبيرة وصغيرة، إلا فيما فيه فائدة.

* * *

## ٥- اندراس مفهوم الإحسان:

نصل أخيرًا إلى غياب الإحسان واندراس مفهومه عند كل فئات وطبقات الشعوب المسلمة، إلا بعض الاستثناءات القليلة، وإن ذلك لمن الكوارث الحالقة التي نتجت عن كل ما سبق من سلبيات، وتغذي تلك السلبيات وتزيدها قوة وانتشارًا. إن المسلم اليوم إذا سافر إلى الغرب، فطولب بمستوى معين من الكفاءة في الأداء، برز ولمع وتفوق، فإذا عاد إلى بلاده فكأن شيئًا لم يكن. وإن أراد إن يطبق شيئًا مما اكتسبه من المهارات حورب حربًا لا هوادة فيها حتى يعود إلى رشده وإلى المستوى السائد من الفشل، أو يعود من حيث أتى، إلى الغرب الذي هو دائمًا مستعد لاحترام وشراء كفاءاته.

(١) مسند الإمام أحمد: (٢٢٩٣٠)؛ البيهقي في شعب الإيمان: (٧٧٤٩).

إن الله أمرنا أمرًا جازمًا بالإحسان، وجاءت السنة الشريفة لتوضح شمول هذا الأمر لجميع نواحي الحياة. يقول الله تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾(١)، وإن الله ﷻ لَمَّا تحدَّث عن الإحسان في القرآن فإنه قرن ذكره بالأنبياء والمرسلين، فإن الإحسان هو السبيل إلى النجاح، والأنبياء هم سادة المفلحين. والعبد المحسن في كل أعماله يكون من عباد الله المخلصين.

وفي سورة الصافات يبدأ المولى ﷻ بذكر المخلصين: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾(٢)، ثم يذكر نوح عليه السلام: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾(٣)، ثم يذكر طرفًا من قصة إبراهيم وإسماعيل، ثم يذكر موسى وهارون، ثم إلياس عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام قبل أن يقول:

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾(٤).

وفي سورة الأنعام يذكر إبراهيم، ثم يقول: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ

(١) سورة البقرة، آية: [١٩٥].
(٢) سورة الصافات، آية: [٧٣-٧٤].
(٣) سورة الصافات، آية: [٧٩-٨٠].
(٤) سورة الصافات، الآيات: [١١٠-١٢١].

وَهَـٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾[(١)].

فالمحسنون عند الله هم الصالحون، وكل نبي يكون أكثر النـاس إحسانًا في زمنـه، وهو لذلك مُفَضَّل مطلقًا على أهل ذلك الزمن، فالأنبياء لذلك نماذج الإحسان الذين رويت لنا قصصهم لكي نعرف معنى الإحسان ونقتدي بهؤلاء الذين أنعم الله عليهم بالكمال البشرى.

ولقد قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ..»[(٢)]، وكل شيء يشمل جميع جوانب الحياة، الدينية والدنيوية، الصغيرة والكبيرة، من أعمال القلوب وأعمال الجوارح. وقال النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ إِذَا عَمِـلَ أَحَـدُكُمْ عَمَـلاً أَنْ يُتْقِنَـهُ»[(٣)]، وفـصّل القرآن ذلك بأن ذكر الكثير من المجالات الواجب فيها الإحسان.

﴿وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[(٤)]، وهــذه مــن أجمع الآيات، فالجهاد يشمل جميع جوانب حياة المسلم، فهـو يجاهـد إن دُعِـي لـذلك قتالاً في سبيل الله، ويجاهد نفسه في رد الإساءة بالإحسان، وتحسين خلقـه مـع أهلـه ومن حوله، وصلة رحمه، ولأداء حقوق الناس وحقوق الله. ويقول المولى ﷻ في سورة آل عمران: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[(٥)]، فـذكـر المتقيـن الذيـن ينفقـون أمـوالهـم في سـبيل الله

(١) سورة الأنعام، الآيات: [٨٤-٨٦].

(٢) صحيح مسلم: كتاب الصيد، (١٩٥٥)؛ الترمذي: كتاب الديات، (١٤٠٩)، كتاب الأضاحي، (١٩٧٠)؛ أبوداود: كتاب الأضاحي، (٢٨١٥)؛ النسائي: (٤٤٠٥)؛ ابن ماجه: (٣١٧٠).

(٣) أبويعلى: (٤٣٨٦)؛ البيهقي في شعب الإيمان: (٥٣١٢)؛ الطبراني في الكبير: (٧٧٦)، والأوسط: (٨٩٧).

(٤) سورة العنكبوت، آية: [٦٩].

(٥) سورة آل عمران، آية: [١٣٣، ١٣٤].

في الرخاء، وفي الشدة، وفي الصحة، وفي المرض، ويكظمون غيظهم، ثـم بَـيَّن أن مَـن جاهد نفسه وعفا بعد أن كظم الغيظ فهو من المحسنين.

وعندما يتحدث القرآن عن مراحل من الإيمان وجهاد النفس، فإنه يجعل أعلاهـا الإحسان، فيقول:

﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾(١)، وأمـا الإحسان في العبادة، فالحديث مشهور معروف: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»(٢).

فكيف ينظر الله ﷻ إلى المحسنين، وكيف يعاملهم في الدنيا والآخرة؟

يقول الله تعـالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾(٣).

ويقابل المحسنين بالـذين خلطـوا عمـلاً صـالحًا وآخـر سـيئًا، فلـم يبلغـوا رتبـة الإحسان، فيقـول: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٤)، فالمحسنون لهم الرضا، فقد رضي الله عنهم وأرضاهم، ويا لها من مرتبة! أما الذين خلطوا عملاً صالحًا وآخر سـيئًا، فلـم يبلغـوا رتبة الإحسان، إذ أن الإحسان هو أن يكون العمل كله متقنًا، في إجماله وتفـصيله، في ما ظهر منه لأعين الناس وما خفي عنهم. إن الاجتهاد في بلـوغ الإحـسان يـستجلب

(١) سورة المائدة، آية: [٩٣].
(٢) صحيح البخاري، كتاب الإيمان: (٥٠).
(٣) سورة التوبة، آية: [١٠٠].
(٤) سورة التوبة، آية: [١٠٢].

من الله التوفيق، والتأييد، ودوام هذا الإحسان. يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾(١)، وهذه المعية هي خير جزاء للإحسان، فمن كان الله معه كانت له منه الرعاية، والعناية، والحفظ، والهداية، والتسديد، والنصر، في كل لحظة من حياته. ولذلك يقول تعالى: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾(٢)، ومن كانت رحمة الله قريبة منه أدرك الخير كله في الدنيا والآخرة.

هذا هو الإحسان الذي ينبغي أن يكون هدفًا للمسلمين في جميع أعمالهم، أفرادًا وحكومات، رجالاً ونساءً، صغارًا وكبارًا. إن إتقان العمل ضروري في أعمال رؤساء الدول والوزراء والمحافظين والسفراء، كما هو ضروري لتجهيز الجيوش وتدريبها، كما هو ضروري للأطباء بأنواعهم -بشريين كانوا أم بيطريين-، كما هو ضروري للزُّرّاع والتجار والعمال والحرفيين، وكذلك للإداريين وجميع الموظفين. فليس ثم مخرج سوى هذا يخرجنا مما نحن فيه من تخلّف، وذل، وانحلال، وفوضى.

(١) سورة النحل، آية: [١٢٨].
(٢) سورة الأعراف، آية: [٥٦].

# سادسًا: اختلال ميزان البركات واللعنات

إن نجاح أي مشروع، دنيوي كان أم أخروي، إنما هو مرهون عند المسلمين بوجود البركة. والبركة هي الزيادة والنمو، وهي ثبات الخير ودوامه بعد حدوثه. ويبارك الله في بعض الأمكنة والأزمنة، والحيوانات والنباتات والجمادات، وكذلك في بعض الناس.

**فمن أمثلة الأماكن المباركة** قوله تعالى: ﴿**وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا**﴾[1]. وقال مشيرًا إلى فلسطين: ﴿**مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا**﴾[2]، ﴿**وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ**﴾[3].

وإلى المسجد الأقصى وما حوله أي من أرض فلسطين: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ**﴾[4]، وإلى القرى التي في فلسطين: ﴿**وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً**﴾[5].

ودعى رسول الله ﷺ للشام واليمن بالبركة، فقال عليه الصلاة والسلام: «**اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي شَامِنَا وَفِي يَمَنِنَا**»[6]، ولما كان يومًا ﷺ بذِي الْحُلَيْفَةِ فِي بَطْنِ الْوَادِي (أي بوادي العقيق)، فَقِيلَ لَهُ: «**إِنَّكَ بِبَطْحَاءَ مُبَارَكَةٍ**»[7].

---

(١) سورة فصلت، آية: [١٠].
(٢) سورة الأعراف، آية: [١٣٧].
(٣) سورة الأنبياء، آية: [٧١].
(٤) سورة الإسراء، آية: [١].
(٥) سورة سبأ، آية: [١٨].
(٦) صحيح البخاري: (١٠٣٧).
(٧) صحيح البخاري: (١٠٣٥).

**وأما عن الأوقات:** فقد قال ﷺ: «**أَتَاكُمْ رَمَضَانُ شَهْرٌ مُبَارَكٌ**»(١)، وقال: «**اللَّهُمَّ بَارِكْ لأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا**»(٢).

وقالت الصحابية أُمّ عَطِيَّة ﵂: «كُنَّا نُؤْمَرُ أَنْ نَخْرُجَ يَوْمَ الْعِيدِ...» إلى أن قالت: «يَرْجُونَ بَرَكَةَ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَطُهْرَتَهُ»(٣).

**ومن الحيوانات المباركة الغنم:** قال ﷺ: «**اتَّخِذُوا الْغَنَمَ فَإِنَّ فِيهَا بَرَكَةً**»(٤).

**ومن النباتات المباركة شجرة الزيتون:** قال الله تعالى: ﴿**شَجَرَةٍ مُّبَرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ**﴾(٥).

**ومن الجمادات المباركة:** الملابس التي لامست جسد المصطفى ﷺ.

وكان الصحابة يعرفون ذلك حق المعرفة، ومنهم الذي طلب من النبي ﷺ البردة التي أهديت له وكان يعلم أنه يحتاجها، فلاَمَهُ أَصْحَابُهُ قَالُوا: مَا أَحْسَنْتَ حِينَ رَأَيْتَ النَّبِيَّ ﷺ أَخَذَهَا مُحْتَاجًا إِلَيْهَا، ثُمَّ سَأَلْتَهُ إِيَّاهَا، وَقَدْ عَرَفْتَ أَنَّهُ لاَ يُسْأَلُ شَيْئًا فَيَمْنَعَهُ. فَقَالَ: رَجَوْتُ بَرَكَتَهَا حِينَ لَبِسَهَا النَّبِيُّ ﷺ لَعَلِّي أُكَفَّنُ فِيهَا(٦).

**وكذلك بعض الطعام:** قال ﷺ: «**تَسَحَّرُوا فَإِنَّ فِي السَّحُورِ بَرَكَةً**»(٧)، ولما أتي بطعام قليل، قَالَ: «**هَلُمَّهُ فَإِنَّ اللهَ سَيَجْعَلُ فِيهِ الْبَرَكَةَ**»(٨).

وقال ﷺ: «**إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ طَعَامًا فَلاَ يَأْكُلْ مِنْ أَعْلَى الصَّحْفَةِ وَلَكِنْ لِيَأْكُلْ مِنْ**

---

(١) سنن النسائي: (٢١٠٦).
(٢) سنن أبي داود: (٢٦٠٦).
(٣) صحيح البخاري: (٩٧١).
(٤) مسند الإمام أحمد: ٢٧٤٢١).
(٥) سورة النور، آية: [٣٥].
(٦) صحيح البخاري: (٦٠٣٦).
(٧) صحيح البخاري: (١٩٢٣).
(٨) صحيح مسلم: (٢٠٤٠).

أَسْفَلِهَا، فَإِنَّ الْبَرَكَةَ تَنْزِلُ مِنْ أَعْلاَهَا»(١)، وفي رواية: «كُلُوا مِنْ حَوَالَيْهَا وَدَعُوا ذِرْوَتَهَا يُبَارَكْ فِيهَا»(٢).

**وكذلك بعض المال:** قَال حَكِيم بْن حِزَام رضي الله عنه: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ قَالَ: «يَا حَكِيمُ، إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرٌ حُلْوٌ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ، وَكَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلاَ يَشْبَعُ، وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى»(٣).

**وكذلك بعض المعاملات:** قال ﷺ: «الْبَيِّعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا، فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا، وَإِنْ كَتَمَا وَكَذَبَا مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا»(٤).

**وبعض الزيجات:** قَالَ ﷺ: «إِنَّ أَعْظَمَ النِّكَاحِ بَرَكَةً أَيْسَرُهُ مُؤُونَةً»(٥).

**وفي بعض البشر:** قال تعالى: ﴿وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ﴾(٦)، وقال: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ﴾(٧)، وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللهَ لَيَدْفَعُ بِالْمُسْلِمِ الصَّالِحِ عَنْ مِائَةِ أَهْلِ بَيْتٍ مِنْ جِيرَانِهِ الْبَلاَءَ»(٨)، ثم تلا ابن عمر: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ﴾(٩).. الآية.

وقالت السيدة عَائِشَة رضي الله عنها عن أم المؤمنين جُوَيْرِيَة بِنْت الْحَارِث رضي الله عنها: «فَمَا رَأَيْنَا امْرَأَةً كَانَتْ أَعْظَمَ بَرَكَةً عَلَى قَوْمِهَا مِنْهَا»(١٠).

(١) سنن أبي داود: (٣٧٧٢).
(٢) سنن أبي داود: (٣٧٧٣).
(٣) صحيح البخاري: (٦٤٤١).
(٤) صحيح البخاري: (١٩٧٦-٢٠٠٤)؛ صحيح مسلم: (١٥٣٢).
(٥) البيهقي في شعب الإيمان: (٦٥٦٧).
(٦) سورة الصافات، آية: [١١٣].
(٧) سورة مريم، آية: [٣١].
(٨) تفسير الطبري: (٢/ ٦٣٣).
(٩) سورة البقرة، آية: [٢٥١].
(١٠) سنن أبي داود: (٣٩٣١).

وقال ﷺ: «إِنَّ اللهَ لَيُصْلِحُ بِصَلاَحِ الرَّجُلِ الْمُسْلِمِ وَلَدِهِ وَوَلَدِ وَلَدِهِ وَأَهْلِ دُوَيْرَتِهِ، وَدُوَيْرَاتٍ حَوْلَهُ، وَلاَ يَزَالُونَ فِي حِفْظِ اللهِ مَا دَامَ فِيهِمْ»(١).

وقال الله تعالى في بركة الاستغفار: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ فكانت نتيجة الاستغفار بركات من السماء على هيئة الغيث الهطال ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾، وبركات من الأرض على هيئة ثراء وأولاد، ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾، وتؤمر الأرض فتخرج خيراتها، ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾(٢).

فعلى ضوء ما مَرَّ يمكن أن نفهم معنى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾(٣)، إن الحياة الرغدة الآمنة إنما يُنْعِمُ بها المولى ﷻ على من آمن واتقى، فاجتنب المحرمات، ولم يقصّر في الطاعات، فيجعل الله له البركة في كل أموره (الدينية والدنيوية).

والعكس بالعكس، فإن طلب الدنيا والحرص الزائد عليها مما يجر إلى المحرمات، والمحرمات تجلب اللعنات. ولقد لعن الله الأمم السابقة حين نقضوا العهد وأفسدوا في الأرض. يقول المولى ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾(٤).

وعهد الله هو ما عاهد المؤمن عليه ربه حين رَضِيَ بالله ربًا، وبشرعه دينًا من القيام بالواجبات والانتهاء عن الْمُحرَّمات، فلما لم يلتزموا بذلك، وقطعوا ما كان يجب أن يوصل، وأفسدوا في الأرض، جعلهم الله ملعونين في الدنيا، ولهم سوء الدار أي جنهم في الآخرة.

---

(١) تفسير الطبري: (٢/ ٦٣٤).
(٢) سورة نوح، الآيات: [١٠-١٢].
(٣) سورة الأعراف، آية: [٩٦].
(٤) سورة الرعد، آية: [٢٥].

إن اللعنة هي الطرد من الرحمة، والإبعاد عن عناية الله ورعايته، والوقوع تحت غضب الله وعذابه، فإذا لَعَنَ قومًا وبقي فيهم من الصالحين من يدعو لهم لم تكن من الله الإجابة، فإن الرحمات والبركات التي بها تمطر السماء من خيرها وتخرج الأرض من أقواتها إنما هي مشروطة بالتقوى بعد الإيمان، فإذا ذهبت التقوى ذهبت معها البركات وبقيت اللعنات.

ومن الفساد في الأرض الذي يؤدي إلى صب اللعنات على هذه الأمة -كما صُبَّت على من قبلها- الموبقات المذكورة في الأحاديث التالية:

قال رسول الله ﷺ: «**لَعَنَ اللهُ آكِلَ الرِّبَا، وَمُوكِلَهُ، وَكَاتِبَهُ، وَمَانِعَ الصَّدَقَةِ**»[(1)].

وقال جَابر بن عبدالله رضي الله عنه: «**لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ آكِلَ الرِّبَا، وَمُوكِلَهُ، وَكَاتِبَهُ، وَشَاهِدَيْهِ، وَقَالَ: هُمْ سَوَاءٌ**»[(2)].

وقال عَلِيٌّ رضي الله عنه: «**لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ آكِلَ الرِّبَا، وَمُوكِلَهُ، وَشَاهِدَيْهِ، وَكَاتِبَهُ، وَالْوَاشِمَةَ، وَالْمُسْتَوْشِمَةَ، وَالْمُحِلَّ وَالْمُحَلَّلَ لَهُ، وَمَانِعَ الصَّدَقَةِ، وَنَهَى عَنِ النَّوْحِ**»[(3)]، «**لَعَنَ رَسُول اللهِ ﷺ الخَمْرَ، وَعَاصِرَهَا، وَشَارِبَهَا، وَسَاقِيَهَا، وَبَائِعَهَا، وَمُبْتَاعَهَا، وَحَامِلَهَا، وَالمَحْمُولَةَ إِلَيْهِ، وَآكِلَ ثَمَنِهَا**»[(4)].

وقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لُعِنَتِ الخَمْرُ عَلَى عَشَرَةِ وُجُوهٍ: بِعَيْنِهَا، وَعَاصِرُهَا، وَمُعْتَصِرُهَا، وَبَائِعُهَا، وَمُبْتَاعُهَا، وَحَامِلُهَا، وَالمَحْمُولَةُ إِلَيْهِ، وَآكِلُ ثَمَنِهَا، وَشَارِبُهَا وَسَاقِيهَا**»[(5)].

وقال عليه الصلاة والسلام: «**لَعَنَ اللهُ الرَّاشِيَ وَالْمُرْتَشِيَ**»[(6)]، وفي رواية حدد اللعنة

---

(١) سنن النسائي: (٥١٠٣).
(٢) صحيح مسلم: (١٥٩٨)؛ صحيح ابن حبان: (٥٠٢٥).
(٣) مسند الإمام أحمد: (١٢٨٨-١٣٦٤)؛ أبويعلى: (٤٠٢).
(٤) سنن أبي داود: (٣٦٧٤).
(٥) سنن ابن ماجه: (٣٣٨٠)؛ مسند الإمام أحمد: (٤٧٨٧).
(٦) صحيح ابن حبان: (٥٠٧٧)؛ مسند الطيالسي: (٢٢٧٦).



بالرشوة في الأحكام القضائية: «لَعَنَ اللهُ الرَّاشِيَ وَالْمُرْتَشِيَ فِي الْحُكْمِ»[1].

قال أبو هُرَيْرَة رضي الله عنه: «لَعَنَ رَسُولُ الله ﷺ الرَّجُلَ يَلْبَسُ لِبْسَةَ الْمَرْأَةِ، وَالْمَرْأَةَ تَلْبَسُ لِبْسَةَ الرَّجُلِ»[2]. وقال عبد الله بن عَبَّاس رضي الله عنهما: «لَعَنَ رَسُولُ الله ﷺ الْمُتَشَبِّهَاتِ مِنَ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ، وَالْمُتَشَبِّهِينَ مِنَ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ»[3].

وقَالَ رضي الله عنه: «لَعَنَ رَسُولُ الله ﷺ الْمُخَنَّثِينَ مِنَ الرِّجَالِ، وَالْمُتَرَجِّلاَتِ مِنَ النِّسَاءِ». قَالَ -أي ابن عباس- فَقُلْتُ: مَا الْمُتَرَجِّلاَتُ مِنَ النِّسَاءِ؟ قَالَ ﷺ: «الْمُتَشَبِّهَاتُ مِنَ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ»[4].

وقالت عائشة رضي الله عنها: «لَعَنَ رَسُولُ الله ﷺ الرَّجُلَةَ مِنَ النِّسَاءِ»[5].

وقال ﷺ: «مَلْعُونٌ مَنْ أَتَى امْرَأَتَهُ فِي دُبُرِهَا»[6]، وقال ﷺ: «لَعَنَ اللهُ مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ»[7]، وقال ﷺ: «لَعَنَ اللهُ الْمُحِلَّ وَالْمُحَلَّلَ لَهُ»[8].

وقال عليه الصلاة والسلام: «مَلْعُونٌ مَنْ سَبَّ أَبَاهُ، مَلْعُونٌ مَنْ سَبَّ أُمَّهُ، مَلْعُونٌ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ الله، مَلْعُونٌ مَنْ غَيَّرَ تُخُومَ الأَرْضِ، مَلْعُونٌ مَنْ كَمَهَ أَعْمَى عَنْ الطَّرِيق، مَلْعُونٌ مَنْ وَقَعَ عَلَى بَهِيمَةٍ، مَلْعُونٌ مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ»[9].

---

(١) صحيح ابن حبان: (٥٠٧٦).
(٢) سنن أبي داود: (٤٠٩٨).
(٣) سنن أبي داود: (٤٠٩٧).
(٤) مسند الإمام أحمد: (٢٢٩١).
(٥) سنن أبي داود: (٤٠٩٩).
(٦) سنن أبي داود: (٢١٦٢)؛ مسند الإمام أحمد: (٩٧٣١).
(٧) مسند الإمام أحمد: (١/ ٣٠٩، ٣١٧).
(٨) البيهقي في السنن الكبرى: (١٣٩٦٢)؛ سنن الدار قطني: (٢٨).
(٩) مسند الإمام أحمد: (١٨٧٥-٢٩١٦)؛ الحاكم في المستدرك: (٨٠٥)، وفي هذه الرواية يتكرر لفظ «ملعون» ثلاث مرات مع كل من الأصناف.
(كَمَهَ أعمى): أضل أعمى. (تُخُوم): جمع «تخم»، وهو معالم الأرض وحدودها.



وقال ﷺ: «لُعِنَ عَبْدُ الدِّينَارِ، لُعِنَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ»[1]. وقال ﷺ: «الجَالِبُ مَرْزُوقٌ، وَالْمُحْتَكِرُ مَلْعُونٌ»[2]، أي الجالب البضاعة للسوق مرزوق، أمّا الذي يشتريها كلها، ثم يخفيها ليرفع ثمنها ويضيّق على المسلمين فهو ملعون.

وكذلك لعنت الكاسيات العاريات صاحبات القبعات والتسريحات الحديثة.

وأخيرًا هذه اللعنة الشاملة لكل من يضر المسلمين بأي شكل من الأشكال، أو يمكر بهم: يقول ﷺ: «مَلْعُونٌ مَنْ ضَارَّ مُؤْمِنًا أَوْ مَكَرَ بِهِ»[3].

فإذا صبت اللعنات على الأمة التي كثرت فيها هذه المهلكات فمن أين تأتيها الرحمة؟ ومن أين يأتيها النصر؟ ومن أين لها البركة في الأرزاق، وفي الأولاد، وفي الصحة، وفي الحكام، وفي النصر على الأعداء، وفي كل شيء؟

القانون هنا إذاً، أو السنة الكونية أن كل ما يرضي الله من الأعمال يستنزل البركات ويدفع البلاء، وأن كل ما يجلب اللعنات من المعاصي يفسد ما حوله ويعرقل كل سعي، ولابد أن يدخل ذلك في أي تخطيط مستقبلي للمسلمين، فردي كان أم جماعي، أم قومي، وإلا لن تنجح أعمالهم ومشاريعهم.

(١) سنن الترمذي، (٢٣٧٥).
(٢) سنن ابن ماجه: (٢١٥٣)؛ سنن الدارمي: (٢٥٤٤).
(٣) سنن الترمذي، (١٩٤١).

# سابعاً: العلم الفرقاني أو ترتيب الأولويات

**تعريف الصلاح والفساد:**

بعد أن تحدَّثنا عن أسباب الفساد، وقبل أن نتحدث عن مظاهره ونتائجه، يجب علينا تعريف الفساد وأبعاده الفكرية.

إن الفساد ما هو إلا الفوضى، فإن إفساد الشيء هو الإخلال بنظامه حتى يصبح غير صالح لما خُلِقَ له. ولَمَّا كان الإنسان قد خُلِق لعبادة ومعرفة ربه فإن هذا يعني أن الإيمان هو الصلاح، بينما الكفر هو الفساد، وبين الإيمان الكامل، الذي هو إيمان الأنبياء، وهو الصلاح الكامل، وبين أن يكون الإنسان من الفساد بحيث يكون من أئمة الكفر، درجات لا نهاية لها.

ولما كانت الرحمة المطلقة أي الخير المطلق هو الله ﷻ فإن ظهور الخير في الخليقة هو الصلاح، بينما الشر هو الفساد. ولَمَّا كان المؤمن الأكمل، أكمل أهل الرحمة (أي الخير) هو النبي ﷺ كانت السنة المحمدية هي الصلاح، وعكسها هو الفساد. فالرحمة والرأفة والصدق والكرم والمروءة والشجاعة وسائر الصفات النبيلة من الصلاح، وكذلك الأعمال الطيبة كذكر الله، والعبادة، وبر الوالدين، وصلة الرحم، وحُسْن الجوار، والإحسان والإتقان في ذلك كله، بينما القسوة والغِلْظَة والكذب والبخل والخسة والجبن وسائر الصفات الدنيئة من الفساد، وكذلك الغفلة عن الله، والمعاصي، وعقوق الوالدين، وقطع الأرحام، وسوء الْجِوَار، والإهمال أو الغش في العمل.

**مصادر العلم:**

ولقد وضع الله تعالى ميزانًا لكل شيء في خلقه، معنويًا كان أم ماديًا، سماويًا كان أم أرضيًا. والعلم يُؤْخَذ من كتاب الله، وفيه علم الإجمال، ثم حديث رسول الله ﷺ وفيه علم التفصيل. قَال عَلِيّ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَه: أَمَا إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**أَلاَ إِنَّهَا سَتكُونُ فِتْنَةٌ**». فَقُلْتُ: مَا الْمَخْرَجُ مِنْهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «**كِتَابُ الله، فِيهِ نَبَأُ مَا كَانَ قَبْلَكُمْ، وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ، وَهُوَ الْفَصْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللهُ، وَمَنِ ابْتَغَى الْهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللهُ، وَهُوَ حَبْلُ الله المَتِينُ، وَهُوَ الذِّكْرُ الحَكِيمُ، وَهُوَ الصِّرَاطُ المُسْتَقِيمُ، هُوَ الَّذِي لاَ تَزِيغُ بِهِ الأَهْوَاءُ، وَلاَ تَلْتَبِسُ بِهِ الأَلْسِنَةُ، وَلاَ يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ، وَلاَ يَخْلَقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلاَ تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، هُوَ الَّذِي لَمْ تَنْتَهِ الجِنُّ إِذْ سَمِعَتْهُ حَتَّى قَالُوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾، مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**»[1].

وقال ﷺ: «**إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي، أَحَدُهُمَا أَعْظَمُ مِنَ الآخَرِ، كِتَابُ الله حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ، وَعِتْرَتِي أَهْلُ بَيْتِي، وَلَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الحَوْضَ، فَانْظُرُوا كَيْفَ تَخْلُفُونِي فِيهِمَا**»[2]. وقال ﷺ: «**تَرَكْتُ فِيكُمْ شَيْئَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُمَا: كِتَابَ الله وَسُنَّتِي، وَلَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الحَوْضَ**»[3].

**التحذير من ترك السنة:**

لأهمية السنة كمصدر للعلم حذّر ﷺ من أناس يأتون في آخر الزمان، مترفون، يأخذون بالقرآن ويرفضون الحديث. يقول ﷺ: «**أَلاَ هَلْ عَسَى رَجُلٌ يَبْلُغُهُ الحَدِيثُ عَنِّي**

(١) سنن الترمذي: (٢٩٠٦)؛ البيهقي في شعب الإيمان: (١٩٣٥)؛ مسند البزار: (٨٣٦)؛ الطبراني في الكبير: (١٦٠).

(٢) سنن الترمذي: (٣٧٨٨)؛ مسند الإمام أحمد: (١١٥٦٩).

(٣) الحاكم في المستدرك: (٣١٩)؛ موطأ الإمام مالك: (١٥٩٤).

وَهُوَ مُتَّكِئٌ عَلَى أَرِيكَتِهِ، فَيَقُولُ: بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابُ الله، فَمَا وَجَدْنَا فِيهِ حَلاَلاً اسْتَحْلَلْنَاهُ، وَمَا وَجَدْنَا فِيهِ حَرَامًا حَرَّمْنَاهُ، وَإِنَّ مَا حَرَّمَ رَسُولُ الله كَمَا حَرَّمَ الله»[1]، وفي رواية: «أَلاَ إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ، أَلاَ يُوشِكُ رَجُلٌ شَبْعَانُ عَلَى أَرِيكَتِهِ يَقُولُ: عَلَيْكُمْ بِهَذَا الْقُرْآنِ، فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلاَلٍ فَأَحِلُّوهُ، وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ، أَلاَ لاَ يَحِلُّ لَكُمْ لَحْمُ الحِمَارِ الأَهْلِيِّ، وَلاَ كُلُّ ذِي نَابٍ مِنَ السَّبُعِ، وَلاَ لُقَطَةُ مُعَاهِدٍ إِلاَّ أَنْ يَسْتَغْنِيَ عَنْهَا صَاحِبُهَا، وَمَنْ نَزَلَ بِقَوْمٍ فَعَلَيْهِمْ أَنْ يَقْرُوهُ فَإِنْ لَمْ يَقْرُوهُ فَلَهُ أَنْ يُعْقِبَهُمْ بِمِثْلِ قِرَاهُ»[2]، فأعطاهم في هذا الحديث أربعة أمثلة لأحكام لا توجد تفصيلاً في القرآن، ثم في الحديث التالي أمثلة ثلاثة، يقول ﷺ: «أَيَحْسَبُ أَحَدُكُمْ مُتَّكِئًا عَلَى أَرِيكَتِهِ قَدْ يَظُنُّ أَنَّ اللهَ لَمْ يُحَرِّمْ شَيْئًا إِلاَّ مَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ، أَلاَ وَإِنِّي وَالله قَدْ وَعَظْتُ، وَأَمَرْتُ، وَنَهَيْتُ عَنْ أَشْيَاءَ، إِنَّهَا لَمِثْلُ الْقُرْآنِ أَوْ أَكْثَرُ، وَأَنَّ اللهَ ﷻ لَمْ يُحِلَّ لَكُمْ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتَ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ بِإِذْنٍ، وَلاَ ضَرْبَ نِسَائِهِمْ وَلاَ أَكْلَ ثِمَارِهِمْ إِذَا أَعْطَوْكُمُ الَّذِي عَلَيْهِمْ»[3].

وفي رواية: «لاَ أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ مُتَّكِئًا عَلَى أَرِيكَتِهِ، يَأْتِيهِ أَمْرٌ مِمَّا أَمَرْتُ بِهِ أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ فَيَقُولُ: لاَ أَدْرِي مَا وَجَدْنَا فِي كِتَابِ الله اتَّبَعْنَاهُ»[4].

وفي رواية: «لاَ أَعْرِفَنَّ مَا يُحَدَّثُ أَحَدُكُمْ عَنِّي الحَدِيثَ، وَهُوَ مُتَّكِئٌ عَلَى أَرِيكَتِهِ، فَيَقُولُ: اقْرَأْ قُرْآنًا. مَا قِيلَ مِنْ قَوْلٍ حَسَنٍ فَأَنَا قُلْتُهُ»[5]، ولذلك فإن اعتمادنا في الحكم على الأمور، وتقييم -الذي أحفظه أن هذا المصدر من الأخطاء الشائعة- أي شيء، وتحديد الأولويات، يجب أن يكون مبنيًا إجمالاً وتفصيلاً على ما جاء في الكتاب والسنة.

---

(١) سنن الترمذي: (٢٦٦٤).
(٢) سنن أبي داود: (٤٦٠٤). (يُقري): يكرم الضيف ويقوم بحق ضيافته.
(٣) سنن أبي داود: (٣٠٥٠).
(٤) سنن الترمذي: (٢٦٦٣)؛ سنن أبي داود: (٤٦٠٥).
(٥) سنن ابن ماجه: (٢١).

## قوانين الطبيعة:

إن قوانين الطبيعة هي التي تحفظ للكون هذا النظام المحكم البديع، وأداءه لوظيفته، واستمراريته، وهي الميزان الذي وضعه لها خالقها ﷻ حين خلقها، ثم قال:

﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾(1)، ولذلك فإن كل ما استحدثه الإنسان مما يوافق قوانين الطبيعة، ويؤدي إلى المحافظة عليها، أي على البيئة وما فيها من حيوان ونبات، وعدم إهدار مواردها، وحُسْن الاستخلاف فيها، فهو من الإصلاح، بينما كل ما هو مفسد لميزان الطبيعة، ملوث للبيئة، مسرف في استغلال مواردها، ممعن في إنهاكها، فهو إفساد. إن الله لما استخلف الإنسان في الأرض أباح له أن يستفيد من مواردها، ولكن بشرط أن لا يسرف فيهلكها، ولذلك أمره أن لا يفسد فيها بعد أن أصلحها له، فقال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾(2)، وأن لا يخسر الميزان الإلهي الدقيق.

## الصلاح وفقه الأولويات:

إن الصلاح هو أن تكون الأولويات كما خلقها الله عند خلق السماوات والأرض، لا كما تُملي على البشر أنفسهم الأمَّارة بالسوء ومستشاروهم من شياطين الإنس والجان ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾(3)، وإن كل مؤذن في بلاد المسلمين ليعلن ذلك خمس مرات يوميًا حين يرفع الأذان، فإنه عندما يقول: «الله أكبر، الله أكبر»، فهذا معناه أنه يجب أن يكون الله في قلب الإنسان أكبر وأهم من كل شيء، والعمل بطاعته أهم من كل عمل.

(1) سورة الرحمن، الآيات: [٥-٩].
(2) سورة الأعراف، آية: [٥٦].
(3) سورة المؤمنون، آية: [٧١].



وإذا قال: «أشهد أن لا إله إلا الله»، يعني ذلك الإقرار أن الحق هو السمع والطاعة للإله الواحد، بينما الباطل هو طاعة الهوى، أي الشهوات. ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾[1].

وإذا قال: «أشهد أن محمدًا رسول الله» كان ذلك يعني أن الدين عند الله الإسلام، وأنه ليس من شيء أولى من تلقي هذا الدين من رسول رب العالمين، واتباع الشريعة، والموافقة في السنن. ثم نرى أن الإسلام يُدَرِّب أتباعه تدريبًا مستمرًا على الالتزام بالأولويات الإلهية، فيقسم الأعمال إلى فرض، ومندوب، ونفل، ومباح، ومكروه، وحرام، فيلزم الإنسان قبل أن يعمل أي من الأعمال أن يعرف موقعه من هذا الترتيب، ثم يقدّم الفرض على المندوب، والمندوب على النفل، وهكذا. وفي القواعد الفقهية الأصولية تجد باب «ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب»، وباب «درء المفاسد مُقَدَّم على جلب المصالح»، وباب «إذا تعارضت مفسدتان تدفع أعلاهما بأدناهما»، وهذه وغيرها كلها من فقه الأولويات التي لا يتم الإصلاح والصلاح إلا به.

وإذا قال المؤذن: «حي على الصلاة» كان معنى ذلك أن الله يدعو عباده لتفضيل العبادة في وقتها على ما سواها من الأعمال، وإذا قال: «حي على الفلاح» كان معنى ذلك أن الله يدعو عباده لتفضيل الآخرة (أي الجنة التي لا يدخلها إلا المفلحون) على الدنيا التي من جعلها أهم شيء في حياته قادته إلى النار مع الخاسرين.

المصلحة المؤجلة إذاً (وهي دخول الجنة) مقدَّمَة على المصلحة المعجلة (وهي إشباع الشهوة الحرام، أو الإسراف في الحلال)، فيكون كل ما فيه مصلحة أخروية صلاح، بينما أن كل ما فيه خسارة أخروية فساد.

### تقديم الباطن على الظاهر:

حينما يقول النبي ﷺ من جوامع كَلِمِهِ: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ

(١) سورة الفرقان، آية: [٤٣].

**مَا نَوَى**»[1]، فهو يؤصِّلُ قاعدة هامة شاملة، وهي أن الباطن دائمًا أهم من الظاهر، ثم يأتي الإمام البخاري، ويُظهر فهمه العميق للمقصود من هذا الحديث، فيجعله أول حديث في صحيحه، فإن الاهتمام بما في القلب أولى من الاهتمام بما يظهر على الجوارح، فالعمل الصالح في ظاهره إن لم تصاحبه نية صالحة لا يكون صالحًا في حقيقته. أي أنه إذا صلى رجلان في المسجد، وظهر على كلٍّ منهما السكينة والخشوع، ولكن أحدهما لا يشغل قلبه إلا طاعة مولاه، بينما الآخر ليس في قلبه إلا الرغبة في أن يراه الناس فيكبرونه ويعظمونه، فصلاة الأول صلاة في الحقيقة، بينما صلاة الثاني صلاة في الظاهر، رياء في الباطن، أي إنها وإن كانت في ظاهرها عبادة إلا أنها في باطنها ذنب يعاقب فاعله. وكذلك كل عمل ظاهره الصلاح ولا يؤدي إلى تزكية القلب، فهو عمل عقيم، لم يؤدِّ إلى غايته المنشودة، ولم يثمر ثمرته. إن الصلاة التي تؤثر في القلب هي التي تنهى عن الفحشاء والمنكر.

إن قلب الإنسان لا يخلو عن أن يكون إما ذاكرًا لله، وإما غافلاً عنه. وذكر الله أن يكون منتبهًا له، قلبه معه، ينشد مرضاته في كل لحظة، في كل قول وعمل، عادة كان أم عبادة، فإن هذا هو الهدف من الطاعات كلها، يقول تعالى: ﴿**وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ**﴾[2]، ويأمر الله تعالى عباده بدوام الذكر: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا**﴾[3]، ويمدح الذين لا ينشغلون عنه بأي من أمور الدنيا: ﴿**رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ**﴾[4]، فإن كان المسلم ذاكرًا لله دومًا، فإنه يكون مؤيدًا في كل أحواله، ناجحًا في مساعيه، فإن الله مع الذاكرين.

وأما الغفلة فهي أن يكون ناسيًا لله، لا يبحث عن رضاه، ليس له همّ إلا إشباع شهواته الشخصية ورغباته الخاصة، فهو منسي عند الله، غير مؤيد ولا مسدد،

---
(١) صحيح البخاري: (١).
(٢) سورة طه، آية: [١٤].
(٣) سورة الأحزاب، آية: [٤١].
(٤) سورة النور، آية: [٣٧].

وأموره أقرب إلى أن تنفرط منه، فلا يتمكن من جمع شملها أبدًا. ﴿**وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا**﴾(١)، وبدون ذكر الله تقسو القلوب: ﴿**فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ**﴾(٢)، وتتسلط عليها الشياطين: ﴿**وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَـٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ**﴾(٣)، ولذلك فإنه كلما كانت النية أو العمل مما يزكي القلب ويقوي الإيمان فيه، كانت أفضل وأصلح، وكلما كانت النية أو العمل مما يُلهي عن الله واليوم الآخر ويضعف الإيمان في القلب كانت أسوأ وأفسد. فالقاعدة هنا أنه لتقييم أي عمل ينظر إلى النية التي أبرزته وإلى تأثيره على الباطن أي القلب، فإن كانت النية صالحة، فهو كذلك، وإن كان يزيد القلب تقوى، فهو حسن، وإن كانت النية فاسدة، فالعمل كذلك؛ فالباطن دائمًا له التقديم على الظاهر. ولذلك كانت من علامات تدهور الأمم أنهم يزينون مساجدهم ومحاريبهم، ويعلون منابرهم، بينما قلوبهم خراب. وتقديم الباطن على الظاهر من قبيل تقديم الأعلى على الأسفل، فإذا قدّم الإنسان الروح على النفس، والنفس على الجسم، كان مسددًا، فالجسم ظاهر باطنه النفس، والنفس باطنها الروح، فمهما كان الروح مسيطرًا كان الإنسان قلبه معلق بالله والأمور العلوية.

### أولوية الروح على النفس، والنفس على الجسم:

إن الإنسان مخلوق من جسم كثيف طيني وروح لطيف نوراني، بينهما نفس هي ألطف من الجسم وأكثف من الروح. والجسم هو الذي يسمح للروح أن تمشي في الأرض، فلولاه لما استطاع الروح أن يعيش في الأرض ويؤدي ما كتب عليه من وظيفة فيها، فهو لا يدرك ما حوله إلا عن طريق حواس الجسم الخمس، والجسم هو الذي يتحرك ويسعى، وله شهوات تكفل له استمرارية حياته، وهي شهوات الأكل والشرب

(١) سورة الكهف، آية: [٢٨].
(٢) سورة الزمر، آية: [٢٢].
(٣) سورة الزخرف، آية: [٣٦].

التي تكفل له استمرار حياته الفردية، والجماع الذي يكفل له استمرار النوع الإنساني. وقد جعل الله في هذه لذة عند وجدانها، وألَم عند فقدانها حتى يطلبها ويسعى إليها، وجعل له إحساسًا بالألم إذا أصاب الجسم مكروه من جرح أو حرق أو خلافه يدفعه إلى الابتعاد عن كل ما هو مؤذي. أما النفس فبها يكون للإنسان عواطف كالحب والكره، والغضب والقلق، والرضا والسرور، كما أن بها يكون له عقل مفكر مدبر، وما يحتاجه من ذاكرة وخيال. وأما الروح فهو الذي يشتاق إلى الله والجنة.

فإذا تغلب الجسم الطيني بشهواته على الروح أصبح كالأنعام، وأصبحت النفس في خدمته، لا تفكر إلا في إشباع شهواته، وأخلد بثقله وكثافته إلى الأرض، ونسي ما في السماء، وأصبحت عواطفه وعقله في خدمة جسمه. أما إذا غلّب الإنسان الروح، وجعل الجسم مَطِيَّة له ليسلك بها طريق الجنة، فإنه يخضع شهواته للشرع، فيشبعها دون اقتحام الحرام ودون إسراف، وتكون نفسه بعواطفها وتفكيرها في خدمة الهدف الأسمى، فإذا أحب كان ذلك الحب لله ورسوله والخير وأهله، وإذا كره كان ذلك الكره للكفر والفسوق والعصيان وسائر الشر وأهله، وإذا غضب كان ذلك ليتحرك عند الخطر للدفاع عن حياته وأهله ودينه وعرضه وماله، فإن الغضب إذا وضع في موضعه كان مفيدًا، أما إذا وضع في خدمة الكِبْر والبخل والدناءة والأنانية كان وبالاً على صاحبه وعلى الناس. وللنفس عواطف سفلية كالكِبْر والأنانية والجشع، إن تغلبت على الإنسان جعلته أسوأ من البهائم، فإن البهيمية ما هي إلا أن تتغلب عليه شهواته الجسمانية، بينما أن انقياده للشهوات النفسية تجعله شيطانًا من شياطين الإنس، يؤذي الناس ويظلمهم ليشبعها.

قال الله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ**﴾[1]، فهؤلاء أقوام لهم قلوب ولكنها غير صالحة

(١) سورة الأعراف، آية: [١٧٩].

للفهم؛ لأن أولوياتهم معكوسة، وأذهانهم عشوائية التفكير، ولهم أعين وآذان، ولكنها غير صالحة لاستقبال المعاني وإيصالها إلى العقل؛ لأنها لا ترى إلا البعد المادي، فعلى العين غشاوة الهوى، وفي الأذن وقر الجهل، فهم إما محبوسون في سجن شهواتهم البهيمية، فهم كالأنعام، وإما طغت عليهم شهواتهم النفسية كالحقد والكِبْر وحب الجاه بأي ثمن، فأصبحوا أضل من الأنعام؛ لأنهم صاروا من شياطين الإنس.

وأما العقل فإذا أحسن الإنسان تدريبه، ولقَّنه أسس التوحيد، وفقه الأولويات الإلهية، والسنن الكونية، كان عقلاً رزينًا يحسن التدبير ويرتفع بصاحبه إلى الأمور السامية. أما إذا تُرِك دون تدريب، يخترع لنفسه ترتيبًا للأولويات ذاتيًا، صار عشوائيًا، خاضعًا للشهوات الجسمانية والنفسية وللعواطف، وإذا طغت عليه تلك الشهوات أو العواطف أسكرته، أي غيبته، فيفقد قدرته على التفكير العميق والوصول إلى النتائج، واختراق الأوهام، والوصول إلى الثوابت والبديهيات، والتخطيط الطويل المدى، واختيار المصلحة الأكبر المؤجلة على المصلحة الأصغر المعجلة، وصار آلة ضعيفة تستعمل فقط في حدود ضيقة في كسب الرزق وإدارة أمور الحياة اليومية.

### أفضلية الآخرة على الدنيا:

ما أكثر ما يذكرنا الله ورسوله أن الآخرة مُقَدَّمة على الدنيا؛ لأن الروح الباقي مقدم على الجسد الفاني، ومن قدّم الدنيا على الآخرة صارت أموره منتكسة رأسًا على عقب، ولم يتمكن من الدنيا كما يريد، وانفرطت منه أموره فأصابه التشتيت، فلا فرق بينه وبين من نسي ذكر ربه -كما ذكرنا آنفا- وكان أمره مشتتًا. كما قال تعالى: ﴿**وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا**﴾[1]، وقال النبي ﷺ: «**مَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلاَّ مَا قُدِّرَ لَهُ**»[2].

(١) سورة الكهف، آية: [٢٨].
(٢) سنن الترمذي: (٢٤٦٥)؛ سنن ابن ماجه: (٤١٠٥).

إن إخضاع العقل للروح، وإخضاع النفس والجسد للعقل، يؤدي إلى أن تكون أمور الإنسان منتظمة، متناسقة، وأن تتلطف كثافة النفس بتشبهها بالروح فتصبح نورانية. ولكن إذا حدث العكس، إذا تغلبت على العقل العواطف السفلية التي لا تختلف عن تلك التي تنتج عنها حَمِيَّة الجاهلية -وإن كانت تتكلم باسم الدين-. هنا يكون العقل مظلمًا، مغلقًا، يفتقد سعة الأفق والمرونة التي تحوّل العلم إلى حكمة، فهو عقل لا يدرك إلا الظاهر، فلا يهتم إلا بالمظاهر الخارجية، غير مدرب على التجوال في عالم الفكر والغوص على درر المعارف والحكم، يظن أن الآيات القليلة والأحاديث المعدودة التي يحفظها هي العلم كله، يريد حل كل مشكلة بطريقة مادية، إذ أنه حبيس عالم المادة، وهو غاية إدراكه، فيجبر من لا يراه يصلي على الصلاة بضربه، ويجبر المتبرجة في الشارع على التستر بضربها، ويتعامل مع من يختلف معه في الرأي بإزالته من الوجود المادي وإنهاء معارضته له نهائيا بالقتل.

نعود إلى مرض المسلمين العضال في هذا العصر، ألا وهو تفضيل الدنيا على الآخرة، بينما يقول المولى ﷻ: ﴿**قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ**﴾(١)، ويقول سبحانه: ﴿**وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ**﴾(٢)، كما يقول تعالى: ﴿**أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ**﴾(٣)، ويقول: ﴿**بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ**﴾(٤)، ويقول النبي ﷺ لهم: «**كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ، أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ**»(٥)، ويعلّمهم أن يدعوا بهذه الدعوات: «**لاَ تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا، وَلاَ مَبْلَغَ عِلْمِنَا**»(٦)، ويُعرّفهم أنها ستكون خطرًا

(١) سورة النساء، آية: [٧٧].
(٢) سورة الأنعام، آية: [٣٢].
(٣) سورة التوبة، آية: [٣٨].
(٤) سورة الأعلى، آية: [١٦، ١٧].
(٥) صحيح البخاري: (٦٤١٦).
(٦) سنن الترمذي: (٣٥٠٢).



عليهم: «**إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةً، وَفِتْنَةُ أُمَّتِي المَالُ**»[1]، ويصور لهم قلة قيمتها في الحقيقة، فيقول: «**لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ الله جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ**»[2]، ويعرفهم اتساع ما فيها من شر، وقلة ما فيها من خير، فيقول: «**إِنَّ الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا، إِلاَّ ذِكْرَ الله وَمَا وَالاَهُ، وَعَالِمًا أَوْ مُتَعَلِّمًا**»[3]، وفي رواية: «**الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا، إِلا أَمْرًا بِمَعْرُوف، أَوْ نَهْيًا عَنِ مُنْكَر، أَوْ ذِكْر الله**»[4]، ويطمئنهم أن فوات الدنيا ليس هو الخطر الذي ينبغي أن يفزعهم، بل إن ما يحذّرهم منه إنما هو التنافس والتقاتل عليها حتى تهلكهم، فيقول: «**فَوَالله مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا، كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُلْهِيَكُمْ كَمَا أَلْهَتْهُمْ**»[5]، بل إن الدنيا أخطر على هذه الأمة من الشرك، وإن كره الخوارج. قال ﷺ: «**إِنِّي فَرَطُكُمْ عَلَى الحَوْضِ، وَإِنَّ عَرْضَهُ كَمَا بَيْنَ أَيْلَةَ إِلَى الْجُحْفَةِ. إِنِّي لَسْتُ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا بَعْدِي، وَلَكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا أَنْ تَنَافَسُوا فِيهَا وَتَقْتَتِلُوا، فَتَهْلِكُوا كَمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ**»[6].

ولكن كيف تكون الدنيا ملعونة وقد أمرنا الله أن نمشي في مناكبها ونأكل من رزقه، وقال تعالى: ﴿**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ**﴾[7]، إن الدنيا تكون ملعونة إن طلبت لذاتها، لا لشيء إلا للاستمتاع بشهواتها، والاستغراق في ملذاتها، ولكن تتضاعف اللعنة إذا كان المطلوب منها، -إضافة إلى ذلك- حرامًا، أو المال الذي ينفق فيها حرام.

---

(١) سنن الترمذي: (٢٣٣٦).
(٢) سنن الترمذي: (٢٣٢٠).
(٣) سنن الترمذي: (٢٣٢٢)؛ سنن ابن ماجه: (٤١١٢)؛ الطبراني في الأوسط: (٤٠٧٢).
(٤) مسند البزار: (١٧٣٦).
(٥) صحيح البخاري: (٦٤٢٥).
(٦) صحيح مسلم: (٢٢٩٦). (**الْجُحْفَة**): كانت محطة للقوافل بالحجاز بالقرب من رابغ، أما (**أيلة**) فهي ميناء العقبة.
(٧) سورة الأعراف، آية: [٣٢].

أما إذا كانت الدنيا مزرعة الآخرة، وأخذت من حِلِّهَا، ووضعت في محلها، فإنها لا تكون عندئذ ملعونة. لذلك استثنى ﷺ فقال: «**الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا، إلا مَا كَانَ مِنْهَا لله ﷻ**»(١)، فإن الحياة الدنيا للمسلم رحلة سفر كلها تعب ونصب، يرجو في نهايتها لقاء ربه ﷻ في أحسن حال، ولذلك كانت كما قال ﷺ: «**الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ، وَجَنَّةُ الْكَافِرِ**»(٢)، وقال ﷺ: «**الدُّنْيَا دَارُ مَنْ لاَ دَارَ لَهُ، وَمَالُ مَنْ لاَ مَالَ لَهُ، وَلَهَا يَجْمَعُ مَنْ لاَ عَقْلَ لَهُ**»(٣)، فالدنيا دار من لا دار تنتظره في الجنة، فتكون الدنيا كل متعته ولذته. وهي مال من لا مال له، والمال هنا المقصود به الأعمال الصالحة التي يقابل بها المرء ربه، فإن من ليس له من صالح الأعمال شيء فكل ماله إنما هو هذا المال الدنيوي. ولها يجمع من لا عقل له، فإن العقل هو الذي به يميز الإنسان الأشياء فيعرف فضل الآخرة على الدنيا، والفرق بين الحلال والحرام، وبين الفضيلة والرذيلة. والعقل يقوم بذلك الدور إذا ما تعلَّم ذلك من القرآن، فإن للقرآن أنوارًا فرقانية، تجعل العقل يميز الحلال من الحرام، والمهم من الأقل أهمية، وما ينبغي فعله على الفور، وما يمكن أن يكون على التراخي. وهذه الأنوار الفرقانية يستقبلها أولو التقوى والقلوب الطاهرة. يقول تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانًا**﴾(٤).

### الجمال والقبح:

إن تدبر القرآن والإخلاص في اتباع السنة المحمدية تكسب الإنسان رقة في الشعور، وتشحذ إحساسه بالجمال، وتكسبه الذوق الرفيع، وعندئذ يمكنه أن يستفتي قلبه، فإن الجمال الحقيقي والذوق الرفيع لابد وأن يتفقا مع الحق، فإن القانون الشامل لكل شيء هو قوله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ**»(٥)، ولكن الجمال أنواع،

(١) البيهقي في شعب الإيمان: (١٠٥١٢).
(٢) صحيح مسلم: (٢٩٥٦)؛ سنن الترمذي: (٢٣٢٤)؛ سنن ابن ماجه: (٤١١٣).
(٣) مسند الإمام أحمد: (٢٤٤٦٤).
(٤) سورة الأنفال، آية: [٢٩].
(٥) صحيح مسلم: (٩٠)؛ صحيح ابن حبان: (٥٤٦٦).

فللروح جمال، وهو مقدم على جميع أنواع الجمال الأخرى، وللنفس جمال، وهو حُسْن الخلق أولاً، والعقل الراجح ثانيًا، ثم للجسد جمال، وهو أقل الثلاثة أهمية، وأسرعهم زوالاً. فالإنسان الجميل الظاهر، القبيح الباطن، في الحقيقة قبيح، وينفر منه الناس حالما يكتشفون دناءة باطنه؛ ومثال ذلك الشباب الذين يلهثون وراء البنات المتحررات المتبرجات، أو حتى الراقصات، أي «الكاسيات العاريات المميلات المائلات اللاتي لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها»[1]، ولكن حالما يريدون الزواج والاستقرار يتركون تلك التي ظاهرها جميل وباطنها قبيح، ويبحثون عن ذات الجمال المعنوي، ذات الأصل الطيب والعفة والأخلاق الحميدة.

ويظل هناك من فقد التمييز أو الفرقان تمامًا، فلا يستطيع معرفة الحق من الباطل، ولا الجمال من القبح، ولا ما ينفعه مما يضره، ويعيش حياة عشوائية، لا يتبع إلا ما يمليه عليه هواه، يرتع في الشهوات الرخيصة كالأنعام ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾[2]، ﴿وَفَرِحُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾[3]، وأمثال هؤلاء لا يستمع لنصيحة من هو أكثر منه خبرة، حتى تمر السنين، وتتكاثر عليه المصائب، ويعلم أنه قد أهدر حياته سدى، فلا دنيا (أي حياة أسرية ذات روابط متينة وحميمة ينشرح لها صدره وينجبر بها خاطره)، ولا آخرة (أي ولا خلود في جنة النعيم بلا سابقة عذاب ولا عقاب). ﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْأَخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾[4].

(١) صحيح مسلم: (٢١٢٨، ٢٨٥٦)؛ صحيح ابن حبان: (٧٤٦١)؛ مسند الإمام أحمد: (٨٦٥٠، ٩٦٧٨).
(٢) سورة الشورى، آية: [٢٠].
(٣) سورة الرعد، آية: [٢٦].
(٤) سورة الإسراء، آية: [٧٢].

# ثامنًا: مظاهر ونتائج الفساد

يقول ﷺ: «إِذَا اتُّخِذَ الْفَيْءُ دُوَلاً، وَالأَمَانَةُ مَغْنَمًا، وَالزَّكَاةُ مَغْرَمًا، وَتُعُلِّمَ لِغَيْرِ الـدِّينِ، وَأَطَاعَ الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ، وَعَقَّ أُمَّـهُ، وَأَدْنَـى صَـدِيقَهُ، وَأَقْـصَى أَبَـاهُ، وَظَهَـرَتِ الأَصْـوَاتُ فِي الْمَسَاجِدِ، وَسَادَ الْقَبِيلَةَ فَاسِقُهُمْ، وَكَانَ زَعِيمُ الْقَوْمِ أَرْذَلَــهُمْ، وَأُكْـرِمَ الرَّجُـلُ مَخَافَـةَ شَرِّهِ، وَظَهَرَتِ الْقَيْنَاتُ وَالْمَعَازِفُ، وَشُرِبَتِ الْخُمُورُ، وَلَعَنَ آخِرُ هَذِهِ الأُمَّةِ أَوَّلَهَا، فَلْيَرْتَقِبُـوا عِنْـدَ ذَلِكَ رِيحًا حَمْرَاءَ وَزَلْزَلَةً وَخَسْفًا وَمَسْخًا وَقَـذْفًا، وَآيَـاتٍ تَتَـابَعُ كَنِظَـامٍ بَـالٍ قُطِـعَ سِـلْكُهُ فَتَتَابَعَ»[1]، ولقد حدث ذلك كله، واستأثرت الطبقات الحاكمة بموارد الدول، واتخذت الأمانة مغنمًا، أي أن كل من استودع أمانة استولى عليها، ونفر الناس من الزكاة وتحايلوا على وضعها في غير محلها، وتعلم طالب العلم لغير الدين بل للدنيا والمال والجاه، أطاع الرجل امرأته على حساب بره بوالدته، كما هو الحال في الغرب، حيث لا يعتبر بر الوالدين أمرًا ذا شأن، وإنما الشأن كل الشأن في إرضاء الزوجة، ووجد الشباب متعتهم مع أصدقاءهم في النوادي وأماكن اللهو والمجون، وفضّلوهم على آبائهم، وصار بينهم وبين آبائهم جفوة وتباعد، واتهموهم بالرجعية والتخلف، ولم يكتف الناس بالتنادي والتكلم في المساجد بأصوات عالية منكرة، ولكن غابت عقولهم وفقدوا خشوعهم فدخلوا بالهواتف المحمولة ذات النغمات الموسيقية الراقصة الصاخبة إلى المساجد، بل إلى المسجد الحرام؛ وكذلك سائر ما ذكر في الحديث واقع

---

(١) سنن الترمذي: (٢٢١١). إذا أطلق لفظ: الآيات، فالمقصود العلامات الكبرى، فإنه بعد ظهور العلامة الأولى وهي المهدي تتابع بسرعة كما وصفها النبي ﷺ: «الآيَاتُ خَرَزٌ مَنْظُومَاتٌ فِي سِلْكٍ، انْقَطَعَ السِّلْكُ فَيَتْبَعُ بَعْضُهَا بَعْضًا». مصنف ابن أبي شيبة: (٣٧٢٧٤).

مُشاهَد من وجود زعماء سفلة، ومغنيات وموسيقى، وحانات الخمر العلنية المعترف بها من حكومات الدول، بل وصناعة الخمور في هذه الدول، ولعن الروافض للصحابة، وكذلك كثرة الزلازل، والقذف بالصواريخ والقنابل، والخسف، وهو اختفاء قرى كاملة في الأرض أثناء الزلازل.

ويصف ﷺ أنواعًا من الناس لا تظهر إلا في آخر الزمان: «**صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا: قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلاَتٌ مَائِلاَتٌ، رُءُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ، لاَ يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ وَلاَ يَجِدْنَ رِيحَهَا وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا**»[(١)].

وفي رواية: «**يَكُونُ فِي آخِرِ هَذِهِ الأُمَّةِ رِجَالٌ يَرْكَبُونَ عَلَى الْمَيَاثِرِ حَتَّى يَأْتُونَ أَبْوَابَ الْمَسَاجِد، نِسَاؤُهُمْ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ، عَلَى رُءُوسِهِنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْعِجَافِ، الْعَنُوهُنَّ فَإِنَّهُنَّ مَلْعُونَاتٌ، وَلَوْ كَانَتْ وَرَاءَكُمْ أُمَّةٌ مِنَ الأُمَمِ لَخَدَمَتْهُمْ نِسَاؤكمْ كَمَا خَدَمَتْكُمْ نِسَاءُ الأُمَمِ قَبْلَكُمْ**» قَالَ ابن عمر رضي الله عنهما: فَقُلْتُ لأَبِي: وَمَا الْمَيَاثِرُ؟ قَالَ: «**سُرُوج عِظَام**»[(٢)].

وفي رواية: «**سَيَكُونُ فِي آخِرِ أُمَّتِي رِجَالٌ يَرْكَبُونَ عَلَى سُروجٍ، كَأَشْبَاهِ الرِّجَالِ، يَنْزِلُونَ عَلَى أَبْوَابِ الْمَسَاجِدِ، نِسَاؤُهُمْ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ، عَلَى رُءُوسِهِنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْعِجَافِ، الْعَنُوهُنَّ فَإِنَّهُنَّ مَلْعُونَاتٌ**»[(٣)].

في هذا الحديث وصف دقيق لنساء اليوم اللاتي يتزين بزي الأجانب، فإما يكون ذلك الزي شفافاً يظهر ما تحته، وإما ضيقًا لاصقًا يبرز مفاتن الجسم، فهن لا كاسيات ولا عاريات، ولذلك فهنّ وإن كنّ ملفتات للنظر في الظاهر، فإن قلوبهن مظلمة مريضة قبيحة، وكذلك قلوب كل ولي أمر لهن ديّوث، أي لا شرف له ولا غيرة على

(١) صحيح مسلم: (٢١٢٨، ٢٨٥٦)؛ صحيح ابن حبان: (٧٤٦١)؛ مسند الإمام أحمد: (٨٦٥٠، ٩٦٧٨).
(٢) الحاكم في المستدرك: (٨٣٤٦).
(٣) صحيح ابن حبان: (٥٧٥٣)، مسند الإمام أحمد: (٧٠٨٣).

أهله. قال ﷺ: «**لاَ يَدْخُلُ الجَنَّـةَ دَيّوثٌ**»(١)، وعلى رؤوس تلك النساء القبعات المائلة كأسنمة البخت أي الجِمال. وأمثال هذه النساء مقطوعات عن رحمة الله، ملعونات بتصرفاتهن الخليعة، وإن كنّ يصلين فصلاتهن غير مقبولة. قال ﷺ: «**إِذَا رَأَيْتُمُ اللاتِي أَلْقَيْـنَ عَلَى رءُوسِهِنَّ مِثْلَ أَسْنِمَةِ الْبَقَرِ فَأَعْلِمُوهُنَّ أَنَّهُ لاَ يُقْبَلُ لَـهُـنَّ صَلاةٌ**»(٢).

وفي الحديث كذلك وصف دقيق للغاية للسيارات، التي هي المياثر، يركبها الرجال والنساء، ويصفّونها على أبواب المساجد، والرجل الذي يصلح مقاعد السيارات لا يزال يسمى بالسروجي.

ويفيد الحديث أن هذا غاية في التدهور لهذه الأمة، إذ أنها وصلت لما وصلت إليه الأمم السابقة من الانهيار حينما باغتهم المسلمون واستولوا على بلادهم وصارت نساؤهم تخدم نساء المسلمين، فلو كان نبي بعد خاتم النبيين ﷺ لكانت أمته أعادت الكرة فغزت هذه الأمة بعد أن أصابها الانحطاط والفوضى، وانتصرت عليها واستذلتها، إلا أنه لا نبي بعده ﷺ.

ونوع آخر من الناس جاء وصفه في حديث شريف: «**يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ هَمّهم بطونهم، وشرههم متاعهم، وقبلتهم نساؤهم، ودينهم دراهمهم ودنانيرهم، أولئك شَرّ الخلقِ لاَ خَلاَقَ لَـهُمْ عِنْدَ الله**»(٣).

وفي حديث آخر: «**كَيْفَ بِكُمْ وَبِزَمَانٍ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ يُغَرْبَلُ النَّاسُ فِيهِ غَرْبَلَةً وَتَبْقَى حُثَالَةٌ مِنَ النَّاسِ قَدْ مَرِجَتْ عُهُودُهُمْ وَأَمَانَاتُهُمْ، فَاخْتَلَفُوا وَكَانُوا هَكَذَا**». وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابعِهِ، قَالُوا: كَيْفَ بنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ إذا كَانَ ذلِكَ؟ قَالَ: «**تَأْخُذُونَ بِمَا تَعْرِفُونَ**

---

(١) مسند الطيالسي: (٦٤٢).

(٢) الطبراني في الكبير: (٩٢٨).

(٣) الإشاعة لأشراط الساعة، للسيد محمد البرزنجي؛ دار المنهاج، بيروت، الطبعة الثالثة: ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م، ص١٦٥؛ قال: رواه السلمي عن علي كرم الله وجهه.

وَتَدَعُونَ مَا تُنْكِرُونَ، وَتُقْبِلُونَ عَلَى خَاصَّتِكُمْ، وَتَذَرُونَ أَمْرَ عَوَامِّكُمْ»[١].

وفي رواية: «إِذَا رَأَيْتَ النَّاسَ قَدْ مَرَجَتْ عُهُودُهُمْ، وَخَفَّتْ أَمَانَاتُهُمْ وَكَانُوا هَكَذَا». وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابعِهِ «فَالْزَمْ بَيْتَكَ، وَامْلِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، وَخُذْ مَا تَعْرِفُ وَدَعْ مَا تُنْكِرُ، وَعَلَيْكَ بِأَمْرِ خَاصَّةِ نَفْسِكَ، وَدَعْ عَنْكَ أَمْرَ الْعَامَّةِ»[٢].

ومن العلامات أن الصالحين من الناس يتجنبون مواقع المسئولية ويتركون غيرهم يتنافسون ويتقاتلون عليها بالأساليب الشريفة وغير الشريفة، فلا تجد في أغلب مواقع المسئولية إلا من هو سيئ الْخُلُق، لا يجتنب الحرام، ويشتري دنياه بدينه. ولذلك قال النبي ﷺ: «إِذَا أُسْنِدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ، فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ»[٣].

وقال ﷺ: «لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَكُونَ أَسْعَدَ النَّاسِ بِالدُّنْيَا لُكَعُ ابْنُ لُكَعَ»[٤].

وفي رواية: «لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يُكَذَّبُ فِيهِ الصَّادِقُ، وَيُصَدَّقُ فِيهِ الْكَاذِبُ، وَيُخَوَّنُ فِيهِ الأَمِينُ، وَيُؤَمَّنُ فِيهِ الخَئُونُ، وَيَشْهَدُ فِيهِ المَرْءُ وَإِنْ لَمْ يُسْتَشْهَدْ، وَيَحْلِفُ المَرْءُ وَإِنْ لَمْ يُسْتَحْلَفْ، وَيَكُونُ أَسْعَدُ النَّاسِ بِالدُّنْيَا لُكَعَ بْنَ لُكَعٍ، لاَ يُؤْمِنُ بِالله وَرَسُولِهِ»[٥].

ولَمَّا سَأَلَ أَبو ثَعْلَبَة الْخُشَنِيِّ النبيّ ﷺ عن قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ﴾ قَالَ ﷺ: «بَلِ ائْتَمِرُوا بِالمَعْرُوفِ، وَتَنَاهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ، حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا، وَهَوًى مُتَّبَعًا، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ

---

(١) سنن ابن ماجه: (٣٩٥٧)؛ سنن أبي داود: (٤٣٤٢)؛ مسند الإمام أحمد: (٦٥٠٨، ٦٩٨٧، ٧٠٦٢)؛ البزار: (٢٤٠٤).

(٢) سنن أبي داود: (٤٣٤٣)؛ مسند الإمام أحمد: (٧٠٤٩)، و(مَرَجَت): اختلطت وفسدت.

(٣) صحيح البخاري: (٦٤٩٦).

(٤) سنن الترمذي: (٢٢٠٩). و(اللكع) هو قليل العلم والعقل، فيه لؤم وحمق.

(٥) الطبراني في الأوسط: (٨٦٤٣). إن نهاية الجهل والسفه، وقمة اللؤم والحمق، أن يَكْفُر الإنسان بالله ورسوله، ويصبح بذلك: «لُكَعَ بْنَ لُكَعٍ، لاَ يُؤْمِنُ بالله وَرَسُولِهِ».

**بِرَأْيِهِ، فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ، وَدَعِ الْعَوَامَّ فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامًا، الصَّبْرُ فِيهِنَّ مِثْلُ الْقَبْضِ عَلَى الجَمْرِ، لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلاً يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِكُمْ**». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَجْرُ خَمْسِينَ رَجُلاً مِنَّا أَوْ مِنْهُمْ؟ قَالَ: «**لاَ، بَلْ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ**»[1].

والشح هو أن يمنع الإنسان ما يجب، فالعالِم لا يعلّم، والمدرس لا يُدَرِّس، والحرفي لا يُدَرِّب غلامه، وتمنع الزكاة، وهكذا. أما اتباع الهوى فهو تقديم الشهوات والعصبيات على القيم والأولويات الثابتة، وسببه إيثار الدنيا على الآخرة.

وأما إعجاب كل ذي رأي برأيه فلم يكن ذا بال قبل ظهور وسائل الاتصالات الحديثة، وصار الآن من أمراض العصر لَمَّا ملأ المتشدقون في الكلام شاشات التلفزيون، يفتون بلا تردد ولا ورع في كل كبيرة وصغيرة.

فإذا صار الزمن كذلك فشا الربا بشكل لم يكن بالإمكان تخيله من قبل اختراع البنوك، وإنها لمن معجزات النبي ﷺ البيِّنة، إذ أخبر عن ذلك بدقة ووضوح، فقال: «**لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لاَ يَبْقَى مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلاَّ أَكَلَ الرِّبَا، فَمَنْ لَمْ يَأْكُلْ أَصَابَهُ مِنْ غُبَارِهِ**»[2]، فاليوم إن لم تكن تأكل فوائد البنك فإنك لا محالة مصيبك غبارها، إذ أن التجارة والمعاملات المالية والإنشائية والصناعية والزراعية كلها تدور من خلال البنوك، وكذلك من خلالها تصل إلى الموظفين رواتبهم ومنهم علماء الأزهر وأئمة المساجد وقارئو القرآن، فكيف الخلاص؟ وأغلب الناس هذه الأيام لا يبالي إن كان المال من ربا أو من أي وجه آخر من الحرام، كما قال ﷺ: «**لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لاَ يُبَالِي المَرْءُ بِمَا أَخَذَ المَالَ، أَمِنْ حَلاَلٍ أَمْ مِنْ حَرَامٍ**»[3].

---

(١) سنن الترمذي: (٣٠٥٨)؛ سنن أبي داود: (٤٣٤١)؛ سنن ابن ماجه، (٤٠١٤).

(٢) سنن ابن ماجه: (٢٢٧٨)؛ سنن أبي داود، (٣٣٣١)؛ الحاكم في المستدرك: (٢١٦٢)؛ البيهقي في السنن الكبرى: (١٠٢٥٢).

(٣) صحيح البخاري: (١٩٧٧)؛ سنن النسائي: (٤٤٥٤)؛ مسند الإمام أحمد: (٩٦١٨).

والربا من أخطر الموبقات. وقد أنذر الله ﷻ الناس بحرب منه إن لم يتركوه فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٧٨ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[1]. والحرب من الله شيء خطيرة عواقبه، وسوف تظهر هذه العواقب بالتفصيل فيما يأتي.

وكذلك بيَّن الرسول ﷺ ما يحدث في سائر أمور الأمة، فإن العلماء يقلون، ومن سماهم بالرويبضة -أي الجهلاء الذين تكون لهم الكلمة في الأمور العامة- يكثرون، وتزداد الفتن في كافة نواحي الحياة، ويكثر الزنا، وتسوء الأخلاق حتى تذهب الأمانة والصدق وصلة الرحم وحُسْن الجوار، ويطمس على بصيرة الناس فكلما جاءهم فاسق بنبأ صدَّقوه، وإذا تكلم فيهم الناصح الأمين كذَّبوه، ويكثر شرب الخمر، والشذوذ، وأصناف الموبقات. ولندع الأحاديث الشريفة تتكلم وتخبرنا بهذه الأمور وغيرها مما هو حادث اليوم:

يقول ﷺ: «**لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُم قَلِيلاً، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، يَظْهَرُ النِّفَاقُ، وتُرْفَعُ الأَمَانَةُ، وَتُقْبَضُ الرَّحْمَةُ، وَيُتَّهَمُ الأَمِينُ، وَيُؤْتَمَنُ غَيْرُ الأَمِينِ، أَنَاخَ بِكُمُ الشَّرْفُ الجُونُ**»، قَالُوا: وَمَا الشَّرْفُ الجُونُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**فِتَنٌ كَقِطَعِ اللَّيْلِ المُظْلِمِ**»[2].

ويقول ﷺ: «**يَخْرُجُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ رِجَالٌ يَخْتِلُونَ الدُّنْيَا بِالدِّينِ، يَلْبَسُونَ لِلنَّاسِ جُلُودَ الضَّأْنِ مِنَ اللِّينِ، أَلْسِنَتُهُمْ أَحْلَى مِنَ السُّكَّرِ، وَقُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الذِّئَابِ، يَقُولُ اللهُ ﷻ: أَبِي يَغْتَرُّونَ أَمْ عَلَيَّ يَجْتَرِئُونَ؟ فَبِي حَلَفْتُ لأَبْعَثَنَّ عَلَى أُولَئِكَ مِنْهُمْ فِتْنَةً تَدَعُ الحَلِيمَ مِنْهُمْ حَيْرَانًا**»[3]، هؤلاء أقوام يطلبون متاع الدنيا بعمل الآخرة، يلبسون جلود الضأن، أي يظهرون اللين واللطف والضعف مع الناس، كلامهم أحلى من السكر، بينما قلوبهم

(١) سورة البقرة، آية: [٢٧٨، ٢٧٩].
(٢) صحيح ابن حبان: (٦٧٠٦).
(٣) سنن الترمذي: (٢٤٠٤). (يختلون): يُفسدون.

قلوب الذئاب، أي شرسة في الوثب على الدنيا. يغترون بحلم الله وإمهاله، ويجترئـون عليه، والاغترار والاجتراء هنا عـدم الخـوف مـن الله -والظـن أنـه لـن يأخـذهم-، والاسترسال في المعاصي والشهوات. يُقسـم الله بعظمته وجلالـه ليبعثن على أولئـك -مما بينهم- فتنة ناشئة منهم، بتسليط بعضهم على بعض، فتنـة لا تـترك الحلـيم (أي الذكي الحازم) إلا حيرانًا، لا يدري ماذا يحدث ولا كيف يفعـل، لا يقـدر علـى دفـع الفتنة ولا على الخلاص منها.

ويقول ﷺ: «**سَـيَجِيءُ فِي آخِـرِ الزَّمَـانِ أَقْـوَامٌ يَكُـونُ وُجُـوهُهُمْ وُجُـوهَ الآدَمِيِّـينَ، وَقُلُوبُهُمْ قُلُوبَ الشَّيَاطِينِ، أَمْثَالُ الذِّئَابِ الـضَّوَارِيِّ، لَـيْسَ فِي قُلُـوبِهِمْ شَيْءٌ مِـنَ الرَّحْمَـةِ، سفَّاكُونَ لِلدِّمَاءِ، لا يَرْعَوُونَ عَنْ قَبِيحٍ، إِنْ تابَعْتَهُمْ وَارَبُوكَ، وَإِنْ تَوَارَيْتَ عَنْهُمُ اغْتَـابُوكَ، وَإِنْ حَدَّثُوكَ كَذَبُوكَ، وَإِنِ ائْتَمَنْتَهُمْ خَانُوكَ، صَبِيُّهُمْ عَامِرٌ وَشابُّهُمْ شاطِرٌ وَشَيْخُهُمْ لا يَأْمُرُ بِمَعْرُوفٍ وَلا يَنْهَى عَنْ مُنْكَرٍ، الاعْتِزَازُ بِهِمْ ذُلٌّ، وَطَلَبُ مَا فِي أَيْـدِيهِمْ فَقْـرٌ، الحَلِـيمُ فِـيهِمْ غاوٍ، وَالآمِرُ بِالمَعْرُوفِ فِيهِمْ مُتَّهَمٌ، المُؤْمِنُ فِيهِمْ مُسْتَضْعَفٌ، وَالْفَاسِقُ فِيهِمْ مُشَرَّفٌ، السُّنَّةُ فِيهِمْ بِدْعَةٌ، وَالْبِدْعَةُ فِيهِمْ سُنَّةٌ، فَعِنْـدَ ذَلِـكَ يُـسَلَّطُ عَلَـيْهِمْ شرارُهُـمْ، وَيَـدْعُو خِيَـارُهُمْ فَلا يُسْتَجَابُ لَـهُمْ**»(1).

ويقول رسول الله ﷺ: «**إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُرْفَعَ الْعِلْمُ، وَيَكْثُرَ الجَهْلُ وَيَكْثُـرَ الزِّنَا، وَيَكْثُرَ شُرْبُ الخَمْرِ، وَيَقِلَّ الرِّجَالُ، وَيَكْثُرَ النِّسَاءُ حَتَّى يَكُونَ لِخَمْـسِينَ امْـرَأَةً الْقَـيِّمُ الْوَاحِدُ**»(2)، ويقول ﷺ: «**لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقْبَضَ الْعِلْمُ، وَتَكْثُرَ الـزَّلاَزِلُ، وَيَتَقَـارَبَ الزَّمَانُ، وَتَظْهَرَ الْفِتَنُ، وَيَكْثُرَ الْـهَـرْجُ**»(3).

---

(1) المعجم الكبير للطبراني: (9/ 309).
(2) صحيح البخاري: (4933).
(3) مسند الإمام أحمد: (10875).

ويقول عليه الصلاة والسلام: «**لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَتَطَاوَلَ النَّاسُ فِي الْبُنْيَانِ**»[(١)].

ومعنى «تظهر الفتن» أي أنها بعد أن كانت مستورة تصبح ظاهرة في كل مكـان، لا أنها لم تكن بالمرة ثم كانت، وكذلك يظهر النفاق، وتظهـر القينـات والمعـازف، أي تصبح منتشرة علانية بعد أن كانت مستخفية في القصور.

يقول ﷺ: «**سَيَأْتِي عَلَى أُمَّتِي زَمَانٌ يَكْثُرُ فِيهِ الْقُرَّاءُ، وَتَقِلُّ الْفُقَهَـاءُ، وَيُقْـبَضُ الْعِلْـمُ، وَيَكْثُرُ الْـهَـرْجُ**». قَالُوا: وَمَا الْهَرْجُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**الْقَتْلُ بَيْنَكُمْ، ثُمَّ يَأْتِي بَعْدَ ذَلِـكَ زَمَانٌ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ رِجَالٌ لاَ يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ زَمَانٌ يُجَادِلُ الْمُنَافِقُ الْكَـافِرُ الْمُشْرِكُ بِاللهِ الْمُؤْمِنَ بِمِثْلِ مَا يَقُولُ**»[(٢)].

ومعنى هذا الحديث أنه من علامات الفساد أن الفقهاء، وهـم العلمـاء العـاملون المخلصون، سيذهبون، ويحـل محلهم كثـرة من القـرّاء الذيـن تعلمـوا العلـم للـدنيا لا لله ﷻ. بذلك يقبض أي يرفع العلم من الأرض.

وعلامة أخرى من علامات الفساد أن يقرأ قوم القرآن بحيث لا يجـاوز التراقـي، أي لا يتعدى الحلق إلى القلب، أي يقرأونه باللسان فقط.

وعلامة ثالثة هي مجادلة المشرك للمؤمن بمثل ما يقول، فيجادل المستشرقون الذين درسوا القرآن والحديث المسلمين بهما، محاولين إيهامهم أن فيهما أخطاء وتناقـضات، وقد ظهر هؤلاء بكثرة. وكـذلك رأينـا في الفـضائيات عـددًا مـن الـذين كـانوا يومًـا مسلمون مسلمين، فهم لذلك يعلمون ما لدى المسلمين من كتـاب وسـنة، ثـم تبنـوا أفكار الكفار، وبعضهم ارتد علنًا ويتكلم ويكتب وتحميه أمريكـا، وبعـضهم لم يعلـن ارتداده ولكن له آراء في النصوص تخالف كل ما اتفق عليه المسلمون، وصدق رسول الله ﷺ فيما قال إجمالاً وتفصيلاً.

---

(١) مسند الإمام أحمد: (١٠٨٧٥)؛ البيهقي في شعب الإيمان: (١٠٧٠١).
(٢) الحاكم في المستدرك: (٨٤١٢).

**ومن العلامات الأخرى المذكورة في الأحاديث:** قوله ﷺ: «**سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يُخَيَّرُ الرَّجُلُ فِيهِ بَيْنَ الْعَجْزِ وَالْفُجُورِ، فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ الزَّمَانَ فَلْيَخْتَرِ الْعَجْزَ عَلَى الْفُجُورِ**»(1)، والعجز هنا -والله أعلم- بمعنى أنه سوف يدعى الرجل لمشاركة ذوي السلطة وآخرين في فجورهم، فإن لم يشاركهم فلا يسعه إلا أن يقف موقف العاجز الذي يرى الفجور أمامه ولا يستطيع أمرًا بمعروف، ولا نهيًا عن منكر، فيكون قد اختار العجز على الفجور. ويخيَّر الرجل بين ألا يجد قوت يومه وأولاده، أو يعمل بأجر هزيل، وبين عمل من الأعمال الكثيرة التي انتشرت هذه الأيام وكلها أو أكثرها حرام، وباقيها شبهة.

ويقول ﷺ: «**كَيْفَ بِكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ إِذَا طَغَى نِسَاؤُكُمْ، وَفَسَقَ فِتْيَانُكُمْ**»؟ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ هَذا لَكَائِنٌ؟ قَالَ: «**نَعَمْ، وَأَشَدُّ مِنْهُ، كَيْفَ بِكُمْ إِذَا تَرَكْتُمُ الأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ**»؟ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ هَذا لَكَائِنٌ؟ قَالَ: «**نَعَم، وَأَشَدُّ مِنْهُ، كَيْفَ بِكُمْ إِذَا رَأَيْتُمُ الْمُنكَرَ مَعْرُوفًا، وَالْمَعْرُوفَ مُنْكَرًا**»؟(2)، هنا يظهر بوضوح كيف تصبح الأولويات منكوسة، رأسًا على عقب، وكذلك في الحديث الذي يقول فيه ﷺ: «**لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَكُونَ الْوَلَدُ غَيْظًا، وَالْمَطَرُ قَيْظًا، وَيَفِيضُ اللِّئَامُ فَيْضًا، وَيَغِيضُ الْكِرَامُ غَيْضًا، وَيَجْتَرِئُ الصَّغِيرُ عَلَى الْكَبِيرِ، وَاللَّئِيمُ عَلَى الْكَرِيم**»(3)، أن يكون الولد غيظاً أي لا يأتي منه إلا شر، وهذا منتشر الآن بانتشار المخدرات، والخمر، والملاهي، وسائر الموبقات. أما المطر فسوف يكون كثيرًا ولكن ما ينبته من نبات قليل؛ لقلة البركة. وأما فيض الأشرار فمعناه ظهورهم في الناس لكثرتهم وقوتهم، واختفاء الكرام لضعفهم وهوانهم، حين يجترئ الصغير على الكبير واللئيم على الكريم، فتسود المجتمع قيم اللئام، وتختفي قيم الكرام، فيكون مجتمعًا منكوسًا.

---

(1) مسند الإمام أحمد: (٩٧٦٦)؛ الحاكم في المستدرك: (٨٣٥٢-٨٣٥٣)؛ مسند أبي يعلى: (٦٤٠٣).
(2) مسند أبي يعلى: (٦٤١٩).
(3) الطبراني في الأوسط: (٦٤٢٧).

ولما كان المال يفيض فيضًا في آخر الزمان، كما أخبر ﷺ، وكما حدث بعد ظهور البترول، وفتحت الدنيا أبوابها، «وترى الحفاة العراة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان» فإنه يكون نوع من الناس تظهر عليهم الرفاهية في إسراف، ولا يكون همهم إلا بطونهم وفروجهم، ويظهر فيهم كفر النعمة والبطر والتشاحن على متاع الدنيا، والتباغض والتحاسد، وتعدي كل منهم على أموال وممتلكات الآخر.

ويقول ﷺ: «**سَيُصِيبُ أُمَّتِي دَاءُ الأُمَمِ**»، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا دَاءُ الأُمَمِ؟ قَالَ: «**الأَشَرُ، وَالْبَطَرُ، وَالتَّكَاثُرُ، وَالتَّنَاجُشُ فِي الدُّنْيَا، وَالتَّبَاغُضُ وَالتَّحَاسُدُ، حَتَّى يَكُونَ الْبَغْيُ**»[1]، يفهم من هذا الحديث أن للأمم أمراض، وأن أعضلها وأشدها، حتى يسمى داء الأمم، هو الذي يؤدي إلى هذه الأعراض.

وما يؤدي إلى كل ذلك إلا الأنانية، فإن الإنسان الأناني جاهل، أعمى البصيرة، يظن أن مصلحته الشخصية يمكن أن تتم على حساب مصالح الناس، بالتقدم عليهم بغير حق، والتعدي على حقوقهم، وعدم الالتفات لمصالحهم ومشاعرهم. إن كل إنسان في بلاد المسلمين يعيش كأنه وحده، في حالة منافسة محمومة مع سائر الناس، وطالما وصل إلى مرغوبه لا يأبه بالآخرين. نرى ذلك بوضوح في فوضى المرور في الشوارع، وفي فوضى التعامل في المكاتب والدواوين، وفي الطوابير في المصالح، والمطارات، وغيرها، وفي إلقاء القمامة في الشوارع من البيوت ومن نوافذ السيارات، كأن من يفعل ذلك قادم من كوكب آخر، يمر بهذا الكوكب مرورًا سريعًا، ولا يهمه ما يسببه من قذارة وتلوث وروائح وأمراض، كأنه لا يدرك أنه يلوث بيته وبيت أهله.

إن القاعدة عند المسلمين أن المسلم أخو المسلم، وأن كلاً منهم يحافظ على مصلحة الآخر ويحب له ما يحب لنفسه، وأنهم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا، كما نشاهد من القلة التي لا زالت على العهد، تحافظ على السنة، القلة من الأخيار التي لم يجرفها التيار.

(١) الحاكم في المستدرك: (٧٣١١).

قال النبي ﷺ: «**إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ، يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا**» وَشَبَّكَ أَصَابِعَهُ[1]، وقال ﷺ: «**مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى**»[2]، فلا مجال هنا للأنانية، فهي لا تتأتى إلا من ذلك الذي نسي ربه، فظن أن ما يحصل عليه من نعمة إنما هي ببدهائه، فقال كما قال قارون قبل أن يخسف به: ﴿**إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ**﴾[3]، وأظهر (**الأشر**) وهو الفرح بالدنيا وبالتفوق على الناس فيها، و(**البطر**) وهو إنكار الحق، وإنكار ما تفضَّل المولى ﷻ به عليه من نعم، والتكبر على الْخَلْق، و(**التكاثر**) وهو التباهي والتفاخر بحطام الدنيا، والتنافس على جمع أكثر من الآخرين منها، و(**التناجش**) وهو الخداع بنية الاستفادة من الآخر، وينتج من ذلك كله الحسد والغيظ والبغض والأذى.

ويقول ﷺ: «**لاَ تَزَالُ الأُمَّةُ عَلَى شَرِيعَةٍ مَا لَمْ تَظْهَرْ فِيهِمْ ثَلاَثٌ: مَا لَمْ يُقْبَضْ مِنْهُمُ الْعِلْمُ، وَيَكْثُرُ فِيهِمْ وَلَدُ الْخَبَثِ، وَيَظْهَرُ فِيهِمْ السَّقَّارون**». قَالُوا: وَمَا السَّقَّارون يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**بَشَرٌ يَكُونُونَ فِي آخِرِ الزَّمَانِ تَكُون تَحِيَّتُهُمْ بَيْنَهُمْ إِذَا تَلاَقَوا التَّلاعُنُ**»[4].

ويقول ﷺ: «**إِذَا اسْتَحَلَّتْ أُمَّتِي سِتًّا فَعَلَيْهِمُ الدَّمَارُ: إِذَا ظَهَرَ فِيهِمُ التَّلاَعُنُ، وَشَرِبُوا الْخُمُورَ، وَلَبِسُوا الْحَرِيرَ، وَاتَّخَذُوا الْقِيَانَ، وَاكْتَفَى الرِّجَالُ بِالرِّجَالِ، وَالنِّسَاءُ بِالنِّسَاءِ**»[5]، وهؤلاء السقّارون الذين تكون التحية بينهم التلاعن والبذاءة والسب موجودون مشاهدون اليوم في الأسواق والشوارع.

سأل رجلٌ عبد الله بن مسعود ﷺ يومًا: أَبَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ، هَلْ لِلسَّاعَةِ مِنْ عِلْمٍ تُعْرَفُ بِهِ السَّاعَةُ؟ وَكَانَ مُتَّكِئًا فَاسْتَوَى جَالِسًا، فَقَالَ: يَا سَعْدِيُّ، سَأَلْتَنِي عَمَّا

(١) صحيح البخاري: (٤٦٧)؛ صحيح مسلم: (٢٥٨٥).
(٢) صحيح مسلم: (٢٥٨٦).
(٣) سورة القصص، آية: [٧٨].
(٤) الحاكم في المستدرك: (٨٣٧١).
(٥) الطبراني في الأوسط: (١٠٨٦).

سَأَلْتُ عَنْهُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ لِلسَّاعَةِ مِنْ عِلْمٍ تُعْرَفُ بِهِ السَّاعَةُ؟ فَقَالَ لِي: «يَا ابْنَ مَسْعُودٍ، إِنَّ لِلسَّاعَةِ أَعْلامًا، وَإِنَّ لِلسَّاعَةِ أَشْرَاطًا، أَلا وَإِنَّ مِنْ أَعْلامِ السَّاعَةِ وَأَشْرَاطِهَا أَنْ يَكُونَ الْوَلَدُ غَيْظًا، وَأَنْ يَكُونَ المَطَرُ قَيْظًا، وَأَنْ تَفِيضَ الأَشْرَارُ فَيْضًا، يَا ابْنَ مَسْعُودٍ إِنَّ مِنْ أَعْلامِ السَّاعَةِ وَأَشْرَاطِهَا أَنْ يُصَدَّقَ الْكَاذِبُ، وَأَنْ يُكَذَّبَ الصَّادِقُ، يَا ابْنَ مَسْعُودٍ، إِنَّ مِنْ أَعْلامِ السَّاعَةِ وَأَشْرَاطِهَا أَنْ يُؤْتَمَنَ الخَائِنُ، وَأَنْ يُخَوَّنَ الأَمِينُ، يَا ابْنَ مَسْعُودٍ، إِنَّ مِنْ أَعْلامِ السَّاعَةِ وَأَشْرَاطِهَا أَنْ تَوَاصَلَ الأَطْبَاقُ، وَأَنْ تَقَاطَعَ الأَرْحَامُ، يَا ابْنَ مَسْعُودٍ، إِنَّ مِنْ أَعْلامِ السَّاعَةِ وَأَشْرَاطِهَا أَنْ يَسُودَ كُلَّ قَبِيلَةٍ مُنَافِقُوهَا، وَكُلَّ سُوقٍ فُجَّارُهَا، يَا ابْنَ مَسْعُودٍ، إِنَّ مِنْ أَعْلامِ السَّاعَةِ وَأَشْرَاطِهَا أَنْ تُزَخْرَفَ المَسَاجِدُ، وَأَنْ تُخَرَّبَ الْقُلُوبُ، يَا ابْنَ مَسْعُودٍ، إِنَّ مِنْ أَعْلامِ السَّاعَةِ وَأَشْرَاطِهَا أَنْ يَكُونَ المُؤْمِنُ فِي الْقَبِيلَةِ أَذَلَّ مِنَ النَّقْدِ، يَا ابْنَ مَسْعُودٍ، إِنَّ مِنْ أَعْلامِ السَّاعَةِ وَأَشْرَاطِهَا أَنْ يَكْتَفِيَ الرِّجَالُ بِالرِّجَالِ وَالنِّسَاءُ بِالنِّسَاءِ، يَا ابْنَ مَسْعُودٍ، إِنَّ مِنْ أَعْلامِ السَّاعَةِ وَأَشْرَاطِهَا أَنْ تَكْثُفَ المَسَاجِدُ وَأَنْ تَعْلُوَ المَنَابِرُ، يَا ابْنَ مَسْعُودٍ، إِنَّ مِنْ أَعْلامِ السَّاعَةِ وَأَشْرَاطِهَا أَنْ يُعْمَرَ خَرَابُ الدُّنْيَا، وَيُخْرَبَ عِمْرَانُهَا، يَا ابْنَ مَسْعُودٍ، إِنَّ مِنْ أَعْلامِ السَّاعَةِ وَأَشْرَاطِهَا أَنْ تَظْهَرَ المَعَازِفُ، وَتُشْرَبَ الخُمُورُ، يَا ابْنَ مَسْعُودٍ، إِنَّ مِنْ أَعْلامِ السَّاعَةِ وَأَشْرَاطِهَا شُرْبَ الخُمُورِ، يَا ابْنَ مَسْعُودٍ، إِنَّ مِنْ أَعْلامِ السَّاعَةِ وَأَشْرَاطِهَا الشُّرَطُ وَالْغَمَّازُونَ وَاللَّمَّازُونَ، يَا ابْنَ مَسْعُودٍ، إِنَّ مِنْ أَعْلامِ السَّاعَةِ وَأَشْرَاطِهَا أَنْ يَكْثُرَ أَوْلادُ الزِّنَى».

قُلْتُ: أَبَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ، وَهُمْ مُسْلِمُونَ؟ قَالَ: نعَمْ، قُلْتُ: أَبَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ، وَالْقُرْآنُ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِمْ؟ قَالَ: نعَمْ، قُلْتُ: أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، وَأَنَّى ذَاكَ؟ قَالَ: يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يُطَلِّقُ الرَّجُلُ الْمَرْأَةَ، ثُمَّ يَجْحَدُ طَلاقَهَا فَيُقِيمُ عَلَى فَرْجِهَا، فَهُمَا زَانِيَانِ مَا أَقَامَا[1].

وروى أَبو ذرّ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَهُ: «يَا أَبَا ذَرٍّ، كَيْفَ أَنْتَ إِذَا كُنْتَ فِي

(١) الطبراني في الكبير: (١٠٥٥٦)، والأوسط: (٤٨٦١)؛ مجمع الزوائد: (٧/ ٣٢٣).

**حُثَالَةٍ**»؟ وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابعِهِ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَمَا تَأْمُرُنِي؟ قَالَ: «**اصْبِرْ، اصْبِرْ، اصْبِرْ! خَالِقُوا النَّاسَ بِأَخْلاقِهِمْ، وَخَالِفُوهُمْ فِي أَعْمَالِهِمْ**»(١).

وقال أبوذر رضي الله عنه: قالَ رَسُول اللهِ ﷺ: «**إِذَا اقْتَرَبَ الزَّمَانُ كَثُرَ لُبْسُ الطَّيَالِسَةِ**(٢)**، وَكَثُرَتِ التِّجَارَةُ، وَكَثُرَ المَالُ، وَعَظُمَ رَبُّ المَالِ بِمَالِهِ، وَكَثُرَتِ الْفَاحِشَةُ، وَكَانَتْ إِمَارَةُ الصِّبْيَانِ، وَكَثُرَ النِّسَاءُ، وَجَارَ السُّلْطَانُ، وَطُفِّفَ فِي المِكْيَالِ وَالمِيزَانِ، وَيُرَبِّي الرَّجُلُ جِرْوَ كَلْبٍ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يُرَبِّيَ وَلَدًا لَهُ، وَلا يُوَقَّرُ كَبِيرٌ، وَلا يُرْحَمُ صَغِيرٌ، وَيَكْثُرُ أَوْلادُ الزِّنَا، حَتَّى أَنَّ الرَّجُلَ لَيَغْشَى المَرْأَةَ عَلَى قَارِعَةِ الطَّرِيقِ، فَيَقُولُ أَمْثَلُهُمْ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ: لَوِ اعْتَزَلْتُمَا عَنِ الطَّرِيقِ، وَيَلْبَسُونَ جُلُودَ الضَّأْنِ عَلَى قُلُوبِ الذِّئَابِ، أَمْثَلُهُمْ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ المَدَاهِنُ**»(٣).

ويقول ﷺ: «**يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَتَبَاهَوْنَ بِالْمَسَاجِدِ، لاَ يَعْمُرُونَهَا إِلاَّ قَلِيلاً**»(٤)، ويقول ﷺ: «**يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَتَحَلَّقُونَ فِي مَسَاجِدِهِمْ، وَلَيْسَ هِمَّتُهُمْ إِلاَّ الدُّنْيَا، لَيْسَ للهِ فِيهِمْ حَاجَةٌ، فَلا تُجَالِسُوهُمْ**»(٥)، وبعد أن نصل إلى الحد الذي ليس لله فيه حاجة إلى الجالسين في المساجد، وليس فقط أولئك الذين في أماكن اللهو والمجون، تظهر الطامة الكبرى وهي الشذوذ الجنسي، كما جاء في حديث ابن مسعود: «**مِنْ أَعْلامِ السَّاعَةِ وَأَشْرَاطِهَا أَنْ يَكْتَفِيَ الرِّجَالُ بِالرِّجَالِ، وَالنِّسَاءُ بِالنِّسَاءِ**»(٦).

ومن الفساد أن يتكلم الناس بأمور الخير، ولكن يمتنعون عن فعلها، وأن ينتشر فيهم ما كتب بأقلام الدجالين والمضللين، فلا يجد من ينكره ويرده.

---

(١) الطبراني في الأوسط: (٤٨٦٠)؛ الحاكم في المستدرك: (٥٤٦٤).

(٢) **الطيلسان**: غطاء للرأس كان يلبس فوق العمامة، والآن يلبس بدون عمامة في دول الجزيرة العربية وأجزاء من العراق والشام وفلسطين.

(٣) الحاكم في المستدرك: (٥٤٦٤). و(**الْـمُـداهَنَـةُ**): اظهَارُ خِلافِ ما يُضْمَرُ.

(٤) صحيح ابن خزيمة: (١٣٢١)؛ مصنف ابن أبي شيبة: (٣١٤٦).

(٥) الحاكم في المستدرك: (٧٩١٦).

(٦) جزء من حديث سبق تخريجه ص١٠٢ من الكتاب.

قال عليه الصلاة والسلام: «مِنَ اقْتِرَابِ السَّاعَةِ، أَنْ تُرْفَعَ الأَشْرَارُ، وَتُوضَعَ الأَخْيَارُ، وَيُفْتَحَ الْقَوْلُ، وَيُخْزَنَ الْعَمَلُ، وَيُقْرَأَ بِالْقَوْمِ الْمُثَنَّاةُ، لَيْسَ فِيهِمْ أَحَدٌ يُنْكِرُهَا»، قِيلَ: وَمَا الْمُثَنَّاةُ؟ قَالَ: «مَا اكْتُتِبَتْ سِوَى كِتَابِ الله»[1].

وقال ﷺ لأصحابه: «أَنْتُمُ الآنَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ، تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ، وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ الله، ثُمَّ تَظْهَر فِيكُمُ السَّكْرَتَانِ: سَكْرَةُ الْعَيْشِ، وَسَكْرَةُ الجَهْلِ، وَسَتُحَوَّلُونَ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ، يَفْشُو فِيكُمْ حُبُّ الدُّنْيَا، فَإِذَا كُنْتُمْ كَذَلِكَ لَمْ تَأْمُرُوا بِالْمَعْرُوفِ، وَلَمْ تَنْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَمْ تُجَاهِدُوا فِي سَبِيلِ الله، وَالقَائِمُونَ يَوْمَئِذٍ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فِي السِّرِّ وَالْعَلاَنِيَةِ هُمُ السَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ»[2].

وقد سمَّى النبي ﷺ حب الدنيا «سكرة»، ولا يكون حب الدنيا إلا مع الجهل، فالجهل إذاً هو السكرة الأخرى. إلى ماذا يؤدي حب الدنيا؟ ليس إلا إلى المصائب والكوارث. فإن حب الدنيا والبعد عن الدين والفضائل والأخلاق يؤدي إلى انتشار المعاصي والموبقات، واندثار محاسن الأعمال، وكل ذلك يؤدي إلى خراب القلوب.

يقول ﷺ: «تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ؛ عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا، فَلاَ تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ، وَالآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا لاَ يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلاَ يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلاَّ مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ»[3].

---

(١) الحاكم في المستدرك: (٨٦٦٠، ٨٦٦١).

(٢) البزار: (٢٦٣١)؛ الحكيم الترمذي في نوادر الأصول: (٢/ ٣٣٠)؛ أبونعيم في حلية الأولياء: (٨/ ٤٨).

(٣) صحيح مسلم: (١٤٤).

**معنى الحديث:** أن الفتن لا زالت تظهر للقلوب، فتنة تلو الأخرى، فالقلب الذي ينكرها يتنور بإنكاره لها مرة بعد مرة، حتى يغلب عليه النور فلا تضره بعد ذلك فتنة. أما القلب الذي يستقبلها مرة بعد مرة فيسود ويظلم حتى يغلب عليه السواد ويصير غير قادر على التمييز بين الحق والباطل، بل يصبح منكوسًا رأسًا على عقب، فلا يقبل إلا ما وافق هواه ونفسه الأمارة بالسوء.

فعندما ينتشر الجهل ويستهان بالعلم والعلماء، وتظهر الفواحش والظلم وتطفيف الكيل والميزان، تزداد الفتن والكوراث الطبيعية والأمراض والحروب والقتل، وينتصر الكفار على المسلمين، ويستذلوهم، ولا يقاومهم المسلمون، ولا يجاهدونهم، ولكن بدلاً من ذلك يبغي كل منهم على أخيه، ويقتل بعضهم بعضًا.

يقول ﷺ: «**لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقْبَضَ الْعِلْمُ، وَتَكْثُرَ الزَّلاَزِلُ، وَيَتَقَارَبَ الزَّمَانُ، وَتَظْهَرَ الْفِتَنُ، وَيَكْثُرَ الْهَرْجُ**»[1]، إن الكوارث الطبيعية مثل الزلازل تزداد، وكذلك الرياح العنيفة المدمرة ويقال لها في الحديث الرياح الحمراء، ثم الخسف وهو ابتلاع الأرض، والمسخ وهو تغيير خلقة الله وهو حادث الآن على صورة التشوهات التي تحدث في الأجنة نتيجة للأدوية والإشعاعات الذرية وتلوث البيئة، وأخبارها وصورها في الصحف ووسائل الإعلام.

ويقول ﷺ: «**إِذَا فَعَلَتْ أُمَّتِي خَمْسَ عَشْرَةَ خَصْلَةً حَلَّ بِهَا الْبَلاَءُ**». فَقِيلَ: وَمَا هُنَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «**إِذَا كَانَ الْمَغْنَمُ دُوَلاً، وَالأَمَانَةُ مَغْنَمًا، وَالزَّكَاةُ مَغْرَمًا، وَأَطَاعَ الرَّجُلُ زَوْجَتَهُ، وَعَقَّ أُمَّهُ، وَبَرَّ صَدِيقَهُ، وَجَفَا أَبَاهُ، وَارْتَفَعَتِ الأَصْوَاتُ فِي الْمَسَاجِدِ، وَكَانَ زَعِيمُ الْقَوْمِ أَرْذَلَهُمْ، وَأُكْرِمَ الرَّجُلُ مَخَافَةَ شَرِّهِ، وَشُرِبَتِ الْخُمُورُ، وَلُبِسَ الْحَرِيرُ وَاتُّخِذَتِ الْقَيْنَاتُ وَالْمَعَازِفُ، وَلَعَنَ آخِرُ هَذِهِ الأُمَّةِ أَوَّلَهَا، فَلْيَرْتَقِبُوا عِنْدَ ذَلِكَ رِيحًا حَمْرَاءَ أَوْ خَسْفًا وَمَسْخًا**»[2]، واتخاذ الأمانة مغنمًا يذكرنا بشركات توظيف الأموال وأنواع أخرى من المشروعات التي تجمع فيها الأموال بقصد استثمارها ثم يسافر بها أحدهم إلى الخارج فلا يعود ولا يبقى له أثر.

وإن سوء الأعمال والنيات من الأسباب المباشرة لجلب البلاء كالقحط والظلم وكساد الأسواق والهزيمة أمام الأعداء.

---

(١) صحيح البخاري: (٩٨٩)؛ مسند الإمام أحمد: (١٠٨٧٥).
(٢) سنن الترمذي: (٢٢١٠).

يقول ﷺ: «**إِذَا أَبْغَضَ الْمُسْلِمُونَ عُلَمَاءَهُمْ، وَأَظْهَرُوا عِمَارَةَ أَسْوَاقِهِمْ، وَتَنَاكَحُوا عَلَى جَمْعِ الدَّرَاهِمِ، رَمَاهُمُ اللهُ ﷻ بِأَرْبَعِ خِصَالٍ: بِالْقَحْطِ مِنَ الزَّمَانِ، وَالجَوْرِ مِنَ السُّلْطَانِ، وَالخِيَانَةِ مِنْ ولاةِ الأَحْكَامِ، وَالصَّوْلَةِ مِنَ الْعَدُوِّ**»(١)، أي أن حرص المسلمين على الدنيا وانكبابهم عليها وتنافسهم على حطامها، مع بغض العلماء الذين يذكرونهم بالآخرة والفضيلة، يؤدي إلى أن يبتليهم ربهم بالفقر الذي هو عين ما كانوا يخشونه، وتسليط السلطان وعمّاله عليهم من الداخل، فيظلمهم الحكام والقضاة، وأعدائهم عليهم من الخارج فينتصرون عليهم.

ويقول ﷺ: «**ما سخط الله ﷻ على أمة إلا غلا أسعارها، وأكسد أسواقها، وأكثر فسادها، واشتد جور سلطانها؛ فعند ذلك لا يزكي أغنياؤها، ولا يعف سلطانها، ولا يصلي فقراؤها**»(٢)، وهنا يجب علينا أن نقف وقفة نتدبر فيها معنى هذا الحديث، فنفهم أن غلاء الأسعار وتضخم العملات وكساد التجارات وظلم الحكام، وإن كانت له أسباب دنيوية معروفة، إلا أن السبب الأكبر الذي تتحرك به الأسباب الأخرى إنما هو سخط الله ﷻ. وعلى ذلك يبدأ العلاج بالسعي في رضا الله ﷻ ثم الأخذ بالأسباب المعتادة بعد ذلك. وإن من أسباب سخط الله أن لا يزكي الأغنياء، فيزداد الفقراء فقرًا، ولا يعف السلطان، فيزداد للشعب ظلمًا، ولا يصلي الفقراء، فيزدادون عن الله بُعْدًا.

ويظهر ارتباط مثل هذه الأمور، التي لا يُعْلَم ارتباطها ببعضها إلا عن طريق علوم الوحي، في مثل الأحاديث التالية:

يقول ﷺ: «**إِذَا ظَهَرَ الزِّنَا وَالرِّبَا فِي قَرْيَةٍ، فَقَدْ أَحَلُّوا بِأَنْفُسِهِمْ عَذَابَ اللهِ**»(٣).

---

(١) سبق تخريجه ص٥٣ من الكتاب.

(٢) الفردوس بمأثور الخطاب، عن ابن عباس: (٦٢٧٧).

(٣) الحاكم في المستدرك: (٢٢٦١)؛ الطبراني في الكبير: (٤٦٠)؛ البيهقي في شعب الإيمان: (٥٥٣١).

ويقول ﷺ: «يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ، خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ، وَأَعُوذُ بِاللهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ:

(١) لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلاَّ فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلاَفِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا،

(٢) وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلاَّ أُخِذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمُؤْنَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ،

(٣) وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلاَّ مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ، وَلَوْلاَ الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا،

(٤) وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلاَّ سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ،

(٥) وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللهِ وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللهُ إِلاَّ جَعَلَ اللهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ»[١].

وفي رواية: «خَمْسٌ بِخَمْسٍ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا خَمْسٌ بِخَمْسٍ؟ قَالَ:

(١) «مَا نَقَضَ قَوْمٌ الْعَهْدَ إِلا سُلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوُّهُمْ،

(٢) وَمَا حَكَمُوا بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللهُ إِلا فَشَا فِيهِمُ الْفَقْرُ،

(٣) وَلا ظَهَرَتْ فِيهِمُ الْفَاحِشَةُ إِلا فَشَا فِيهِمُ الْمَوْتُ،

(٤) وَلا طَفَّفُوا الْمِكْيَالَ إِلا مُنِعُوا النَّبَاتَ وَأُخِذُوا بِالسِّنِينَ،

(٥) وَلا مَنَعُوا الزَّكَاةَ إِلا حُبِسَ عَنْهُمُ الْقَطْرُ»[٢].

يستنتج من هذين الحديثين أنه إذا أعلن قوم بالفاحشة، وهي الزنا، فشت فيهم الأمراض التي لم تكن معروفة لآبائهم، وزاد الموت، ويفهم مما سبق من أحاديث أنه يزداد أيضًا موت الفجاءة.

وإذا غشوا في الكيل والميزان، جرّ ذلك عليهم النقص في المحاصيل والثمرات وجور الحكام عليهم، إذا منعوا الزكاة، منع عنهم المطر.

---

(١) سنن ابن ماجه: (٤٠١٩).

(٢) الطبراني في الكبير: (١٠٩٩٢). (السنين): أي المجاعات.

وإذا حكموا بغير ما أنزل الله، اشتد عليهم الأمر بالفقر والفتن فيما بينهم.

أما تسليط العدو الخارجي على المسلمين فيكون نتيجة ردة فعل كونية نتيجة لخيانتهم الأمانة ونقضهم عهد الله ورسوله، ذلك أنه: «**مَا نَقَضَ قَوْمٌ الْعَهْدَ إِلا سُلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوُّهُمْ**» كما مرَّ معنا في الحديث السابق، ويقول ﷺ: «**وَلاَ حَكَمَ أُمَرَاؤُهُمْ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللهُ ﷻ إِلا سَلَّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوَّهُمْ، وَاسْتَفْقَدُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ**»[1]، ويقول: «**إِذَا أَبْغَضَ الْمُسْلِمُونَ عُلَمَاءَهُمْ، وأَظْهَرُوا عِمَارَةَ أَسْوَاقِهِمْ، وَتَأَلَّبُوا عَلَى جَمْعِ الدَّرَاهِمِ؛ رَمَاهُمُ اللهُ بِأَرْبَعِ خِصَالٍ: بِالْقَحْطِ مِنَ الزَّمَانِ، وَالجَوْرِ مِنَ السُّلْطَانِ، وَالخِيَانَةِ مِنْ ولاةِ الأَحْكَامِ، وَالصَّوْلَةِ مِنَ الْعَدُوِّ**»[2]، حينئذ يتغلب الأجانب على المسلمين، «**يُوْشِكُ أَنْ يَمْلأَ اللهُ أَيْدِيَكُمْ مِنَ الْعَجَمِ، ثُمَّ يَكُونُونَ أُسْدًا لاَ يَفِرُّونَ، وَيَقْتُلُونَ مُقَاتِلَتَكُمْ، وَيَأْكُلُونَ فَيْئَكُمْ**»[3].

ولقد قال ﷺ: «**يُوشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا**». فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: «**بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزِعَنَّ اللهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ المَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهَنَ!**». فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْوَهَنُ؟ قَالَ: «**حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ المَوْتِ**»[4].

لقد تبادر إلى أذهان أصحاب رسول الله ﷺ وهم أسد الله، أن هذا الذي وصفه لهم رسول الله ﷺ لا يمكنه أن يحدث إلا وهم قليل مستضعفون لقلتهم، ولكنه بَيَّن لهم حدوث ذلك وهم كثير، ولكن الأمة حينئذ تكون غثاء كغثاء السيل، والغثاء هو الزبد الطافي فوق السيل، الحامل للقاذورات والنفايات، فليس هو الماء الذي منه الفائدة وبه القوة، وليس هو حتى الزبد النظيف الخالي من النفايات. وما أكثرنا اليوم،

(١) البيهقي في شعب الإيمان: (٣٣١٥).
(٢) سبق تخريجه ص٥٣ من الكتاب.
(٣) الطبراني في الأوسط: (٥٢١٥)؛ الحاكم في المستدرك: (٨٥٦٣، ٨٥٨٤)؛ مسند البزار: (٢٣٧٠، ٢٨٨٢).
(٤) سنن أبي داود: (٤٢٩٧)؛ مسند الإمام أحمد: (٨٦٩٨، ٢٢٤٥٠).

فنحن أكثر من ألف ومائتين مليون مسلم، ولكن ليس فينا من الرجال إلا القليل. ولماذا كانت الغالبية كغثاء السيل؟ لأن في قلوبهم الوهن، أي حب الدنيا وما يتبعه من كراهية الموت في سبيل الله.

ونتساءل مرة أخرى لماذا يجر حب الدنيا على الأمة هذه المصائب؟ لأنه كما قال النبي ﷺ: «**الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا، إِلاَّ ذِكْـرَ اللهِ وَمَا وَالاَهُ، وَعَـالِـمًا أَوْ مُـتَعَلِّمًا**»[1]، وقال عليه الصلاة والسلام: «**الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلاَّ أَمْرًا بِالمَعْرُوفِ، أَوْ نَهْيًا عَنِ المُنْكَرِ، أَوْ ذِكْرَ الله**»[2]، إن الخوض في اللعنات مما يؤدي إلي فساد الدين والأخلاق، بأن تنعكس الأولويات، فيحل الحرص والبخل مكان الكرم، والفحش والفجور مكان العفة والحياء، وسوء الظن والسفه مكان حسن الظن والحكمة، وعندئذ يعلو السافل اللئيم في المجتمع وفي أعين الناس فوق النبيل صاحب المروءة والكرم.

وكل ذلك ظاهر في قوله ﷺ: «**إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ: أَنْ يَظْهَـرَ الشُّحُّ، وَالْفُحْشُ، وَيُؤْتَمَنُ الخَائِنُ، وَيُخَوَّنُ الأَمِينُ، وَيَظْهَرُ ثِيَابٌ يَلْبَسُهَا نِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ، وَيَعْلُو التُّحوتُ الْوُعُولَ**»[3]، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْوُعُولُ، وَمَا التُّحُوتُ؟ قَالَ: «**الْوُعُـولُ: وُجُـوهُ النَّاسِ وَأَشْرَافُهُمْ، وَالتُّحُوتُ: الَّذِينَ كَانُوا تَحْتَ أَقْدَامِ النَّاسِ لاَ يُعْلَمُ بِهِمْ**»[4]، وهذا يحدث تدريجيًا مع تدهور المجتمع، وفجأة عند قيام الثورات بأنواعها، شيوعية كانت أم قومية.

---

(١) سبق تخريجه ص٨٧ من الكتاب.

(٢) سبق تخريجه ص٨٧ من الكتاب.

(٣) الطبراني في الأوسط: (٧٤٨)؛ صحيح ابن حبان: (٦٨٤٤)؛ الحاكم في المستدرك: (٨٦٤٤).

(٤) الطبراني في الأوسط: (٣٧٦٧).

# تاسعًا: التدهور من النظام إلى الفوضى

لما خلق الله سيدنا آدم عليه السلام؛ جعله نبيًا، أي خلقه على الكمال البشري، وعلَّمه الأسماء كلها، وجعله في جنة لا يجوع فيها ولا يظمأ، ولا يتعب فيها ولا يَعْرَى، ثم أنزله إلى الأرض، فكان ذلك بداية النزول الذي كتب عليه وعلى ذريته أن يتعاقبوا فيه، حتى إذا قامت الساعة قامت على شرار الناس، أي على كافر ابن كافر، وليس على الأرض يومئذ من يقول: «لا إله إلا الله!».

وخلق سيدنا آدم عليه السلام على الفطرة، وهي الميزان الذي وضعه الحق سبحانه وتعالى للأشياء، وهو النظام الكامل والجمال، والانسجام والصفاء فيما بينه وبين نفسه، وفيما بينه وبين الكائنات حوله. وكلما بَعُدَ الإنسان عن الفطرة زادت فيه وفيما حوله أضدادها، وهي الفوضى التي هي عكس النظام، والنشاز الذي هو عكس الانسجام، والقبح الذي هو عكس الجمال، والتشويش الذي هو عكس الصفاء. وكلما كان الإنسان أقرب إلى الفطرة، أي إلى أصله الذي على هيئة آدم عليه السلام كان أقرب إلى الله. وكمال الآدمية هو الهيئة المحمدية، فكلما كان الإنسان محمديًا في الصفات والأخلاق كان أقرب إلى الله عز وجل.

قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ۝ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾[1]، فالمقربون الذين هم على الفطرة كانوا هم الأكثرية في أول الزمان، وكان قابيل قاتل أخيه وأمثاله هم الاستثناء. ولم يزل الجنس البشري في هبوط منذ أهبط أبوهم آدم حتى زمن سيدنا

(١) سورة الواقعة، الآيات: [١٠-١٥].

نوح عليه السلام، فظهر لأول مرة على وجه الأرض الكفر، فإن في الأثر أن أول نبي بعث إلى قوم كفروا كان نوحاً عليه السلام، أما من قبله من الأنبياء والرسل عليهم السلام فكانوا يُرْسَلُون إلى أقوام انحرفوا عن الصراط المستقيم، ولكنها كانت انحرافات لم تبلغ مبلغ الكفر.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كَانَ بَيْنَ نُوحٍ وَآدَمَ عَشَرَةُ قُرُون، كُلُّهُمْ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الحَقِّ، فَاخْتَلَفُوا فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ»[1]، ولذلك يقول القرآن: ﴿**كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً**﴾ أي قبل زمن نوح عليه السلام ﴿**فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ**﴾[2]، أي أرسل الأنبياء بالكتب بعد أن كفر قوم نوح، وتفرَّق الناس، واختلفوا. ثم لم يزل الشر يزداد والخير يقل منذ ذلك الزمان، فيأتي الرسول أو النبي فيتوقف التدهور، ويظهر نور الإيمان، وينتشر الخير، ثم لا يلبث بعد وفاة ذلك النبي أن يبدأ التدهور ثانية حتى ينتهي الأمر، بعد ظهور البدع والانحرافات، إلى اندثار ذلك الدين حتى لا يبقى له ذكر، أو يظل أهله في انحطاط حتى يعبدوا الأصنام، أو ينسخ بشريعة جديدة يأتي بها رسول جديد.

أما عن زمن النبي صلى الله عليه وسلم فقد قال تعالى في الحديث القدسي: «**وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ**»، أي على الفطرة، على دين آدم، يميلون بطبعهم إلى الحق، «**وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ**»، أي أمالتهم عن الحق، «**وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ**»، أي أغرتهم بتبديل شرع الله الذي كان في وقتهم، «**وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا**»، ثم بعد أن جرتهم إلى المعاصي، أغرتهم بما هو أخطر وهو الشرك، «**وَإِنَّ اللهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ**»؛ لأن أكثرهم في زمن النبي صلى الله عليه وسلم كانوا قد كفروا، «**عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ**»، في بلاد العرب وغيرها، «**إِلاَّ بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ**»[3]، أي لم تزل بقية من اليهود والنصارى على دينهم الحق لم يبدلوا فيه.

(١) الحاكم في المستدرك: (٣٦٥٤، ٤٠٠٩)، الطبري في التفسير: (٢/ ٣٣٤).
(٢) سورة البقرة، آية: [٢١٣].
(٣) صحيح مسلم: (٢١٩٧).

لذلك فإن كل أمة من الأمم تبدأ ببعث النبي فيهم، فيكون فيها كثير من السابقين المقربين، وقلة من ضعاف الإيمان والمنافقين، ثم يمر عليها الزمان، فيقل المقربون وتزداد الحثالة التي هي كحثالة التمر أو الشعير. وهكذا تكون بداية النهاية، فإن كل أمة إنما هي صورة مصغرة لبداية الجنس البشرى بأكمله، وتمر بأطوار تشابه أطواره. كذلك في داخل كل أمة يبعث الله لهم كل حين من يُجَدِّد لهم دينهم، وهؤلاء كانوا في بني إسرائيل أنبياء، بينما هم في أمة خاتم النبيين علماء، فتقل سرعة التدهور برهة بسبب هؤلاء الْمُجَدِّدين، ثم لا تلبث أن تزداد ثانية حتى يخرج الْمُجَدِّد التالي، فهذه الأمور تعيد بصورة أصغر ما يحدث للبشرية ككل، ولكل دين على حدة.

والسابقون المقربون هم الذين تكون أرواحهم قوية، وتكون نفوسهم وأجسامهم خاضعة لها، فأمورهم تتبع النظام الإلهي، ونفوسهم فيها انسجام داخلي، ليس فيهم شيء يكدر صفوهم ويشوش عليهم. وكذلك تكون دنياهم كلها بركة، فالأرض تخرج زرعها رغدًا وبمجهود قليل، والأمراض قليلة، والأعمار طويلة، وليس بين البشر وبعضهم إلا الود والتآلف والتراحم، فالبيئة مستقرة منظمة، والأوضاع الاجتماعية منتشر فيها الوئام على ما يرضي الله من صلة أرحام، وحُسْن جوار، وعطف القوي على الضعيف، والْمُكْثِر على الْمُقِل.

ثم مع تدهور الزمان تزداد الفوضى ويقل النظام، ويختل ميزان الأمور الظاهرة والباطنة، ولا يزال الخلل في ازدياد حتى يصل إلى ذروته عند قيام الساعة، عندئذ يصل الأمر إلى أن يختلّ نظام الكواكب فتخرج عن مداراتها، ويختل نظام الأرض فتفور البحار وتزول الجبال وتعم الفوضى كل شيء، حتى إذا وصلت الفوضى إلى ذروتها أعادت القدرة الإلهية النظام، فتبدل الأرض غير الأرض، وحينئذ يحدث البعث والنشور، وتبدأ أحداث يوم القيامة، وتستمر حتى تبلغ غايتها، فيظهر نظام آخر يفرق فيه بين الحق والباطل، وبين الخير والشر، فيوضع الخير كله في الجنة، ويوضع الشر كله في النار، بعد أن كانا في الدنيا متداخلان.

وقد بدأت هذه الأمة بالخير كله، والنور، والاستقامة، ولـذلك قـال ﷺ: «**خَـيْرُ النَّاسِ قَرْنِي..**» الحديث.

ولكن مع ذلك؛ ولأن الدنيا ليس بها ما هو صاف أو خالص، والخير والشر فيها متداخلان -كما ذكرنا-، فقد كانت بذور الفساد موجودة منذ ذلك الحين، في شخص المنافقين والمرتدين، فإن الهجوم المضاد المحتوم لقوى الشر السفلية لإعاقة انتشار النـور يشنه الكافرون من خارج الأمة، والمنافقون والمنحرفون من داخلها، وكلهم تحت إمرة إبليس، وما ذلك إلا امتداد للحرب التي شنها إبليس علـى أبينـا آدم عليه السلام، فأخرجـه وزوجه من الجنة، وتوعَّد ذريته بالغواية، وكان من أطوارهـا محـاولات القـضاء علـى النبي ﷺ وعلى دعوته، ومن أطوارها ظهور الدجاجلة والمبتدعة وأهل الأهواء وعبّاد الدينار والدرهم. فالأمر إذاً في تباعد عن النظام وازدياد من الفوضى، حتى إذا ملئت ظلمًا وجورًا بعث الله أولى العلامات الكبرى وهي المهدي عليه السلام.

ولكن كيف يكون هذا حال الأمة من التدني والفساد والله تعالى يقـول في كتابـه الكـــريم: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ**﴾(١).

والمصطفى عليه الصلاة والسلام يقول: «**أَنْـتُمْ تُوفُـونَ سَـبْعِينَ أُمَّـةً، أَنْـتُمْ خَيْرُهَـا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى**»(٢).

إن هذه الخيرية إنما هي بسبب انتماء هذه الأمة لخير البـشر ﷺ ولـذا كـان خـير القرون القرن الذي كان فيه ﷺ، ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**﴾: «هُمُ الَّـذِينَ هَـاجَرُوا مَـعَ رَسُـول اللهِ ﷺ مِـنْ مَكَّـة إِلَـى

(١) سورة آل عمران، آية: [١١٠].
(٢) سنن الترمذي: (٣٠٠١)؛ سنن ابن ماجه: (٤٢٨٨)؛ مسند الإمام أحمد: (٥/ ٣، ٥)؛ الحاكم في المستدرك: (٥٩٨٧).

الْمَدِينَة»[1]، ولفظ أمة يدل على جماعة معينة من الناس، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[2]، وقد روى ابن جرير في تفسيره أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأى من الناس أمورًا سيئة في الحج، فقرأ هذه الآية: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ في خطبة له، ثم قال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ مِنْ تِلْك الأُمَّةِ، فَلْيُؤَدِّ شَرْطَ اللهِ مِنْهَا»[3]، يعني الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وأما أهل الكتاب فاستحقوا اللعنة على لسان أنبيائهم لتركهم هذه الشعيرة. قال الله تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾[4].

وقال عُمَر بن الْخَطَّاب: «لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَقَالَ: (أَنْتُمْ)، فَكُنَّا كُلّنَا، وَلَكِنْ قَالَ: ﴿كُنْتُم﴾ فِي خَاصَّةٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَمَن صَنَعَ مِثْلَ صَنِيعِهِمْ، كَانُوا خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ»، وقَالَ: ﴿كُنْتُم خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، تَكُونُ لأَوَّلِنَا وَلا تَكُونُ لآخِرِنا».

وقال مُجَاهِد: «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، عَلَى هَذا الشَّرْطِ أَنْ تَأْمُرُوا بِالْمَعْرُوفِ، وَتَنْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ، وَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ»، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ: «كُنْتُمْ خَيْرَ النَّاسِ لِلنَّاسِ، تَجِيئُونَ بِهِمْ فِي السَّلاسِلِ تُدْخِلُونَهُمْ فِي الإِسْلاَمِ»[5].

(١) تفسير الطبري: (٤/ ٤٣).
(٢) سورة آل عمران، آية: [١٠٤].
(٣) تفسير الطبري: (٤/ ٤٣).
(٤) سورة المائدة، آية: [٧٨، ٧٩].
(٥) تفسير الطبري: (٤/ ٤٣).

أما فيما بعد القرون الأولى، فالمتبادر إلى الذهن أنهم أولئك الذين تصدوا للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبث العلوم الشرعية في الأمة، فأولئك هم خير أمة أخرجت للناس. وهم الذين تظل خيرية هذه الأمة منوطة بهم، وهم الذين قال عنهم المصطفى ﷺ: «**مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَاللهُ الْمُعْطِي وَأَنَا الْقَاسِمُ، وَلاَ تَزَالُ هَذِهِ الأُمَّةُ ظَاهِرِينَ عَلَى مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ**»(١).

ومعلوم أن الأمة لا تظل قائمة على الحق بأكملها، ولكن يفعل ذلك طائفة منها، كما تذكر أحاديث شتى، وقد أوضح البخاري أن قول النبي ﷺ: «**لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الحَقِّ**»، المقصود به: أَهْلُ الْعِلْمِ(٢).

وفي إحدى روايات مسلم: «**لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الحَقِّ ظَاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**»(٣)، وفي رواية أخرى عنده: «**مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَلاَ تَزَالُ عِصَابَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُقَاتِلُونَ عَلَى الحَقِّ، ظَاهِرِينَ عَلَى مَنْ نَاوَأَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**»(٤).

قال الإمام النووي: «ويحتمل أن هذه الطائفة مفرقة بين أنواع المؤمنين، منهم شجعان مقاتلون، ومنهم فقهاء، ومنهم مُحَدِّثون، ومنهم زُهَّاد، وآمرون بالمعروف وناهون عن المنكر، ومنهم أهل أنواع أخرى من الخير. ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين، بل قد يكونون متفرقين في أقطار الأرض»(٥).

إن هذه الأمة خير الأمم؛ لأن قائدها خير خلق الله أجمعين ﷺ؛ ولأن جيل الصحابة ﷺ لا يدانيه جيل ظهر على وجه الأرض؛ ولأن دأب خيار الأمة الأمر

(١) صحيح البخاري: (٢٩٤٨).
(٢) صحيح البخاري: (٦٨٨١).
(٣) صحيح مسلم: (١٥٦).
(٤) صحيح مسلم: (١٠٣٧).
(٥) شرح صحيح مسلم للإمام النووي، باب قَوْلِهِ ﷺ: «**لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الحَقِّ.. الخ**». (شرح حديث رقم ١٠٣٧).

بالمعروف والنهي عن المنكر؛ ولأن هذه الشعيرة باقية في فئة منهم مهما قَلَّت إلى يوم القيامة. ولكن هذا لا يمنع من أن يظهر في آخرين من الأمة الفساد والفوضى.

أما عن حتمية التدهور فيقول ابن جرير الطبري في تفسيره: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [سورة المائدة، آية:٣] وَذَلِكَ يَوْمُ الْحَجِّ الأَكْبَرِ، بَكَى عُمَرُ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا يُبْكِيكَ»؟ قَالَ: أَبْكَانِي أَنَّا كُنَّا فِي زِيَادَةٍ مِنْ دِينِنَا، فَأَمَّا إِذ كَمُلَ فَإِنَّهُ لَمْ يَكْمُلْ شَيْءٌ إِلاَّ نَقَصَ، فَقَالَ: «صَدَقْتَ»[1]، هكذا فهم عمر رضي الله عنه أنه بعد الوصول إلى القمة فما ثم إلا الهبوط.

وإذا عدنا الآن إلى الحديث الذي يصف الدنيا في آخر الزمان بأنها ملئت ظلمًا وجورًا لوجدنا أن معناه الطغيان في موازين كل شيء، وعموم الفوضى حتى تشمل جميع نواحي الحياة.

**فمن مظاهر الفوضى السياسية:** أن الكِتَابَ والسلطان افترقا، فالحكام يحكمون بغير الشريعة المحمدية، ويكون لهم بطانة سوء تزين لهم الظلم، والطغيان، والاستيلاء على أموال الناس، والكذب عليهم بالتصريحات المنمقة.

ويتقاتل أمثال هؤلاء على الحكم فتكثر الانقلابات والصراعات الداخلية، ويحبون السلطة للسلطة والدنيا والشهوات، فيصيبهم الجبن والخوف وكراهية الموت والرغبة في الاحتفاظ بالسلطة بأي ثمن، ويكون بأسهم بينهم شديد، إلا أنهم ينهزمون أمام الكفار في كل موقعة.

**ومن مظاهر الفوضى الدينية:** أن العلم الديني يذهب بذهاب العلماء العاملين، ويكثر من يتعلَّم العلم للدنيا ولِمُداهنة الحكام، وإذا ذكر العلم لم يقصد به إلا العلم الدنيوي، والعلم الدنيوي يخدم الجسم بينما العلم الديني يخدم الروح، فالعلم الديني دائمًا مقدَّم، ولكنه في آخر الزمان يهمل، ولا يحترم من يحمله من

(١) تفسير الطبري: (٩/ ٥١٩).

العلماء، ولا يسمع لهم، ويفتي كل ذي جهل في الدين، أي يتكلم الرويبضة، وهم الجهلاء الذين يسمحون لأنفسهم بالفتوى في كل أمر جسيم، فيملأون وسائل الإعلام جهلاً وتضليلاً..

**فحينئذ:** «يكذب الصادق ويصدق الكاذب»، ويفشو «إعجاب كل ذي رأي برأيه» ويظهر أناس «همهم بطونهم، ودينهم دراهمهم ودنانيرهم، وقبلتهم نساؤهم، يأكلون أنواع الطعام، ويشربون ألوان الشراب، ويلبسون أنواع الثياب، ويتشدقون في الكلام»، «ويفشو القلم» أي ينتشر انتشارًا كبيرًا، وهو وإن كان وسيلة علم إلا أنه يصحبه زيادة في الجهل، ويزخرف الناس مساجدهم وقلوبهم خربة، أي يهتمون بالظاهر ويهملون الباطن، أي يعكسون ترتيب الأولوية، ولا يزال هذا الأمر في زيادة حتى يصلي الكثير وليس في قلب أحدهم شيء من الإيمان.

**ومن مظاهر الفوضى الاجتماعية:** أن ترفع التحوت وتوضع الوعول، أي ترفع الأشرار وتوضع الأخيار، وأن لا يوقر الصغير الكبير، ولا يرحم الكبير الصغير، وتتقطع الأرحام، ويفشو سوء الجوار في البيوت وفي الشوارع وفي أماكن العمل، ويصبح الولد غيظًا أي يكون عاقًا يفضل أصدقاءه على والديه ويجوب الشوارع باحثًا عن الموبقات، ويستخدم المخدرات، وأصبح الناس لا يسلمون إلا على من يعرفون، ولا يحترمون إلا صاحب المال والجاه لا صاحب العلم والتقوى، ومن مظاهر الفوضى أيضًا ظهور المغنيات الخليعات، والحفلات الموسيقية الماجنة الصاخبة، وكثرة الطلاق.

**ومن مظاهر الفوضى الأخلاقية:** أن يكثر الزنا، وأولاد الزنا، وشرب الخمر، والمجاهرة بها في الشوارع، والربا، والرشوة، وتتخذ الأمانة مغنمًا، وقد بينَّا كيف أن هذا ينطبق تمامًا على شركات الأموال، وينتشر تطفيف الكيل والميزان، وهذا مشاهد اليوم بكثرة في الأسواق، وكذلك الكذب، وعدم الالتزام بالعهود أي العقود المبرمة كمعاملات تجارية وصناعية وخلافهما، وشهادة الزور، وتَشَبُّه الرجال بالنساء، فيلبسون الملابس الضيقة الملونة، ويذهبون إلى الكوافير، وتَشَبُّه النساء بالرجال

فيلبسون البنطلونات، ويقصون شعورهن كالرجال، ويركبن على سروج كأشباه الرجال، أي يقدن السيارات، ويلبسن الملابس الشفافة الضيقة، «كاسيات عاريات»، ويختلطن بالرجال في التجارة وفي الأعمال والأسواق.

**ومن مظاهر الفوضى الفكرية:** أن تنتشر في القوم المثناة، أي ما كتب سوى كتاب الله، أي انتشار الأفكار المستوردة والأيديولوجيات الغربية التي ما كان لها أن تنتشر في بلاد المسلمين إلا بسبب بُعْدهم عن الدين وعلماء الدين والانبهار بالغرب وحضارته المادية الشهوانية البراقة، فأصبح الناس «قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الأَعَاجِمِ، وَأَلْسِنَتُهُمْ أَلْسِنَةُ الْعَرَبِ»، فلا يحترمون إلا الخواجة، ولا يصدقون إلا الكفرة، ولا يثقون إلا بهم، ولا يستشيرون غيرهم، ونعود هنا إلى إعجاب كل ذي رأي برأيه، وانتشار إفتاءات الرويبضة في جميع أمور الأمة. ويكون ترتيب الأولويات معكوسًا، فتقدم المصلحة العاجلة التافهة على المصلحة المؤجلة العظيمة، ويُقَدَّم العلم المادي المحدود على العلم بالله والآخرة، ويُصَدِّق المسلمون أن الزمن في تقدم، وينسون إخبار النبي ﷺ لهم أنه في تأخر، وهكذا.

**ومن مظاهر الفوضى الجسدية:** أن تظهر الأوجاع التي لم تكن معروفة من قبل، مثل الإيدز، وتنتشر تلك التي كانت معروفة من قبل كأنواع الأورام الخبيثة، ويظهر موت الفجاءة، أي بدون سبب، وقد حدث وخصوصًا في الشباب، وكذلك تزداد السمنة وينشغل كل الناس بالريجيم.

**ومن مظاهر الفوضى الحضرية:** أن تطوى الأرض بوسائل المواصلات الحديثة، ويتحرك الناس حركة محمومة عشوائية في جميع الاتجاهات وبسرعة فائقة، ويتصلون ببعضهم البعض بوسائل الاتصالات الحديثة، فيتقارب الزمان، وتتقارب الأسواق، ويتطاول الحفاة العراة في البنيان.

**ومن مظاهر الفوضى البيئية:** أن تزداد الزلازل، والكوارث الطبيعية، والرياح العاصفة، والفيضانات، ويمنع المطر، فإذا نزل لم تخرج الأرض شيئًا، وذلك بسبب



انعدام البركات وازدياد اللعنات. أما عن تلوث البيئة، فما هو إلا تخريب قلة من الجنس البشري للنظام الإلهي في خلقه، وما هو إلا مظهر من مظاهر الفوضى الشاملة حين امتدت إلى البيئة، وقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿**ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ**﴾(١)، وقد فسدت البيئة برًا وبحرًا وجوًا، وسَرَت فيها السموم، حتى في القطبين الجنوبي والشمالي، وسنأتي إلى ذلك إن شاء الله عند الحديث عن تلوث البيئة.





(١) سورة الروم، آية: [٤١].



# عاشرًا: مخاطر آخر الزمان

إن مخاطر آخر الزمان الكثيرة منها ما هو مادي كالحروب، والإرهاب، والكوارث الطبيعية، والتلوث، وهذه تهلك الأجساد، ومنها ما هو معنوي، وهذه تؤدي إلى جهنم، ويمكن تقسيم المخاطر المعنوية إلى قسمين كبيرين -كما ذكرنا من قبل-: خطر من الخارج، ألا وهوالحضارة الغربية وأفكارها الهدامة، وخطر من الداخل، ألا وهو الخوارج وأفكارهم المهلكة.

**١- الحضارة المنكوسة:**

**إطلاعة تاريخية:**

إن الحضارة الغربية حضارة مادية بحتة، قامت على أنقاض الحضارة المسيحية في أوروبا، وهي قائمة على إنكار وجود الإله البتة، والقول بأن خلق العالم والإنسان لم يكن إلا صدفة، نتيجة للتفاعلات الطبيعية العشوائية، وذلك يغنيهم عن الاعتراف بأي دين من الأديان أو الالتزام والتقيد بأي شريعة من الشرائع وقيمها المطلقة، وعدم الاعتراف إلا بالعقل البشري واجتهاداته المتغيرة.

ومن البديهي أن الأمور أعقد بكثير من هذا الملخص المبسط، فإنهم لم يصلوا إلى هذه النقطة في يوم وليلة، بل مَرّوا بمراحل وتقلبات فكرية وحضارية كثيرة، وبعضهم لم يصل بعد إلى هذه النقطة، بل لا يزال في إحدى مراحل ما قبل ذلك، ولكن هذا بدون شك الاتجاه العام الواضح، وموقف أكثر الإعلاميين الذين يصيغون عقول الشعوب، ومن لم يصل منهم إلى هذه المرحلة بعد فهو في الطريق، ومن النادر جدًا أن نرى أحدًا يسلك طريقًا آخر.

لم يكن من الممكن للأوروبيين أن يقيموا حضارة مادية بحتة إلا بعد القضاء على المسيحية، وقد تم ذلك على مراحل. وقد أصبحت المسيحية دين دولة لأول مرة في القرن الرابع الميلادي حينما اعتنقها الإمبراطور الروماني قسطنطين، الذي جمع الأساقفة في مؤتمر نيقية سنة ٣٢٥م؛ للاتفاق على عقيدة تفرض على الشعب فرضًا لحل مشكلة تعدد العقائد، إذ أن المسيحية كانت في ذلك الحين قد انقسمت إلى فرق شتى لكل منها فهمه الخاص لعقيدة التثليث، ومنها فرق على التوحيد، كانت أقوى تلك الفرق فرقة الأسقف آريوس، أسقف الإسكندرية. ودارت مناقشات عنيفة بين الفرق، ولم يتفقوا، وكاد آريوس يحوز على مساندة الإمبراطور، الذي ما لبث أن عدل إلى مساندة فرقة من فرق المثلثين، وذلك لأسباب سياسية، وبدأ فرض رأي هذه الفرقة واضطهاد الفرق الأخرى.

في ذلك الوقت كانت تسكن أكثر أوروبا قبائل همجية شرسة، كل همها الإغارة على حدود الإمبراطورية الرومانية وعلى بعضها البعض. ولم تبدأ تتكون لأوروبا شخصية متميزة إلا مع بداية الحروب الصليبية، وكان ذلك أيضًا بداية تعرفهم على الحضارة الإسلامية، ثم انفتحت لهم منافذ أخرى للاستفادة مما عند المسلمين من العلم، وذلك في الأندلس، وخصوصًا في مدينة طليطلة، وفي صقلية، ومن خلال القسطنطينية. وقد ترجم الأوروبيون مؤلفات المسلمين في شتى العلوم، وكذلك ما كان المسلمون قد ترجموه إلى العربية من علوم الإغريق، فلم يكن انتقال علوم الإغريق إلى أوروبا إلا عن طريق المسلمين.

وظل العلم مرتبطًا بالدين لقرون، فكان أكثر الفلاسفة والعلماء حينذاك من رهبان الأديرة، ثم أنشاؤا جامعات على الطراز الإسلامي، من أشهرها جامعة باريس، وكانت كلمة دكتور عندهم تعني عالم من علماء الدين المسيحي، ثم بعد قرون ومع زحف العلمانية أصبحت تطلق على أعلى الشهادات الجامعية، ثم دار الزمان وصرنا نحن الذين نقلدهم، بعد أن كانوا يقلدوننا، فقلدناهم فيها بطريقتنا المعهودة ودون النظر إلى مصدر الكلمة، فأصبح الأزهر الشريف يمنح شهادات الدكتوراه.



ازدادت تجاوزات الكنيسة مع مرور الوقت، وازداد سخط وتضجر الناس منها، وأدى ذلك إلى ظهور حركتين معارضتين، إحداهما دينية وبدأت بتمرد مارتن لوثر، والأخرى علمية دنيوية وبدأت بجاليليو. نادت حركة الإصلاح الديني بقيادة لوثر وكالفين وزويجلى بالعودة إلى الأصول ومحاربة البدع والتجاوزات الكنسية، ولكنها لم تقف عند ذلك، بل استمرت في اندفاعها حتى جردت المسيحية الأوربية من محتواها الروحي تمامًا، وتركتها مادية بحتة، وهذا هو أصل مفهوم «الأصولية» عندهم.

وكانت ردة فعل الكاثوليك عنيفة ووحشية للغاية، فقد اضطهدوا البروتستانت في بريطانيا، وقتلوهم، وعذبوهم، وأرهقوهم بالضرائب الإضافية، وذلك في عهد الملكة إليزابيث الأولى ومن بعدها. أما في فرنسا، فقد دبرت لهم الملكة الأم كاترينا دي ميديشي، مذبحة خطط لها، وتم تنفيذها ليلة عيد القديس بارثولوميوس سنة ١٥٧٢م. وقتل فيها حوالي خمسون ألف بروتستانتي.

أما الحركة العلمية، فقد اتخذت الإنسان مقياسًا لكل شيء، وأبانت التناقضات الكثيرة بين كتبهم المقدسة والاكتشافات العلمية، وجعلت لها هدفًا ظهر وتمكَّن تدريجيًا وهو النهوض بأوربا مما اعتبروه حضيض الخرافات والأساطير الدينية إلى قمم النهضة العلمية. وهكذا سموا عصرهم عصر النهضة والاستنارة، بينما في حقيقة الأمر هو العصر الذي تم فيه القضاء على بقايا الدين المسيحي في أوروبا، ووضع أسس الحضارة العلمانية اللا أخلاقية الحالية. أدى هذا من ناحية إلى زيادة قمع من قبل الكنيسة، وبالتالي زيادة تباعد الناس عنها، ومن ناحية أخرى إلى إرادة تحقيق جنة الخلد على الفور في الأرض عن طريق التقدم العلمي المادي والفلسفات الإنسانية، أي المنقطعة تمامًا عن أي وحي إلهي، ولا تعترف بالغيب ولا بالآخرة.

كان لابد أن يؤدي الضغط الفكري على الناس لتحقيق الجنة على الأرض، أي لتحصيل أكبر قدر ممكن من اللذة الجسمانية على الفور -وهو لا يزال المشروع المركزي لكل فرد في الغرب اليوم-، أدَّى ذلك إلى قيام الثورات الشعبية ضد أنظمة

الحكم الفاسدة. ولكن إلى ماذا أدت هذه النظرة المادية؟ هل أدت إلى قيام دولة العدل والرخاء والتعجيل بجنة الخلد؟ كانت أولى الثورات الكبيرة ثورة الشعب الأمريكي على الحكم البريطاني، وانتصرت الثورة، وفي سنة ١٧٨١م تحرَّرت أمريكا، وأعلنت في دستورها أن من الحقوق الأساسية المكفولة لكل إنسان أن تحترم حياته، وحريته، وحقه في السعي لتحقيق السعادة. وكان الذين أخرجوا للناس الدستور الذي يكفل هذه الحقوق أكثرهم يمتلكون العبيد.

انتصر الشعب الأمريكي وأعلن مبادئه الشهيرة، ولكنه استمر في استجلاب العبيد المخطوفين من إفريقيا كأن شيئًا لم يكن، حتى وصل عددهم إلى حوالي المليون، (بالمقارنة بثلاثة ملايين إفريقي تم ترحيلهم إلى البرازيل) وعمل هؤلاء في المزارع في أسوأ الظروف، وعوملوا معاملة البهائم. في نفس الوقت بدأت عملية طرد السكان الأصليين، الذين سموهم بالهنود الحمر، من أراضيهم، وقتلهم، وتوزيع هذه الأراضي على المستوطنين البيض من أصل أوربي. ثم اختل التوازن في الكونجرس بين ولايات الجنوب الزراعية المعتمدة على العبيد وبين الولايات الشمالية اختلالاً أدى إلى اشتعال الحرب الأهلية، في سنة ١٨٦٥م انتصر الشمال في الحرب الأهلية، وأدى ذلك إلى تحرير العبيد، ولكن مع إبقائهم تحت السيطرة الكاملة للبيض، ومنع الكثير من الحقوق المدنية عنهم، واستمر ذلك قرنًا كاملاً من الزمان، إلى أن ثار على هذا الوضع مارتن لوثر كنج وآخرين في الستينات من القرن العشرين، وقتل الكثير ومنهم كنج نفسه، وحرق الكثير على يد المنظمة الإرهابية المسماة بالكيوكلوكس كلان (ك. ك. ك.)، وسجن وعُذِّب الكثير، حتى حصل الزنوج على شيء يشبه الاعتراف لهم بالمساواة وليست المساواة الفعلية، فقد ظلوا محصورين في مناطق خاصة من المدن هي أفقر المناطق، وأقلها فرصًا للعمل وخدمات تعليمية وصحية، وأكثرها فقرًا وجريمة ومخدرات.

وما أن حررت أمريكا العبيد في أعقاب الحرب الأهلية، إلا وشرعت في إكمال ما كانت قد بدأته من إبادة الهنود الحمر والاستيلاء على أراضيهم، وأعلن كبار قادة

الجيش مرارًا أن الهنود لا يمكن اعتبارهم آدميين، ولا سبيل للتعامل معهم إلا بالإبادة، وتصريحاتهم هذه محفوظة إلى اليوم، ونشرت في المجلات والصحف القديمة والحديثة، والكتب، وحتى الأفلام.

وكانت (الثورة الفرنسية) الثانية قيامًا، وذلك سنة ١٧٩١م. بعد عودة أولئك الفرنسيين الذين قاتلوا في صف الثوار في أمريكا، وتشبعوا بالأفكار الثورية، ووجدوا عند عودتهم الجو متشبع بأفكار فلاسفة إنسانيين مثل «جان جاك روسو» و«فولتير». ساهم ذلك كله في قيام الثورة، وجعلت هذه الثورة شعارها: الحرية، المساواة، الأخوة. وباسم هذا الشعار الإنساني أزالت الثورة طبقة النبلاء من طريقها بقطع رقابهم على المقصلة. وحررت الشعب من ظلم الكنيسة بإغلاق الكنائس كافة ومنع الوعظ، وإنكار وجود الإله بالكلية. وعاش الناس ما سمي بعصر الرعب الذي بلغ ذروته حين أخذ الثوار في اتهام المخالف لهم في الرأي بالخيانة قبل قطع رقابهم تحت المقصلة.

وباسم الحرية والمساواة والأخوة انتدبت الثورة «بونابارت» لغزو مصر. ولما صار «بونابارت» الرجل القوي في فرنسا أدرك أن الفوضى التي أحدثتها الثورة لن تنتهي إلا بحكم مطلق لرجل واحد، فأعاد النظام الملكي بإعلان نفسه إمبراطورًا في سنة ١٨٠٤م، وسمَّى نفسه «نابليون الأول»، ودعا البابا لِيُتَوِّجه، ولكنه عند التتويج أخذ التاج من يده وتوَّج نفسه، ثم أخذ التاج الثاني وتوَّج زوجته، وخلق طبقة جديدة من النبلاء يساعدونه في الحكم، ووزع عليهم نفس الألقاب التي كانت لطبقة النبلاء التي هلكت تحت المقصلة.

أما الثورة الصناعية فقد أدت إلى أن بدأت الدول الأوربية تغزو سائر العالم وتكون إمبراطوريات شاسعة، فانتهبت ثروات الشعوب لتصرف على الاكتشافات الحديثة التي كان أول هدف منها توسيع الهوة بين القدرات العسكرية الأوربية وقدرات الشعوب الآسيوية والإفريقية، ثم إنشاء المصانع، والحصول على المواد الخام لتشغيلها مجانًا من المستعمرات، ثم تسويق منتجاتها في نفس هذه المستعمرات.

وأدّت هذه التطورات إلى رفع المستوى المعيشي للعامل الأوروبي، ولكن بعد وقت غير قصير، وليس بالسرعة الكافية لمنع تذمر العمال، وليس في كل أوربا، فظهر الفكر الشيوعي الذي يرى الإنسان كائنًا ماديًا لا تحركه إلا احتياجاته الجسمانية، والتاريخ يتحرك ميكانيكيًا تحت تأثير العوامل الاقتصادية، فبدأ يدعو العمال إلى انتزاع حقوقهم بالقوة والتحرك لتحقيق العدالة والمساواة لإخوانهم العمال في العالم كله. وقامت الثورة الشيوعية في روسيا، فأعدمت القيصر وأسرته، وانتصرت في الحرب الأهلية، وأقامت الدولة الشيوعية، وأنشأت الشرطة السرية، وأقامت المعتقلات، وأعدم «ستالين» الملايين، ونقل شعوبًا بأكملها من أوطانها إلى ثلوج سيبريا، وأعدم زملائه في الحزب واحدًا تلو الآخر بعد اتهامهم بالخيانة العظمى، وساد الخوف والرعب البلاد باسم العدالة والمساواة. ولما اتحدت المصلحة تحالف «ستالين»، أكثر اليساريين تطرفًا، مع «هتلر»، أكثر اليمينيين تطرفًا، ليتقاسموا بولندا، ويبيدوا أكثر الذكور الذين هم في سن حمل السلاح، خصوصًا المتعلمين منهم، وليؤمّن «هتلر» ظهره في حربه ضد أوروبا الغربية، تلك الحرب التي كان «ستالين» لا يمانع فيها، إذ كانت ستؤدي حتمًا إلى إضعاف كل أعدائه. ثم خان «هتلر» العهد وهاجم حليفه. وفي سنة ١٩٥٦م طالبت المجر باستقلالها عن الإتحاد السوفيتي، فدخلت دبابات روسيا بودابست وقمعت الثورة بوحشية، وتكرر المشهد مع تشيكوسلوفاكيا سنة ١٩٦٨م. كل ذلك باسم الشيوعية وقيمها السامية.

هذه بعض الأمثلة التاريخية لتطبيق الأوربيين للمثل الإنسانية التي ينادون بها، ويمكن القياس على ذلك.

* * *

### ٢- الأفكار الشيطانية:

تبلورت الأفكار التي دفعت بالحضارة الغربية إلى ما هي فيه الآن على مدى قرون عدة، منذ بداية ما سموه بعصر النهضة إلى اليوم. وكانت من أهم الأفكار

ظهورًا وأوسعها تأثيرًا نظرية التطور «لشارلز داروين»، ونظرية العقل الباطن «لفرويد»، ونظرية الشيوعية «لماركس».

إن الأشياء يجب أن ترجع إلى أصولها، والحرب الفكرية الدائرة اليوم بين المسلمين والكفار يرجع أصلها إلى ما دار بين إبليس وآدم، وأدى إلى قرار إبليس أن ينتقم من آدم بإضلال كل من يتمكن من إضلالهم من ذريته إلى يوم القيامة. وبدأت آنذاك الحرب بين النور والظلام، بين الهداية والغواية، بين حزب الله من الأنبياء وأتباعهم، وحزب الشيطان من إبليس وأتباعه من الإنس والجن. فكلما رأى إبليس أن نبيًا قد بُعِث، سعى لإطفاء النور الذي بُعِثَ به، وقد يلجأ إلى أسلوب التصفية الجسدية، الذي تعلمته منه فيما بعد أجهزة الاستخبارات وسائر العصابات الإجرامية في جميع دول العالم، والذي جربه مع الكثير من الأنبياء والصالحين، إلى أن جربه حين محاولة اغتيال النبي ﷺ بمكة، ثم محاولة قتله وأصحابه ببدر، ثم بأحد، ثم بالخندق. ولما فشلت تلك المحاولات، لجأ إلى استثارة المنافقين لإشعال نار الفتنة بين المسلمين، وهنا أخذت الحرب صبغة فكرية.

إن إبليس يخطط تخطيطًا طويل المدى، وله هيئة أركان حرب تشاركه في التخطيط وفي تنفيذ الخطط. وفي الحديث الشريف إشارة إلى ذلك، فقد قال النبي ﷺ: «**إِنَّ عَرْشَ إِبْلِيسَ عَلَى الْبَحْرِ، فَيَبْعَثُ سَرَايَاهُ فَيَفْتِنُونَ النَّاسَ، فَأَعْظَمُهُمْ عِنْدَهُ أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً**»، وفي رواية: «**إِنَّ إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ، فَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً. يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: مَا صَنَعْتَ شَيْئًا. قَالَ: ثُمَّ يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ -قَالَ- فَيُدْنِيهِ مِنْهُ، وَيَقُولُ: نِعْمَ أَنْتَ، فَيَلْتَزِمُهُ**»(١)، واستقراء الأحداث في أوروبا يدل على أنه قد تقرر هنالك -في مجلس إبليس وأعوانه- أن تخريب الإسلام بالكلية يحتاج إلى تخريب المسيحية أولاً، ثم استعمال الدول التي كانت يومًا مسيحية في هزيمة الإسلام فكريًا وعسكريًا،

(١) صحيح مسلم: (٢٨١٣).

والاستمرار في إشعال الفتن الداخلية بين المسلمين، حتى يضعف الإسلام إلى حد يمكن عنده القضاء عليه نهائيًا، وذلك عند ظهور نائب إبليس الأكبر على الأرض، وهو الدجال.

ينظر إبليس إلى الشخصيات الذكية، الألمعية، واسعة العلوم والمدارك، التي تجذب الناس بجاذبيتها الشخصية، فيلقي إلى عدد منهم الفكرة التي يريد نشرها وبثها، ويكفيه أن يتقبلها شخص واحد فقط من ذوي العقول العبقرية، فإن هذا الشخص ينبهر بما يظن أنه وصل إليه بفكره، ويعمل جهده على نشر هذه الفكرة، وتزيينها للناس، حتى تتقبلها أنفسهم ويتحدثون بها ويعتبرونها الفتح العلمي الجديد، وتكون هذه تهيئة لهم لقبول الفكرة التي بعدها، فيلقي إبليس التي بعدها في السلسلة التي أعدها لمجموعة أخرى من العقول الألمعية من المفكرين والفلاسفة والعلماء التجريبيين، فينشرونها ظانين أنها من بنات أفكارهم.

ولماذا اضطر إبليس إلى أن يبدأ بالمسيحية، والمسيحية الأوروبية بالذات؟ لأنه كان قد نجح في عصر «الاستنارة» إلى أن يشككهم في دينهم، حين لفت نظرهم إلى ما هنالك من تناقض بين كتبهم المقدسة والاكتشافات العلمية، ففقدوا بعض الحصانة التي يعطيها الإيمان بالله للفكر الإنساني الْمُعَرَّض للخطأ، ثم أقنعهم بتقديس هذا العقل وجعله الْحَكَم النهائي في الفصل في كل قضية. وهكذا، بإلقاء الفكرة تلو الأخرى، يسير بهم في الطريق إلى الإلحاد والإباحية التامة، أي الفوضى الشاملة.

ويظهر هذا النمط الإبليسي في ظهور كل من هذه الأفكار في عقول مجموعة متعاصرة من الناس في زمن واحد، فقد ألقى نظرية التطور في عقلي «داروين» و«والاس» في آن واحد، ثم تقبلها بإعجاب عقل «كارل ماركس» وطبقها على تطور المجتمعات، وكذلك «هتلر» وأثبت بها أن الجنس الآري سيد الأجناس، والأجناس الأخرى لا تستحق إلا الإبادة، وتلقفها دعاة التقدم كدليل على أننا اليوم أذكى وأحكم من أسلافنا من الأنبياء والمرسلين، وتلقفها دعاة الإلحاد كدليل على أن الخلق

بدأ بدون خالق، ولم يعد للخالق مكان في فكر البشر، ومجموع ذلك عقيدة أن البشر سيصلون إلى كل العلم بأنفسهم، وسيتطورون ثانية إلى سوبر بشر، وسيصبحون هم الآلهة في يوم من الأيام.

أما للوصول إلى تمام الفجور، فقد ألقى في عقل «فرويد»، و«يونج»، و«آدلر»، وآخرين، فكرة العقل الباطن وأهمية الغريزة الجنسية في تحريك البشر، ويلي ذلك نظرية الكبت الذي هو سبب كل المشاكل النفسية، والذي علاجه الإباحية. وقد جر ذلك إلى اعتبار الشذوذ الذي كان يعد مرضًا وانحرافًا إنما هو شيء طبيعي، اختيار من الاختيارات الطبيعية التي يختارها الإنسان في حياته، وكل من يخالف هذا الرأي فهو منتهك لحقوق الإنسان.

**نظرية التطور:**

نُسِبَت هذه النظرية «لداروين»؛ لأنه أول من كتب عنها في منتصف القرن الثامن عشر، إلا أن الفكرة -ككثير من الأفكار الأخرى- كانت في الجو، وقد سبق «داروين» رجل آخر يسمى «والاس» خرج بنفس النظرية، إلا إنه لم يتمكن من نشرها إلا بعد «داروين» بقليل، فنسيه التاريخ.

تقول النظرية أن كل نوع من الكائنات الحية على الأرض قد تطور من نوع آخر أكثر بدائية أي أبسط منه تركيبًا، وهكذا حتى تعود الكائنات كلها إلى كائن واحد. وقد توصل ذهن «داروين» إلى هذا بعد أن ماتت ابنته الصغيرة، فتأثر الرجل تأثرًا جعله يثور على ربه الذي سلبه ابنته، فرفض الدين، وأنكر الإله، وشرع يفكر في كيفية تعضيض هذا الإنكار بإيجاد حل يقبله العقل لكيفية بداية الحياة على الأرض ووجود الإنسان بدون خالق.

كانت الآلية التي اقترحها «داروين» لتطور الأنواع هي الاختيار الطبيعي، أي أن الطبيعة تُبْقي على الصفات القوية التي تساعد الكائن على الاستمرار في الحياة، وذلك بتوريثها لذريته، بينما الصفات الغير مفيدة تندرس؛ لأن حاملها ضعيف ومهزوم في

الصراع على البقاء. من هنا كانت ضرورة النظر إلى الحياة على أنها صراع وحشي لا هوادة فيه، ينتصر فيه الأقوى، أي أن الأصلح هو الأقوى دائمًا. ومن هنا كانت ضرورة اعتبار القوة معيار كل شيء. ينتج من كون كل نوع أصله نوع آخر أن الكائن الأول كان خلية واحدة نشأت عنها كل الحياة. وكيف نشأت هذه الخلية الأولى؟ كانت إجابة مؤيدي النظرية أنها نشأت صدفة!

لم تكن نظرية داروين مبنية على حقائق علمية ولا على تجارب عملية، ولكنها كانت محض افتراض يفتقر إلى دليل، وكان أمله أن الدليل سوف يكتشف يومًا ما. فلماذا إذاً يَلْقَى افتراضًا كهذا قبولاً في الأوساط العلمية التي تتباهى بالموضوعية وإخضاع كل شيء للعقل والمنطق؟ ليس إلا؛ لأن هذه العقول كانت قد تحررت من قيود الدين وخرجت عنه خروجًا لا رجعة فيه، فكانت في أشد الحاجة إلى مخرج من المأزق الفكري الذي يشكله معارضة إيمان البشرية بكل أديانها ومِلَلها أن الخلق أكبر دليل على وجود الخالق.

هل يتعين إذاً رفض النظرية جملة وتفصيلا؟ نعم بلا شك، فهي تعارض ليس فقط الإسلام، ولكن سائر الديانات السماوية، ومضارها كثيرة جدًا، وقد اعتمدها «ماركس» لإخراج فكره الشيوعي، و«هتلر» لإخراج فكره العنصري، والبيض في أمريكا لاستعباد السود وإبادة الهنود الحمر، وجميع الدول المستعمرة لاستحلال نهب واستذلال الأمم، والفلاسفة الملحدون لإنكار الحاجة إلى الخالق.

**نظرية العقل الباطن:**

خرج «فرويد»، الذي كان يقول عن نفسه أنه يهودي ولكنه ملحد، أي متمسك بهويته العرقية ولكن ليس بعقيدته، بنظرية العقل الباطن، وهي أن الإنسان تسيره دوافع ونوازع تختفي في مكان ما في نفسه لا يستطيع الوصول إليه بالتفكير والتذكر والبحث في نفسه، وهذه الأمور ترسبت هنالك نتيجة تربيته، وكلها راجعة إلى الغريزة الجنسية، وهي تدفعه إلى التصرف بالطريقة التي يتصرف بها. أدى ذلك بالكثير من

الناس إلى الظن أن الإنسان لا يَدَ له فيما يفعل، والفاجر معذور؛ لأنه لا يستطيع مغالبة عقله الباطن، والمجرم معذور؛ لأن عقله الباطن هو الذي دفعه إلى الجريمة، وهلم جرا. كذلك أدى تركيزه على الغريزة الجنسية إلى القول بأن الكبت الجنسي هو سبب العقد النفسية ويجب الوصول إلى الحرية الجنسية المطلقة لتجنب هذه العقد أو لحلها. ويمر الوقت ويكتشف الناس أن هذا الكلام هراء ولكنه هراء مهلك، وأن الجنس ليس أساس كل شيء، وأن العقل الباطن ليس إلا الطبقة تحت السطحية من الوعي، ويمكن الوصول إليها بشيء من التأمل والبحث، وأن الوصول إليها لا يجعل المشاكل تختفي بطريقة سحرية، وأن الإنسان مسئول عن تصرفاته ويستطيع التحكم فيها بشرط أن يريد ذلك، وأن الحرية الجنسية المطلقة لا تزيل الكبت وتمنع الأمراض النفسية، بل على العكس تولد إحساسًا بعدم الأمان يزيد الأمراض النفسية كثرة وشدة، وفوجئوا أيضا بزيادة كبيرة في جرائم الاغتصاب.

أمّا «كارل يونج»، فقد تكلم أيضًا عن العقل الباطن، ولكنه لم يرجع كل شيء إلى الغريزة الجنسية، بل افترض وجود نماذج ثابتة في العقل الباطن، مشتركة بين البشر جميعًا، هي التي تملي على الإنسان تصرفاته. وكانت هذه النظرية وعشرات غيرها مما خرج من ذاك العصر كلها مبنية على خبرة كل معالج نفسي مع العدد القليل من المرضى الذين يعالجهم شخصيًا، ولكن بعد إعمال الخيال بشدة، وتعميم ما يصل إليه فكره للخروج بنظريات شاملة للنفس الإنسانية، أثبتت كلها بلا استثناء أن نصيب الواقع منها محدود جدًا، وأغلبها محض خيال. وقد عاد الغرب الآن إلى شيء من الواقعية بتبني النماذج المعرفية للنفس، وهذه النماذج تشابه إلى حد كبير ما شرحه الإمام الغزالي في إحياء علوم الدين، إلا أن الهدف منها علاج الأمراض النفسية التي تسبب فيها عصر الفوضى الحاضر وليس تزكية النفس وتقريبها من ربها.

هل نفهم من ذلك أن كل علم النفس الغربي مرفوض وضار؟ نجيب بالنفي على هذا السؤال، فقد تعدى الكثير من علماء النفس مرحلة النظريات الشاملة التي تدعي تفسير كل شيء، ولكنها لا تقوم على دليل، وانتقلوا إلى نظريات أكثر عملية،

محدودة المرمى، أثبتت فاعليتها بالأسلوب العلمي التجريبي، وهي من نوعين، النوع السلوكي، والنوع المعرفي. وكلاهما معروف للمسلمين من القِدَم، كما يستطيع التحقق منه من يقرأ للإمام أبي حامد الغزالي. وهذان النوعان لا يقومان بالضرورة على الإلحاد ويمكن الاستفادة منهما لمن أراد بتهذيبهما إسلاميًا.

**نظرية التقدم:**

في القرن التاسع عشر كان الغرب كله مقتنعًا بغير تحفظات أن التقدم التكنولوجي المبني على العلوم التجريبية سوف يستمر إلى ما لا نهاية، وسوف يحل مشاكل الجنس البشري كلها، من حروب وفقر ومرض وتعاسة، ويصل بالبشر إلى مرحلة الحياة المثالية والسعادة الكاملة، وأن الإنسان الذي كان أصله حيوانًا ثم تطور ليصبح إنسانًا سوف يستمر في التطور لكي يصبح سوبر إنسان، وأن التقدم الحاصل ذاك الحين لا آثار جانبية له، وبالتالي فإن المجتمعات المتقدمة من حقها -بل من واجبها- احتلال المجتمعات المتخلفة لإخراجها بقوة السلاح من تخلفها، وذلك بنهب ثرواتها، وتجنيد رجالها في جيشها لاحتلال مناطق أخرى بهم، وسموا ذلك استعمارًا، وإعمار الشيء ما هو إلا إصلاحه وإحياؤه. اعتقد الغرب أنه أكثر علمًا وحكمة من أي وقت مضى، وبالتالي أذكى وأعقل من الأنبياء والمرسلين وجميع الحكماء الذين يتحدث عنهم تاريخ البشرية.

ثم فوجئ الغرب بالحرب العالمية الأولى والدمار الشامل الغير مسبوق الذي ألحقته بأوروبا، وظنوا أن هذه كانت فلتة لن تتكرر، ولذلك أسموها «الحرب التي ستنهي كل الحروب» ولكن ما حدث هو أنهم بعد إحدى وعشرين سنة فقط من انتهاء الحرب الأولى اشتعلت الحرب العالمية الثانية، فكانت أكثر شراسة، ودمارًا، ولم تنته إلا وقد انقلبت إلى حرب نووية بعد ضرب اليابان بقنبلتين ذريتين.

وتلي ذلك حرب كوريا، وحرب فيتنام، وحروب في الشرق الأوسط بين العرب وإسرائيل، وحرب أفغانستان، وحرب العراق وإيران، وحربي الخليج، والعالم ينظر في وَجَلٍ إلى أمريكا منتظرًا الباقي.

كذلك بدأ الغرب ينتبه إلى ما جره عليهم وعلى سائر كوكب الأرض هذا التقدم، من تلوث للبيئة، وأمراض جديدة، وانتشار للأمراض السرطانية، وللأمراض التي يسببها تناول الخمور، وانتشار المخدرات بأنواعها، وغير ذلك من الهندسة الوراثية التي تفتح مجالات من الفساد أوسع وأخطر مما حدث في تاريخ البشرية كله منذ آدم عليه السلام.

لقد أدرك الكثير من مفكري الغرب اليوم، والقليل من مفكري الشرق، أن المفهوم القديم للتقدم لم يعد يمكنهم الدفاع عنه، فأخذت فئة في التحذير مما سوف يجره عليهم من كوارث، ويعتقد أكثر الناس في الشرق والغرب أنهم يبالغون في التشاؤم، وفئة أخرى بدأت تدرس كيفية استيعاب التكنولوجيا الجديدة في تطوير المجتمع.

إن التقدم كما يفهمه الغرب تقدم تكنولوجي مادي بحت، لم يصاحبه تقدم مماثل في الآداب والفنون والفلسفة وسائر المقومات الفكرية للحضارات، بل على العكس، سارت هذه كلها في طريق مدارس اللا معقول التي إن عبّرت عن شيء فهي تعبر عن ضياع الإنسان المعاصر. وكان ثمن التقدم أنهم خسروا الترابط والاستقرار الاجتماعي، والتوازن النفسي للأفراد، والأخلاق الفاضلة والمروءة، وانحدروا في ذلك كله وكذلك في درجة تلوث البيئة إلى مدى أصبح من المستحيل فيه تدارك الأمر، حتى إن أرادوا ذلك يومًا، ولا يبدو عليهم أنهم سوف يريدون.

إن العلم المادي الحديث هدفه السيطرة التامة على البيئة ثم على الإنسان، ولما كانت السيطرة تحتاج إلى المعرفة التامة لما يراد السيطرة عليه كان لابد أن يخضع للقياس والتجربة. ولذلك أخذ العلم الحديث يركّز على ما يمكن قياسه ويتعامل مع ما لا يمكن قياسه بتجاهله، ولذلك حاولوا قياس الأشياء الغير مادية في الإنسان كالذكاء، حيث نجحوا جزئيًا، والعواطف والأخلاق، حيث فشلوا تمامًا. ومع استمرار تجاهل كل ما هو غير قابل للقياس وصلوا إلى إنكاره، أي إنكار الروح والأمور الروحية، وما يتعلق بالعوالم الغيبية، ومنها الوحي والدين.

النتيجة أن العلم الحديث ألغى من الاعتبار كل ما هو غير مادي، وفسّر الشيء الذي لا يمكنه إنكاره، وهو نفس الإنسان على أنها وليدة التفاعلات الكيميائية التي تجري في المخ، وهذه لما كانت مادية فأملهم أن يمكنهم قياسها في يوم من الأيام، كما هو الأمل في كل ما لا يمكن قياسه في الوقت الحاضر.

هكذا اختزل العلم الكون في البعد المادي فقط، وصار من يتكلم في غير ذلك عُرْضة للسخرية، وصار العلم حليف الإلحاد. إن التقدم التكنولوجي، إن كان قد ساهم في حل بعض المشكلات، إلا أنه -بآثاره الجانبية- خلق أخرى لم تكن موجودة من قبل، ومن أمثلة ذلك انتشار الأمراض السرطانية نتيجة التلوث، وظهور الأضرار التي يسببها الطب الحديث، وقد اضطروا إلى أن يخترعوا لها اسماً، فسموها «ياتروجنيك»، وكذلك حدث أن وسائل الاتصالات والإعلام الحديثة تسمح للحكومات بمراقبة الناس والتنصت عليهم وتصويرهم، حتى في بيوتهم، والسيطرة عليهم بطريقة محكمة، كما تسمح لهم بتشكيل فكر الشعوب على هواهم.

**حقوق الإنسان:**

كانت طريقة الوصول إلى الإباحية المطلقة هي أن يلتفت البعض إلى التجاوزات التي ارتكبت في أوروبا باسم الدين المسيحي، وهي كثيرة جدًا، وبدلاً من أن يدعو إلى العودة إلى تطبيق الدين والفضائل كما ينبغي، يدعو إلى التخلص من التخلف الديني بالكلية والاعتماد على العقل البشري. عندئذ إذا احتاج لقانون ينظم العلاقات بين الناس، فإنه يبتدع قانونًا ويطوره بالتجربة والخطأ، ومع كل تطوير يدعو إلى مزيد من الحرية، وإباحة كل ما كان منهيًا عنه في الدين، وكان الدين المسيحي في أوروبا ضعيفًا أمام ذلك، إذ يفتقد إلى شريعة مفصلة كالشريعة الإسلامية، فكان أسهل على الشيطان وأعوانه الدخول من هذا الباب، ثم محاولة الوصول من خلاله إلى إبطال العمل بالشريعة المحمدية، إذ أنه يعلم أن كل ما يحدث في الغرب سوف يقلده أشرار هذه الأمة على عجل. وكلما اتضح للأوروبيين بالتجربة أن هذه الإباحة أو تلك تجلب

الضرر وليس النفع، طوروا القانون ثانية، ثم ثالثة، ليرفعوا هذا الضرر بالطريقة الوحيدة التي يعرفونها، ألا وهي إباحة أشياء أخرى، ثم أخرى. ولذلك فإن كل المناقشات التي دارت بينهم فيما مضى في تحليل الطلاق، أو الإجهاض، أو الزنا، أو الشذوذ، أو ما هم بصدده الآن من الهندسة الوراثية، أو تربية الأجنة لأخذ خلاياها لمعالجة بعض الأمراض، كل ذلك لابد أن ينتهي عاجلا أم آجلا بالإباحة، فالتيار جارف، وما أن تبيح أي من الدول أي من هذه إلا وتسحب البساط من تحت الدول التي لا زالت تمانع، فلا تزال هذه الدولة تبيح شيئا، وتلك تبيح شيئا آخر، حتى لا يظل شيء غير مباح، وكل ذلك باسم حقوق الإنسان، هذه الخدعة التي يُدْخِل بها الغرب مفاسده إلى الدول التي لا زالت تلتزم بدين، بينما واقع أعمالهم يزيف ادعاءاتهم ويعلن أنه لا حقوق إلا للإنسان الغربي. ولم يظهر الكلام عن حقوق الإنسان طالما كان الاستعمار موجودًا، إذ كان ذلك سوف يستثير الشعوب ضد الغرب المستعمر، فلما انتهى ذلك العهد احتاجوا لغة للحوار يخدعوا بها الشعوب الفقيرة ليوهموهم أنهم يريدون لهم الخير، حتى يستمر ٦% من سكان العالم، وهم سكان أمريكا الشمالية، في استهلاك ٦٠% من موارد هذا الكوكب، بينما ٨٠% من سكان العالم تحت مستوى الفقر، و٧٠% لا يكتبون ولا يقرأون، و١٥٠٠ مليون إنسان ليس لديهم ماء نقي للشرب والطبخ، و٤٠ ألف طفل يموتون يوميًا من سوء التغذية والمرض.

فالمهم في الغرب حقوق الزانيات في الإجهاض والشواذ في زواج الْمِثْل، وليس حقوق آلاف الملايين في أن يُعَوَّضُوا عن شيء من ثرواتهم التي نهبت، وأن يحموا من التلوث القاتل الذي يسببه القلة التي تعيش في أمريكا وأوروبا.

هل فكرة حقوق الإنسان إذاً فكرة خاطئة يجب رفضها؟ بالطبع لا، ولكن كلمة حقوق الإنسان حينما تستعملها الدول الكبرى فما هي إلا كلمة حق أريد بها باطل، فهم لا يطبقونها على الكل، فمعروف أن الفلسطيني ليس إنسانًا وبالتالي ليس له حقوق، بينما الإسرائيلي إنسان وله أن يفعل بالفلسطيني ما يشاء، والسجين في

«جوانتانامو» دون إدانة ودون محاكمة ليس إنسانًا، فليس له حقوق، بينما أي مجرم من المافيا لا يمكن احتجازه دون توجيه تهمة إليه ومحاكمته، وهكذا. أما حين تستعملها المنظمات المستقلة مثل منظمة العفو الدولية مثلاً، فهنا يكون لها معنى وهدف يستحق الدعم والمساندة، ولكن ليس لها سلطة لإزالة الظلم بعد التحقق منه.

هذه بعض من أفكار الحضارة الغربية المحورية ودعاويها، فإلى أين وصل بهم هذا الفكر؟.

**بعض الجوانب الإيجابية:**

تتميز الحضارة الغربية قبل كل شيء بالقدرة على العمل الجماعي، حيث يرى كل فرد نفسه جزء من كيان يجب المحافظة عليه لمصلحة الجميع، يلي ذلك في الأهمية عامل آخر مرتبط بالأول وهو الرغبة في إتقان العمل، واتخاذ ذلك عادة.

والعمل الجماعي يستدعي مراعاة كل فرد لحقوق ومصلحة الآخرين، وأن يقوم كل فرد بدوره على أتم وجه، وأن يحافظ على النظام مراعاة لهذه المصلحة. هذا هو سبب تفوقهم علينا، وسبب أنا لا نقدر على اللحاق بهم، فإننا لا نريد التخلي عن أنانيتنا، ولا عن إرادة كل منا الاستفادة على حساب مصلحة الآخرين، ولا عن رفضنا لمفهوم الإحسان في العمل ودقة الأداء. ساعدتهم هذه العوامل على إقامة نظم حكم ديمقراطية، إلا أن التحفظ هنا يكون أولاً أن الديمقراطية كانت لهم، ودفع ثمنها الآخرون ذلاً وهواناً، وأن الديمقراطية الأمريكية إنما هي رهينة التحالف الصناعي العسكري من ناحية، ومن ناحية أخرى أثبتت عدم ديمقراطيتها حينما عطلت كل القيم والقوانين بعد أحداث سبتمبر.

وبالطبع لا يسعنا أن ننكر أن هناك في الغرب ملايين من الناس اللطفاء، الأمناء، الرحماء، الذين يحبون العدل ويناضلون من أجله، فليس كل الناس في الغرب خاضعين لهذا الوصف التبسيطي، ولكن لا مفر من التبسيط لإظهار ما يجب إظهاره، وأكثر هؤلاء الناس للأسف بعيدون عن الحكم ومواقع اتخاذ القرار.

ومن العجيب أن عمرو بن العاص ﷺ كان قد ذكر في زمنه بعض إيجابيات الأوربيين. قَالَ الْمُسْتَوْرِدُ الْقُرَشِيُّ عِنْدَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**تَقُومُ السَّاعَةُ وَالرُّومُ أَكْثَرُ النَّاسِ**». فَقَالَ لَهُ عَمْرٌو: أَبْصِرْ مَا تَقُولُ. قَالَ: أَقُولُ مَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

قَالَ: لَئِنْ قُلْتَ ذَلِكَ إِنَّ فِيهِمْ لَخِصَالاً أَرْبَعًا: إِنَّهُمْ لأَحْلَمُ النَّاسِ عِنْدَ فِتْنَةٍ، وَأَسْرَعُهُمْ إِفَاقَةً بَعْدَ مُصِيبَةٍ، وَأَوْشَكُهُمْ كَرَّةً بَعْدَ فَرَّةٍ، وَخَيْرُهُمْ لِمِسْكِينٍ وَيَتِيمٍ وَضَعِيفٍ، وَخَامِسَةٌ حَسَنَةٌ جَمِيلَةٌ: وَأَمْنَعُهُمْ مِنْ ظُلْمِ الْمُلُوكِ[1].

وقد لفت نظري قوله: «وَخَيْرُهُمْ لِمِسْكِينٍ وَيَتِيمٍ وَضَعِيفٍ» بالمقارنة نجد أن من أسباب فشل المسلمين أنهم وإن كانوا في تعاملاتهم الشخصية في غالب الوقت مؤدبين، كرماء، إلا أنهم كأفراد في مجتمع أنانيون، يَحْسَب كل منهم أنه يعيش بمفرده، وأن سائر المجتمع إنما هو مسخر لخدمته، فيقود سيارته بهذا المفهوم، كل ما يهمه أن يصل إلى هدفه في أسرع وقت، لا يفهم أن التزامه بالنظام فيه تيسير له ولغيره، وأمان له ولغيره، فتجد الشارع عبارة عن مجموعة من الأفراد المتنافسين، المتناحرين، كل فرد يعمل لذاته، لا يعترف بقانون، ولا بشرطي، ولا بإشارة، ولا بخطوط بيضاء على الإسفلت، ولا يتوقع من الآخرين الاعتراف بأي من ذلك. وكذلك الأمر في المصالح الحكومية، والمطارات، وهلم جرا.

**بعض الجوانب السلبية:**

**المجتمع الاستهلاكي:** وصل الغرب إلى قناعة أن كل ما يهم في الحياة هو التمتع بأكبر قدر من الملذات الحسية، وبأكبر سرعة، فإنه ليس في الدنيا إلا ذلك، وليس هناك حياة بعد الموت يعمل لها حساب.

إن الطبقة الحاكمة برمجتهم على ذلك عن طريق الإعلام الذي وظيفته المعلنة هي

(١) صحيح مسلم: (٢٨٩٨)؛ مسند الإمام أحمد: (٤/ ٢٣٠)؛ الطبراني في الأوسط: (٨٦٦٨).

أن يقوم بدعاية استهلاكية لخلق احتياجات وهمية في عقول الناس، ثم إقناعهم أن هذه ضروريات وليست كماليات وأن عليهم شرائها على الفور، بنهم وبدون رَوِيَّة، فينحصر تفكيرهم في الموازنة والاختيار بين نوع وآخر من نفس السلعة، ولا يسمح لهم بالتفكير فيما إذا كانوا حقيقة في حاجة لها.

إن قيام الصناعات الاستهلاكية مرهون بشراء الناس لمنتجاتهم، وكلما كانت عقول الناس مغيبة، كان تحريكهم في الاتجاه المطلوب أسهل. ولتسهيل ذلك وضعوا نظام البيع بالتقسيط، فأنت تشتري والبنك يقسط لك المبلغ بضمان منزلك، ويأخذ منك الفوائد، فإذا عجزت عن السداد استولى البنك على المنزل. فالمصنع يربح، والتاجر يربح، والبنك يربح، والخاسر هو المستهلك.

ولكي يعمل الشعب في هذه العجلة العقيمة لابد أن يعمل في المصنع بجد وإخلاص، وأن يعبث خارج العمل بنهم وحرية كاملة. من هنا كان تقديس العمل والانضباط فيه أهم قيمة يحث عليها النظام الرأسمالي، فتجد العامل مدرب على الانضباط بدون رقيب، لا يكذب أبدًا، ولا يأتي بأعذار سخيفة لإهماله أو أخطائه، بينما خارج العمل كل شيء مباح؛ السُّكْر، والقمار، والزنا، والكذب على الأزواج والزوجات، والشذوذ.

**الإعلام وتطبيع الرذيلة**: إذا نظرنا إلى الإعلام الغربي بشيء من التمعُّن وجدنا أنه في النهاية تتلخص وظيفته في شيء واحد فقط، ألا وهو تطبيع الرذيلة، فما لم يكن مألوفًا من المشاهد الفاضحة أمس أصبح مألوفًا اليوم، وما لم يكن مقبولاً من الألفاظ البذيئة أمس أصبح يتبجح به على الملأ اليوم، والأفلام تقحم مشاهد الفجور والشذوذ التي ليس لها علاقة بالقصة لزرع الاعتقاد في عقول المشاهد أن هذه أمور طبيعية يجب أن تكون موجودة في أي مجتمع طبيعي. وهم يعلمون تمامًا أن مثل هذه الأشياء مذكور في كتبهم المقدسة أنها تؤدي إلى غضب من الله شديد، وعندهم قصة لوط عليه السلام وما حدث لقومه، ومع ذلك ينصّبون الشاذ قسيسًا، ويجعلونه مسئولاً عن أخلاق حي كامل من البشر، وهذا إن دل على شيء فيدل أنهم لم يعودوا يؤمنون بما

في كتبهم المقدسة، بل هم ملحدون في لباس القساوسة. إن انتشار الشذوذ وتقنينه، وظهور مصطلحات مثل «زواج المِثْل» من الأشياء التي ما كان آباء أحد منهم ليحلموا بها في أسوأ كوابيسهم منذ أقل من خمسين سنة مضت.

ويشابه ذلك ما يفعل من خلال الرسوم المتحركة، فقد بدأت بالشخصيات اللطيفة، الظريفة، المحببة إلى القلب، مثل بطوط، وميكي، ثم تطورت حتى وصلت اليوم إلى شخصيات شكلها قبيح وشيطاني، كي يتعود الطفل رؤية القبح والشياطين، فلا ينزعج عند ظهور الدجال ومن حوله من الشياطين.

وفي بعض الحلقات جعلت الشخصيات التي كانت معروفة بأنها شريرة وقبيحة، مثل مصاص الدماء مثلا، هي أبطال الحلقة ذوي الشجاعة والذكاء والرحمة، لإعداد الأطفال للشيء نفسه، ألا وهو تقبّل الأعور الدجال، القبيح المنفّر، ورؤيته بطلاً منقذًا، بدلاً من رؤيته مجرمًا خطيرًا وكذّابًا مضللاً.

ويمكن رؤية نفس النمط في لعب الأطفال، فقد ظهرت هذه الشخصيات القبيحة الشيطانية في السوق، وفي ألعاب الحاسب الآلي، وعلى أوراق اللعب. فالطفل معرض يوميًا للعنف الفردي والجماعي وللجنس وسرقة البنوك والاستهزاء بالدين في الأفلام، ويزرع فيه حب الشراء لما لا يحتاج، أيضًا عن طريق الجنس في أكثر الأحيان، في الإعلانات، وتتعود عينه على القبح والشياطين في الرسوم المتحركة.

**ابتذال المرأة بدعوى تحريرها:** حرروا المرأة بأن أقنعوها أنه من حقها أن تتعرى أمام الكل، وتبيع عراها في الإعلانات والفيديو كليب، وتعاشر من أرادت منذ سن البلوغ، وأنها يجب أن تكون طموحة ولا تدع المفاهيم القديمة مثل الزواج، ورعاية الأطفال، والروابط الأسرية، تقف في طريق طموحها. دخلت الكلية الحربية، ثم أعلنوا أن أكثر الطالبات في الكلية الحربية الأمريكية يتعرضن للاغتصاب المتكرر في غرفهن بالكلية من قبل زملائهن الذين يتدربون ليصبحوا ضباطاً ثم قادة للجيش، وظهرن على شاشة التلفزيون، بعد فترة طويلة من السكوت والتعتيم، ليعلن أنه

لـم تسمح لهم قيادة الكلية الحربية بالشكوى مما حـدث. فكانـت دعـوتهم إلى تحريـر المرأة كلمة حق أريد بها باطل، وأصبح من المألوف في مستشفيات الحكومة أن تدخل امرأة معها أربعة أطفال، كل منهم مـن أب مختلـف، وجميـع الآبـاء تركوهـا وذهبـوا، فتسارع الحكومة وأخصائي الخدمـة الاجتماعيـة بترتيـب معونـة لهـا تـساعدها علـى الاستمرار في هذا النمط المتحرر.

ويجوز لنا أن نتساءل: إذا كان الرجل والمرأة عندهم لا فرق بينهما البتـة، فلمـاذا يجعلون في البطولات الرياضـية مـسابقات خاصـة بالرجـال وأخـرى بالنـساء، فهـذا اعتراف منهم واضح أن الفروق البدنية بين الجنـسين أكـبر مـن أن تتجاهـل، فكيـف بالفروق النفسية، والعاطفية، التي تجعل من الرجـل والمـرأة كائنـان متكـاملان ولـيس متطابقان؟ وكيف يكونا متكاملين إن لم يكونا مختلفين؟

إنا كمسلمين من الأخطاء الشائعة نعلم أن المساواة بين البـشر إنمـا هـي مـساواة أمام الخالق سبحانه وتعالى، مساواة في التكاليف والحقوق الـشرعية، في دخـول الجنـة للمحسنين، وعذاب النار للمسيئين. وإذا ظلمت النساء بمنعهن بعض حقوقهن، فالحل هو بعلاج الأسباب وإعادة حقوقهن إليهن، وليس بادعاء المساواة الكاذبة التي لم تـؤدِّ في الغرب إلا إلى الإباحية والتفسخ الاجتماعي، أي الفوضى، وهذا يكفي دليلا على أن الفكرة بمفهومها الحديث شيطانية الأصل والمنبع.

**الدعاية واستخدام الجنس**: إن استخدام الوسـائل الإعلاميـة في الدعايـة قـائم أساسًا وقبل كل شيء على الجنس، فما من سلعة إلا ويعلن عنها بإعلانات فيها نساء يظهرن مفاتنهن ويعرضونها عرضًا، سواء كان لذلك علاقة بالسلعة المعلن عنها أم لا. وذلك مرتبط بدعوى تحرير المرأة، كما ذكرنا آنفًا.

**الموضة**: لمـا كـان الهـدف الوحيـد في الغـرب هـو المتعـة العاجلـة، وهـي دائمـاً مصحوبة بمتعة تغييب العقل والإمعان في التفاهة، كان من الضروري أن يخترعوا شيئاً اسمه «الموضة» يتم من خلال هذا الاختراع إقناع النساء والرجـال والـشباب وحتـى

الأطفال أن ما يلبسونه من أصناف الملابس ويتزينون به من زينة وروائح وتسريحات وغيرها لا يمكن أن يعيشوا بها أكثر من فترة قصيرة يجب بعدها أن تتغير، ويكون هناك موضة للربيع، وثانية للصيف، وثالثة للخريف، ورابعة للرياضة، وخامسة للمصيف. ويتكرر الشيء نفسه مع السيارات، والهواتف المحمولة، والحاسب الآلي، وهلم جرا. يحدد الموضة السادة من مصممي الأزياء وغيرها، ويلهث ورائها العبيد من الأغبياء، حتى لا يتخلفوا عن الركب الحضاري.

**تلوث البيئة**: إن هذه الحضارة اكتسبت، ولأول مرة في تاريخ البشرية، القدرة ليس فقط على إفناء الجنس البشري بالأسلحة النووية وغيرها، بل على إفساد كوكب الأرض إفسادًا يجعله غير صالح للحياة. إن تكنولوجيا الدول المتقدمة أفسدت قطاعات كبيرة من الجو، والأرض، والبحر، ورغم التحذيرات المتكررة من قلة من العلماء العقلاء ومن الجمعيات «الخضراء» إلا أن سطوة التحالف الصناعي العسكري في هذه الدول لا تسمح لهذه الأصوات أن يكون لها تأثير في اتخاذ القرارات. إن الربح المعجل بأي ثمن هو الهدف.

إن التراكم المطّرد في المواد الملوثة للجو أدى إلى ازدياد متوسط حرارة كوكب الأرض، والكثير من الباحثين أعلنوا أنه بناءً على ما تعطيه حساباتهم وتوقعاتهم فإننا تعدَّينا المرحلة التي يمكن فيها تدارك الكارثة، أي ذوبان جبال الثلوج القطبية، وارتفاع منسوب المحيطات، وغرق المدن الساحلية، والإخلال بالتيار الدافئ المعروف باسم (الجلف ستريم)، مما سوف يؤدي إلى كوارث مناخية في أوربا. وقد ذابت ثلوج القطب الشمالي بحيث أصبحت الملاحة خلاله ممكنة أكثر السنة، وتستخدم السفن الممرات التي ظهرت بذوبان الثلج لاختصار المسافة بين أوربا وأمريكا الشمالية.

أما المحيطات فقد تلوثت منذ سنين طويلة بالبترول المتهرب باستمرار من الأنابيب التي تنقله من الشاطئ إلى الحاملات في الموانى البترولية، والمسكوب من غرق هذه الحاملات العملاقة. كما تلقي الدول الغنية مخلفاتها النووية في قاع المحيطات.

أما المبيدات الحشرية مثل الـ(د. د. ت.) فقد وجدت في أجساد كلاب البحر في القطب الجنوبي. وقد أدى التلوث إلى هلاك كميات ضخمة من النباتات الطحلبية المعروفة بالبلانكتون، وهي التي تنتج سبعين في المائة من أكسجين الكوكب، بينما تنتج الغابات الاستوائية الثلاثين في المائة الباقية.

والغابات الاستوائية يتم قطع أشجارها لإنتاج الأخشاب، وأهم وأفظع من هذا لإنتاج الورق، أي أنه لإنتاج ملايين الصحف والمجلات بكل ما فيها من تفاهات وسفاهات يوميًا يتم القضاء على مصدر الأكسجين الذي نتنفسه وسوف يتنفسه أولادنا. وهذا غير السيارات وسائر الآلات والطائرات التي تستهلك في كل رحلة كمية من الأكسجين تقدر بالأطنان.

وهناك أنواع وكميات كبيرة من الكيماويات تدخل إلى أجسام الناس من خلال الطعام، فإضافة المبيدات الحشرية، والأسمدة الكيميائية، والهورمونات، للمنتجات الزراعية أصبح معتادًا، وإطعام الماشية والطيور بعلف فيه هورمونات، ومضادات حيوية، ومطحون عظام ودم وأحشاء الماشية المذبوحة، أصبح أيضًا مألوفًا.

وتلقي المصانع مخلفاتها في الأنهار والبحيرات، وتلقي المدن صرفها الصحي فيها، والكثير من البحيرات في أوربا وأمريكا قد فقدت أسماكها، ثم فقدت كل حياة فيها، والكثير ملوث تلوثا خطيرًا، فمثلا نصف السمك في نهر أناكوستيا بالقرب من واشنطن مصاب بسرطان الكبد. والمعروف أنه من المناطق الميتة تمامًا بحر البلطيق، والجزء الشمالي الغربي من البحر الأسود، والجزء الشمالي من خليج المكسيك. ومناطق أخرى كثيرة في الطريق.

ويمكننا كذلك التحدث عن التلوث النووي الذي سبب الأمراض السرطانية والتشوهات، وأدى إلى ترسب مادة السطرنتيوم ٩٠ في النخاع العظمى لأكثر البشر من الذين يسكنون مناطق بعيدة عن أماكن الإشعاع. ويمكننا التحدث عن ثقب الأوزون، وعن أن ربع سكان أمريكا الشمالية يموتون بسبب أمراض سرطانية، وعن

فقدان الجو الصحو فوق مدن العالم، وعن آلاف من قطع الخردة المعدنية، وهي الأقمار الصناعية التي انقضى عمرها وماتت، ولكنها لا تزال تدور حول الأرض، ملوثة الفضاء الخارجي، وعددها يبلغ الآن الآلاف.

ونشير هنا إشارة عابرة إلى أن من نِتاج الحضارة الغربية أيضًا التفكك الأسري والطلاق، وانتشار المخدرات كجزء من الفوضى العامة وغياب القيم والأهداف، وزيادة نسبة الانتحار، وأصبح العنف، الذي تشجعه وسائل الإعلام وتشجع الأطفال على تقليده بكل ما لديها من قوة، أصبح هذا العنف المتناهي الشراسة سمة من سمات المجتمع الأمريكي المميزة.

يظهر مما سبق الأسباب التي تدفعنا إلى أن نقول عن الحضارة الغربية أنها منكوسة، فقد انقلبت فيها الأولويات رأسًا على عقب، فالإيمان والفضيلة أصبحا عندهم تخلفًا، بينما أصبح الإلحاد والإباحية هي عين العقل والصواب، وأصبحت الدنيا الفانية هي كل شيء، بينما الآخرة الباقية هم عنها غافلون، وأصبحت شهوات الجسم أهم من كل شيء، بينما احتياجات الروح غير معترف بها أصلاً، الصديق أهم من الأب، والصديقة أهم من الأم، والإنسان يُهَاب لبطشه، ويحترم لماله، ويهان إن كان فاضلاً ولكن فقيرًا ضعيفًا، يظنون أنهم اليوم في أوج الرقي والذكاء والعلم، ويعتبرون من مضى من الأنبياء والأولياء والحكماء ليسوا إلا من رجال الكهوف، وهلم جرا.

وهذا القلب للقيم والموازين كلها ما هو إلا تمهيد للأعور الدجال، فإنه لو قَدِم على قوم يُميزون الإيمان من الكفر، والحلال من الحرام، والفضيلة من الرذيلة، فلن يجد من يتبعه، ولكنه إذا قَدِم على قوم اختلط عليهم الأمر، فأعادوا تعريف كل شيء بعكسه، فسيجد فيهم الاستعداد الكامل لتصديقه واتباعه. ولذلك سمّاها النبي ﷺ: «سنوات خدّاعات».

**ما خطر كل ذلك علينا؟**

وجه الخطر فيما ذكرنا أننا سوف نقلِّد الغرب في كل فساد، فكل ما نراه من موبقات عندهم اليوم فهو آت عندنا غدًا لا محالة.

قال رسول الله ﷺ: «لَتَرْكَبُنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، شِبْرًا بِشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ دَخَلَ حُجْرَ ضَبٍّ، لَدَخَلْتُمْ، وَحَتَّى لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ جَامعَ امْرَأَتَهُ بِالطَّرِيقِ، لَفَعَلْتُمُوهُ»[1].

وقال ﷺ: «أَنْتُمْ أَشْبَهُ الأُمَمِ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ، لَتَرْكَبُنَّ طَرِيقَتَهُمْ حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ، حَتَّى لا يَكُونَ فِيهِمْ شَيْءٌ إِلا كَانَ فِيكُمْ مِثْلُهُ، حَتَّى إِنَّ الْقَوْمَ لَتَمُرُّ عَلَيْهِمُ الْمَرْأَةُ فَيَقُومُ إِلَيْهَا بَعْضُهُمْ فَيُجَامِعُهَا، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى أَصْحَابِهِ يَضْحَكُ إِلَيْهِمْ وَيَضْحَكُونَ إِلَيْهِ»[2].

وقال ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لا تَفْنَى هَذِهِ الأُمَّةُ حَتَّى يَقُومَ الرَّجُلُ إِلَى الْمَرْأَةِ فَيَفْتَرِشَهَا فِي الطَّرِيقِ، فَيَكُونَ خِيَارُهُمْ يَوْمَئِذٍ مَنْ يَقُولُ: لَوْ وَارَيْتَهَا وَرَاءَ هَذَا الْحَائِطِ»[3].

وفي رواية: «وَحَتَّى تَمُرَّ الْمَرْأَةُ بِالْقَوْمِ، فَيَقُومُ إِلَيْهَا أَحَدُهُمْ، فَيَرْفَعُ بِذَيْلِهَا كَمَا يُرْفَعُ ذَيْلَ النَّعْجَةِ، فَيَقُولُ بَعْضُهُمْ: أَلا وَارَيْتَهَا وَرَاءَ الْحَائِطِ؟ فَهُوَ يَوْمَئِذٍ فِيهِمْ مِثْلُ أَبِي بَكْرٍ فِيكُمْ»[4].

وقال ﷺ: «لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَتَسَافَدُوا فِي الطُّرُقِ تَسَافُدَ الْحَمِيرِ»[5].

لقد اقترب الغرب اقترابًا كبيرًا من مرحلة مجامعة المرأة في الطريق، فإن طريقة

---

(١) الحاكم في المستدرك: (٨٤٠٤).
(٢) الطبراني في الكبير: (٩٨٨٢).
(الْقُذَّة): ريش السهم، أي كما تُقَدَّر كل واحدة منهما على قدر صاحبتها وتقطع.
(٣) أبويعلى: (٦١٨٣).
(٤) مجمع الزوائد: (٧/ ٢٦٢-٢٧١).
(٥) صحيح ابن حبان: (٦٧٦٧)؛ مصنف ابن أبي شيبة: (٣٧٢٧٧)؛ البزار: (٢٣٥٣).

تطبيع أي رذيلة أن تفعل الفعلة في الأفلام، فتظهر بمظهر الشيء العادي المألوف الذي لا غبار عليه، بل الذي يدل على الذكاء والتحضر، وتنتشر بعرضها في دور العرض ثم في التلفزيون، ثم يبدأ بعضهم في التحرر من قيوده المتخلفة فيفعلها في الشارع، ثم يتبعه آخرون، حتى تصبح من الأشياء العادية التي لا ينتبه إليها أحد، ثم يتهم من لا يوافق على الأمر الواقع بالتخلف والجمود العقلي، ويكون أجدر به أن يعود إلى العصر الحجري الذي خرج منه، فلا يجرؤ حينئذ سياسي ولا مفكر ولا قسيس أن يعترض، وبذلك تكون قد تمت بنجاح عملية تطبيع هذه الرذيلة بالذات، ويكون ذلك النجاح تشجيعا لفاعليها على الانتقال إلى ما بعدها من الرذائل وتطبيعها باسم الحرية والتقدمية وحقوق الإنسان.

وأما نحن، فنحن صم عمي بُكْم لا نفقه ولا نستمع لمن يفقه، لا نرى ولا نريد أن نرى، ولذلك فسنظل لاهثين وراء الغرب تقليدًا، لا يوقفنا حياء ولا قِيَم، حتى نصل إلى هذا الحد المخيف من كل فجور وجنون سبقونا إليه، بما في ذلك الإلحاد الذي هو النتيجة الطبيعية لما هم فيه.

* * *

### ٣- الخوارج أو سرطان الدين:

إن الأمراض الخبيثة ما تبدأ إلا بخلية واحدة أو مجموعة صغيرة من الخلايا في الجسم تقرر أن نظام الجسم وقانونه الذي يسير عليه لا يناسبها، فتبدأ في تغيير نفسها إلى هيئة أخرى، ثم تنتشر بالانقسام وتوليد خلايا أخرى على شاكلتها، والتوسع بالضغط على جيرانها وتخللها وقتلها، وكذلك بإرسال وحدات صغيرة تسافر عبر الأوعية الدموية إلى أعضاء بعيدة مثل الكبد، والرئتين، والعمود الفقري، والمخ، حيث تتكاثر وتقتل ما حولها بنفس الطريقة، إما بالضغط عليها وإما بتخللها، وهكذا. والقضاء على الورم الأصلي لا يشفي المريض، إذ سرعان ما تظهر وتنشط بعض الخلايا التي انتقلت إلى الأعضاء الأخرى وتبدأ في مهاجمة الجسم ثانية.

والخلايا السرطانية ما هي إلا خلايا متمردة ترفض الخضوع للحكومة المركزية المنظمة والمنسّقة لوظائف الجسم، أي المخ والجهاز العصبي، بل تريد أن يتحول الجسم كله إلى خلايا مثلها، ولا تبالي بقتل الخلايا التي ليست على شاكلتها بدلاً من التعاون معها، ناسية من جهلها أنها لا تمتلك مقومات الحياة المستقلة، وإنما هي معتمدة على سائر الأعضاء لاستمرار حياتها، وهي بقتل الجسم إنما تقتل نفسها. وسيظهر فيما يأتي وجه تشبيه الخوارج بالمرض الخبيث.

أخبر النبي ﷺ أن أقوامًا يظهرون، لهم صفات بيّنها لنا لنعرفهم بها، يعيثون في الأرض فسادًا، يَدْعون إلى كتاب الله وهم ليسوا منه في شيء، كلامهم مناقض لفعالهم، يحدثون فتن عظيمة، يدّعون أنهم أهل الحق بينما هم شرار الخلق.

ويظهر من الأحاديث الخاصة بهؤلاء القوم أنهم فئتان، إحداهما تظهر في العصور الأولى للإسلام ويقاتلهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وفئة أخرى تظهر على شكل جماعات تتلو بعضها البعض على مر الزمن.

وقد ترك لنا ﷺ نماذج إرشادية توضيحية نستطيع بتطبيقها على الواقع أن نعرف كنه الشيء وحقيقته، ونشخص المرض أو الموقف، كي نستطيع أن نتعامل معه طبقًا للإرشادات النبوية. والنموذج يبرز الخصائص التي تجعلنا نتعرف على الشخص، أو على المجموعة من الأشخاص، أو الفرقة من الفرق، فنصل إلى قناعة لا شك فيها أن هؤلاء هم الذين تحدَّث عنهم المصطفى ﷺ.

ومن النماذج التوضيحية المهمة التي يجب أن ندرسها بعناية ونطبقها على الواقع تلك التي تتحدث عن أشخاص تجري في دمائهم الفتنة، أينما ظهروا ظهرت الفتنة معهم، ومن ذلك نموذج «ذي الخويصرة»، ونموذج «ذي السفعة»، ثم نموذج قرون الخوارج الذين لن يزالوا يخرجون حتى ينضم آخرهم إلى الدجال.

## النماذج التوضيحية:

### النموذج الأول: «ذوالخويصرة»:

بعث سيدنا علي كَرَّم الله وجهه إلى رسول الله ﷺ من اليمن ببعض المال، وصله وهو ﷺ بالْجِعْرَانَة، بعد هزيمة هوازن بحنين، فأخذ يوزعه ويتألف به قلوب صناديد أهل نجد الحديثي الإسلام. هَمْهَمَ بعض القرشيين من مسلمي الفتح الطلقاء، وبعض الأنصار أيضًا، قائلين: «يُعْطِي صَنَادِيدَ أَهْلِ نَجْدٍ وَيَدَعُنَا»، ولكن لم يتجرأ أحد منهم أن يواجه رسول الله ﷺ بهذا، فقد كانوا يعلمون -وإن كانت أنفسهم تحدثهم بالأحاديث- أنه رسول الله، وأن ما يفعله لا يكون إلا مطلق العدل. إلى أن جاء أحد الأعراب النجديين الغلاظ الأجلاف، فجاء النبي ﷺ من أمامه فلم يعطه، ثم جاءه من أحد جانبيه فلم يعطه، ثم جاءه من الجانب الآخر فلم يعطه، فقال له: «اتَّقِ اللَّهَ يَا مُحَمَّدُ إنّك لَمْ تَعْدِل!».

قال أبو سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ رضي الله عنه: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهْوَ يَقْسِمُ قَسْمًا أَتَاهُ ذو الْخُوَيْصِرَةِ -وَهْوَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ- فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اعْدِلْ!.

فَقَالَ: «**وَيْلَكَ، وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ، قَدْ خِبْتَ وَخَسِرْتَ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ**».

فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ائْذَنْ لِي فِيهِ، فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ.

فَقَالَ: «**دَعْهُ فَإِنَّ لَهُ أَصْحَابًا، يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلاَتَهُ مَعَ صَلاَتِهِمْ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ، يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لاَ يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، يُنْظَرُ إِلَى نَصْلِهِ فَلاَ يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى رِصَافِهِ فَمَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى نَضِيِّهِ -وَهْوَ قِدْحُهُ- فَلاَ يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى قُذَذِهِ فَلاَ يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، قَدْ سَبَقَ الْفَرْثَ وَالدَّمَ، آيَتُهُمْ رَجُلٌ أَسْوَدُ إِحْدَى عَضُدَيْهِ مِثْلُ ثَدْيِ الْمَرْأَةِ، أَوْ مِثْلُ الْبَضْعَةِ تَدَرْدَرُ وَيَخْرُجُونَ عَلَى حِينِ فُرْقَةٍ مِنَ النَّاسِ**».

قَالَ أَبو سَعِيدٍ: فَأَشْهَدُ أَنِّي سَمِعْتُ هَذا الْحَدِيثَ مِنْ رَسُول اللَّهِ ﷺ، وَأَشْهَدُ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ قَاتَلَهُمْ وَأَنَا مَعَهُ، فَأَمَرَ بذلِكَ الرَّجُلِ، فَالْتُمِسَ فَأُتِيَ بهِ حَتَّى نَظَرْتُ إِلَيْهِ عَلَى نَعْتِ النَّبِيِّ ﷺ الَّذِي نَعَتَهُ(١).

يرى «ذو الْخُوَيْصِرَة» أن رسول الله ﷺ ليس إلا بشر مثله، فلا يعترف له بالعصمة، ولا بالحكمة، ولا بالعدل، ويري بجهله أن العدل هو التسوية بين الناس في العطاء، بغض النظر عن المصالح الشرعية.

وفي رواية أخرى لأبي سعيد رضي الله عنه قال: بَعَثَ عَلِيٌّ رضي الله عنه إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بذُهَيْبَةٍ فَقَسَمَهَا بَيْنَ الأَرْبَعَةِ: الأَقْرَعِ بْنِ حَابِسٍ الْحَنْظَلِيِّ ثُمَّ الْمُجَاشِعِيِّ، وَعُيَيْنَةَ بْن بَدْرٍ الْفَزَارِيِّ، وَزَيْدٍ الطَّائِيِّ ثُمَّ أَحَدِ بَنِي نَبْهَانَ، وَعَلْقَمَةَ بْنِ عُلاَثَةَ الْعَامِرِيِّ، ثُمَّ أَحَدِ بَنِي كِلاَبٍ، فَغَضِبَتْ قُرَيْشٌ وَالأَنْصَارُ، قَالُوا: يُعْطِي صَنَادِيدَ أَهْلِ نَجْدٍ وَيَدَعُنَا.

قَالَ: «**إِنَّمَا أَتَأَلَّفُهُمْ**».

فَأَقْبَلَ رَجُلٌ غَائِرُ الْعَيْنَيْنِ مُشْرِفُ الْوَجْنَتَيْنِ، نَاتِئُ الْجَبِينِ، كَثُّ اللِّحْيَةِ، مَحْلُوقٌ فَقَالَ: اتَّقِ اللَّهَ يَا مُحَمَّدُ!.

فَقَالَ: «**مَنْ يُطِعِ اللهَ إِذَا عَصَيْتُ؟ أَيَأْمَنُنِي اللهُ عَلَى أَهْلِ الأَرْضِ فَلاَ تَأْمَنُونِي**»؟

فَسَأَلَهُ رَجُلٌ قَتْلَهُ -أَحْسِبُهُ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ- فَمَنَعَهُ، فَلَمَّا وَلَّى قَالَ: «**إِنَّ مِنْ ضِئْضِئِ هَذَا -أَوْ فِي عَقِبِ هَذَا- قَوْمٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ، لاَ يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ**

(١) صحيح البخاري: (٣٦١٠)؛ صحيح مسلم: (١٠٦٤).
(**الرَّمِيَّة**): الهدف، أي الحيوان الذي يرمى بالسهم. (**النَّصْل**): السن المعدني المدبب للسهم. (**الرصاف**): عقبة تلوى على موضع الفوق أو على قاعدة النصل. (**الفوقة**): موضع الوتر من السهم. (**النَّضِيّ**): القدح الذي ما بين الريش والنصل. (**القُذذ**): جمع قذة، وهي ريشة السهم.
أي أن كل السهم، من أوله إلى آخره، يمر بسرعة مخترقا الهدف، دون أن يعلق به منه شيء، لا دم، ولا فرث. أي أنهم يمرقون من الدين، أي يقطعونه عرضًا من ناحية إلى الأخرى، يمرون بكل جزء منه، ولكن لا يبقى معهم منه شيء.

**الدِّينِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ، يَقْتُلُونَ أَهْلَ الإِسْلاَمِ، وَيَدَعُونَ أَهْلَ الأَوْثَانِ، لَئِنْ أَنَا أَدْرَكْتُهُمْ لأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ»**(١).

من مجموع الأحاديث التي يذكر فيها هذا الرجل يعلم أنه بدوي من بني تميم، أسود اللون، محلوق الرأس، غائر العينين، ناتئ الجبين، بين عينيه أثر السجود، ناتئ الوجنتين، كث اللحية، عليه ثوبان أبيضان، مشمر الإزار، أو مقلص الثياب، أي ثيابه قصيرة، مرتفعة فوق سيقانه. هذا أول الجهال، أهل الْكِبْر، الذين يظنون أنهم أعلم من رسول الله ﷺ. وإذا كان هذا قد اعترض على النبي ﷺ في وجهه، فهو وأمثاله يكونون بعد وفاته ﷺ وعلى خلفائه، ثم على من بعدهم من الحكام أشد اعتراضًا، ولذلك قال النبي ﷺ : «إن من شيعته»، و«إن من أصحابه»، و«إن من ضئضئ هذا»، يعني من ذريته المعنوية، من هم على مذهبه وعلى شاكلته.

**النموذج الثاني: (ذو السفعة):**

هذا رجل كان في عهد النبي ﷺ وكان كثير الجهاد، كثير العبادة، يتحدث الناس عنه أنه من العُبّاد. دخل هذا الرجل المسجد يومًا فوجد النبي ﷺ وأكابر أصحابه ﷺ، فحدثته نفسه أنه خير منهم، أي خير من أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وسائر الأكابر ﷺ، ثم تركهم إذ كان يعتقد أنه في صلته بربه غير محتاج لنبي يتعلم منه، ويتربى به، ويتنور قلبه من مجالسته، ولا يحتاج لدعوته ولا لشفاعته، ولا يحتاج لأصحاب النبي الأكابر ينظر إليهم، ويقتدي بأفعالهم، ويقلدهم في جلوسهم حول نبيهم في أدب وخشوع، كأن على رؤوسهم الطير، فتركهم -ترك مجلس سيد الأنبياء وسادات الصحابة- ودخل المسجد، فوقف إلى سارية من السواري يصلي. المرض الذي في قلب هذا الرجل إذاً ما هو إلا مرض إبليس: الْكِبْر.

(١) صحيح البخاري: (٣٣٤٣)؛ صحيح مسلم: (١٠٦٤).
(صَنَادِيد): الصَّنَادِيدُ الساداتُ وهم الأَجواد وهم الحُلَماء، وفي الحديث ذكر صناديد أهل نجد وهم أَشْرافُهُم وعُظماؤُهم، الواحد (صِنْدِيد). وكل عظيم غالب: صِنْدِيد. (مُشْرِف): مرتفع. (ناتِئُ): مرتفع. (كَثُّ اللحية): كثيف اللحية.

أخبرهم النبي ﷺ أنه يرى على وجهه علامة من علامات الشيطان، فالسفعة العلامة، وهي غير الصفعة[1]، وأخبرهم أنه من أصول الفتنة في هذه الأمة، أي أن أمثاله الذين يحطون من مقام النبي ﷺ وأصحابه، ويعلنون استغنائهم عنهم، ويتعمقون في الدين على جهل، ويأكل صدورهم سرطان الكبر، هم الذين تخرج منهم الفتنة قرنًا بعد قرن. أما الأصحاب ﷺ أجمعين فعلى النقيض من ذلك، بتواضعهم الجم، وأدبهم المحمدي، كانوا يرون أنه لكثرة صلاته خيرًا منهم.

عن أَنَس بن مَالِك ﷺ قَالَ: «كَانَ رَجُلٌ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَغْزُو مَعَ رَسُولِ اللهِ، فَإِذَا رَجَعَ وَحَطَّ عَنْ رَاحِلَتِهِ عَمَدَ إِلَى مَسْجِدِ الرَّسُول فَجَعَلَ يُصَلِّي فِيهِ فَيُطِيلُ الصَّلاَةَ، حَتَّى جَعَلَ بَعْضُ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ يَرَوْنَ أَنَّ لَهُ فَضلاً عَلَيْهِم؛ فَمَرَّ يَوْمًا وَرَسُولُ اللهِ ﷺ قَاعِدٌ فِي أَصْحَابِهِ، فَقَالَ لَهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ: يَا نَبِيّ اللهِ، هَوَ ذاكَ الرَّجُلُ، فَإِمَّا أَرْسَلَ إِلَيْهِ نَبِيُّ اللهِ، وَإِمَّا جَاءَ مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ، فَلَمَّا رآه رَسُولُ الله ﷺ مُقْبلاً، قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ بَيْنَ عَيْنَيْهِ سُفْعَةً مِنَ الشَّيْطَانِ**» فَلَمَّا وَقَفَ عَلَى الْمَجْلِسِ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَقُلْتَ فِي نَفْسِكَ حِينَ وَقَفْتَ عَلَى المَجْلِسِ: لَيْسَ فِي الْقَوْمِ خَيْرٌ مِنِّي**»؟ قَالَ: نَعَمْ، ثُمَّ انْصَرَفَ فَأَتَى نَاحِيَةً مِنَ الْمَسْجِدِ، فَخَطَّ خَطًّا برِجْلِهِ، ثُمَّ صَفَ كَعْبَيْهِ فَقَامَ يُصَلِّي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَيُّكُمْ يَقُومُ إِلَى هَذَا فَيَقْتُلُهُ**»؟ فَقَامَ أَبو بَكْرٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ: «**أَقَتَلْتَ الرَّجُلَ**»؟ فَقَالَ: وَجَدْتُهُ يُصَلِّي فَهِبْتُهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَيُّكُمْ يَقُومُ إِلَى هَذَا فَيَقْتُلُهُ**»؟ فَقَالَ عُمَرُ: أَنَا، وَأَخَذَ السَّيْفَ، فَوَجَدَهُ قَائِمًا يُصَلِّي، فَرَجَعَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِعُمَرَ: «**أَقَتَلْت الرجل**»؟ قَالَ: يَا نَبِيَّ اللهِ وَجَدْتُهُ يُصَلِّي فَهِبْتُهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَيُّكُمْ يَقُومُ إِلَى هَذَا فَيَقْتُلُهُ**»؟ قَالَ عَلِيٌّ: أَنَا، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَنْتَ لَهُ إِنْ أَدْرَكْتَهُ**»، فَذَهَبَ عَلِيٌّ فَلَمْ يَجِدْهُ، فَرَجَعَ، فَقَالَ

(١) العلامة التي رآها النبي ﷺ علامة ظهرت له بنور النبوة في باطن الرجل، أي هيئته النفسية، لا ظاهره، فالصحابة ﷺ لم يلاحظوا على ظاهره شيئًا.

رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَقَتَلْتَ الرَّجُلَ**»؟ قَالَ: لَمْ أَدْرِ أَيْنَ سَلَكَ مِنَ الأَرْضِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ هَذَا أَوَّلُ قَرْنٍ خَرَجَ مِن أُمَّتِي**»، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَوْ قَتَلْتَهُ أَو قَتَلَهُ مَا اخْتَلَفَ فِي أُمَّتِي اثْنَانِ، إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَفَرَّقُوا عَلَى وَاحِدٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَإِنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ** -يَعْنِي أُمَّتَهُ- **سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلاَّ فِرْقَةً وَاحِدَةً**»، فَقُلْنَا: يَا نَبِيَّ اللهِ، مَنْ تِلْكَ الْفِرْقَةُ؟ قَالَ: «الجَمَاعَةُ»، قَالَ يَزِيدُ الرَّقَاشِيُّ (راوي الحديث عن أنس): فَقُلْتُ لأَنَسٍ: يَا أَبَا حَمْزَةَ، وَأَيْنَ الْجَمَاعَةُ؟ قَالَ: مَعَ أُمَرَائِكُمْ، مَعَ أُمَرَائِكُمْ[1].

وفي رواية أخرى عن أنس بن مالك رضي الله عنه قَالَ: كَانَ فِي عَهْدِ رَسُول اللهِ ﷺ رَجُلٌ يُعْجِبُنَا تَعَبُّدُهُ وَاجْتِهَادُهُ، فَذَكَرْنَا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ بِاسْمِهِ فَلَمْ يَعْرِفْهُ، وَوَصَفْنَاهُ بِصِفَتِهِ فَلَمْ يَعْرِفْهُ، فَبَيْنَمَا نَحْنُ نَذْكُرُهُ إِذْ طَلَعَ الرَّجُلُ، قُلْنَا: هَا هُوَ ذا.

قَالَ: «**إِنَّكُمْ لَتُخْبِرُونِي عَنْ رَجُلٍ، إِنَّ عَلَى وَجْهِهِ سَفْعَةً مِنَ الشَّيْطَانِ**». فَأَقْبَلَ حَتَّى وَقَفَ عَلَيْهِمْ وَلَمْ يُسَلِّمْ.

فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَنْشَدْتُكَ بِالله، هَلْ قُلْتَ حِينَ وَقَفْتَ عَلَى المَجْلِسِ: مَا فِي الْقَوْمِ أَحَدٌ أَفْضَلُ مِنِّي، أَوْ أَخْيَرُ مِنِّي**»؟ قَالَ: اللَّهُمَّ نَعَمْ. ثُمَّ دَخَلَ يُصَلِّي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ يَقْتُلُ الرَّجُلَ**»؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا، فَدَخَلَ عَلَيْهِ فَوَجَدَهُ قَائِمًا يُصَلِّي، فَقَالَ: سُبْحَانَ اللهِ أَقْتُلُ رَجُلاً يُصَلِّي، وَقَدْ نَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ قَتْلِ الْمُصَلِّينَ؟ فَخَرَجَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا فَعَلْتَ**»؟ قَالَ: كَرِهْتُ أَنْ أَقْتُلَهُ وَهُوَ يُصَلِّي، وَقَدْ نَهَيْتَ عَنْ قَتْلِ الْمُصَلِّينَ. قَالَ عُمَرُ: أَنَا. فَدَخَلَ فَوَجَدَهُ وَاضِعًا وَجْهَهُ، فَقَالَ عُمَرُ: أَبُو بَكْرٍ أَفْضَلُ مِنِّي، فَخَرَجَ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَهْ**»؟ قَالَ: وَجَدْتُهُ وَاضِعًا وَجْهَهُ، فَكَرِهْتُ أَنْ أَقْتُلَهُ، فَقَال: «**مَنْ يَقْتُلُ الرَّجُلَ**»؟ فَقَالَ عَلِيٌّ: أَنَا.

---

(١) مسند أبي يعلى: (٤١٢٧)؛ أبونعيم في حلية الأولياء: (٣/ ٥٢)؛ الدارقطني: (٧)؛ مصنف عبد الرزاق: (١٠/ ١٥٥)؛ مجمع الزوائد: (٦/ ٢٢٦).

قَالَ: «**أَنْتَ إِنْ أَدْرَكْتَهُ**». قَالَ: فَدَخَلَ عَلِيّ فَوَجَدَهُ قَدْ خَرَجَ، فَرَجَعَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «مَه»؟ قَالَ: وَجَدْتُهُ قَدْ خَرَجَ، قَالَ: «**لَوْ قُتِلَ مَا اخْتَلَفَ فِي أُمَّتِي رَجُلاَنِ. كَانَ أَوَّلَهُمْ وآخِرَهُمْ**». قَالَ مُوسَى (وهو أحد الرواة) سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ كَعْبٍ يَقُولُ: هُوَ الَّذِي قَتَلَهُ عَلِيّ ذا الثَّدَيَّةِ[1].

وعن أَبِي بَكْرَةَ ﷺ أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ مَرَّ بِرَجُلٍ سَاجِدٍ وَهُوَ يَنْطَلِقُ إِلَى الصَّلاَةِ، فَقَضَى الصَّلاَةَ وَرَجَعَ عَلَيْهِ وَهُوَ سَاجِدٌ، فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «**مَنْ يَقْتُلُ هَذَا**»؟ فَقَامَ رَجُلٌ فَحَسَرَ عَنْ يَدَيْهِ، فَاخْتَرَطَ سَيْفَهُ وَهَزَّهُ، ثُمَّ قَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي كَيْفَ أَقْتُلُ رَجُلاً سَاجِدًا، يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، ثُمَّ قَالَ: «**مَنْ يَقْتُلُ هَذَا**»؟ فَقَامَ رَجُلٌ، فَقَالَ: أَنَا، فَحَسَرَ عَنْ ذِرَاعَيْهِ، وَاخْتَرَطَ سَيْفَهُ وَهَزَّهُ حَتَّى أَرْعَدَتْ يَدُهُ، فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللهِ كَيْفَ أَقْتُلُ رَجُلاً سَاجِدًا يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ قَتَلْتُمُوهُ لَكَانَ أَوَّلَ فِتْنَةٍ وَآخِرَهَا**»[2].

وعَنْ أَبِي سَعِيد الْخُدْرِيّ ﷺ أنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدّيق جَاءَ إِلَى رَسُول اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي مَرَرْتُ بِوَادِي كَذَا وَكَذَا، فَإِذَا رَجُلٌ مُتَخَشِّعٌ حَسَنُ الْهَيْئَةِ يُصَلِّي، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**اذْهَبْ إِلَيْهِ فَاقْتُلْهُ**». قَالَ: فَذَهَبَ إِلَيْهِ أَبو بَكْرٍ، فَلَمَّا رَآهُ عَلَى تِلْكَ الْحَال كَرِهَ أَنْ يَقْتُلَهُ، فَرَجَعَ عَلَى رَسُول اللَّهِ ﷺ، قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعُمَرَ: «**اذْهَبْ فَاقْتُلْهُ**». فَذَهَبَ عُمَرُ فَرَآهُ عَلَى تِلْكَ الْحَال الَّتِي رَآهُ أَبو بَكْرٍ، قَالَ: فَكَرِهَ أَنْ يَقْتُلَهُ، -قَالَ- فَرَجَعَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي رَأَيْتُهُ يُصَلِّي مُتَخَشِعًا فَكَرِهْتُ أَنْ أَقْتُلَهُ. قَالَ: «**يَا عَلِيُّ اذْهَبْ فَاقْتُلْهُ**». قَالَ: فَذَهَبَ عَلِيٌّ فَلَمْ يَرَهُ، فَرَجَعَ عَلِيٌّ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَمْ أَرَهُ. قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ هَذَا وَأَصْحَابَهُ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لاَ يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ،**

---

(١) مسند أبي يعلى: (٩٠، ٤١٤٣).

(٢) مسند الإمام أحمد: (٥/ ٤٢)؛ مسند الحارث: (٧٠٣). حَسَرَ: كشف. اخْتَرَطَ: سَلَّ السيف من غِمْده.

**يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، ثُمَّ لاَ يَعُودُونَ فِيهِ حَتَّى يَعُودَ السَّهْمُ فِي فُوقِهِ، فَاقْتُلُوهُمْ، هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ»**[(1)].

وعن جابر ﷺ قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَأَقْبَلَ رَجُلٌ، فَلَمَّا رَآهُ الْقَوْمُ أَثْنَوْا عَلَيْهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنِّي لأَرَى عَلَى وَجْهِهِ سَفْعَةً مِنَ النَّارِ**»، فَلَمَّا جَاءَ وَجَلَسَ، قَالَ: «**أَنْشُدُكَ بِالله، أَجِئْتَ وَأَنْتَ تَرَى أَنَّكَ أَفْضَلُ الْقَوْمِ**»؟ قَالَ: نَعَمْ[(2)].

ويلاحظ أن هذا الرجل من العبّاد، ولكنه مع ذلك من الذين استحوذ عليهم الشيطان. وقد رأى النبي ﷺ ذلك بنور النبوة، وأصدر حكمًا عليه بالإعدام[(3)]، وهو يعلم تمامًا أن الحكم لن ينفّذ، ولكن لتعليم الأمة عِظَم ما عليه أمثال هذا من الْجُرْم وعِظَم خطرهم على الأمة، فهو يجاهد مع المسلمين، وهو كثير العبادة، ولكنه مريض القلب، ومرضه الأول الكبر، يظن أنه ليس في القوم خير منه، ومرضه الثاني الجهل وطمس البصيرة، وهكذا الكبر لا يكون إلا مع الجهل، وبسبب هذين المرضين ظن أنه لا يحتاج إلى مجلس رسول الله ﷺ بل يستغني عنه بصلاته منفردًا.

**النموذج الثالث: عامة الخوارج:**

النموذج الثالث هو نموذج عام لكل خارجي منذ بداية الخوارج وحتى ينضم آخرهم إلى الدجال.

والأحاديث الكثيرة التي تصفهم تتفق كلها في صفات مشتركة، وهي أنهم من الشباب الذين يتعمقون في الدين فيظنهم الناظر إليهم عبّادًا، ويسمعهم السامع يقولون خير الكلام، ولكنهم يفعلون شر الأعمال.

(١) مسند الإمام أحمد: (١١١٣٣)؛ مجمع الزوائد: (٦/ ٢٢٥).

(٢) البيهقي في شعب الإيمان: (٨٢٥٤).

(٣) إصدار مثل هذا الحكم معلوم أنه من خصائص النبوة، يعتمد على رؤية النبي ﷺ لهيئته النفسية، وعلمه أن هذا الرجل نموذج للفتنة التي ستسري في أمته. أما الحكم الشرعي فهو الحكم بالظواهر، وعلى هذا سار الخلفاء الراشدون ﷺ.

وتفصيل وصفهم كالأتي: قَالَ عَلِيٌّ ﵁: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**يَأْتِي فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ حُدَثَاءُ الأَسْنَانِ، سُفَهَاءُ الأَحْلاَمِ، يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ الْبَرِيَّةِ، يَمْرُقُونَ مِنَ الإِسْلاَمِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، لاَ يُجَاوِزُ إِيمَانُهُمْ حَنَاجِرَهُمْ، فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ، فَإِنَّ قَتْلَهُمْ أَجْرٌ لِمَنْ قَتَلَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[1]، فهم قوم حدثاء أو أحداث الأسنان، أي صغار السن، من الشباب؛ سفهاء الأحلام، أي ضعفاء العقول، عديمي البصيرة. يحسنون القول ويسيئون العمل. سيماهم التحليق، يقرأون القرآن. هم قوم يتعبدون، ويتعمقون في الدين، يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يقولون من خير قول الناس، ولكنهم في الحقيقة: «شرار الخلق والخليقة»، لماذا؟؛ لأنهم مع أنهم يقرأون القرآن كثيرًا، إلا أنه لا يجاوز تراقيهم، أي لا يصل إلى بواطنهم فينورها، ولا يحصل لهم منه الهدى والعلم والرحمة.

وفي رواية لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، أي أن إيمانهم كله على اللسان، ولم تصل حلاوته إلى قلوبهم. فهم لغلوهم، أي لتطرفهم، يخرجون من الدين سريعًا، كما يخرج السهم من جسم الحيوان، إذا دخل من ناحية وخرج من الناحية الأخرى، ولذلك فإنهم إذا خرجوا من الدين استمرؤا ما هم عليه من البغي والجبروت ولم يعودوا فيه أبدًا. يخرجون على حين فرقة واختلاف من الناس، يرمون المسلمين بالشرك، فيقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان.

**لماذا يقتلون أهل الإسلام؟**

يجيب على هذا السؤال عبد الله بن عمر ﵄ بقوله: «إِنَّهُمُ انْطَلَقُوا إِلَى آيَاتٍ نَزَلَتْ فِي الْكُفَّارِ فَجَعَلُوهَا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ»[2]، أي يطبقون على المسلمين آيات: ويحسبون أن القرآن لهم وهو عليهم[3]، أمر النبي ﷺ من لقيهم بقتلهم، وبشّر من

(١) صحيح البخاري: (٣٤١٥، ٤٧٧٠)؛ صحيح مسلم: (١٠٦٦)؛ سنن الترمذي: (٢١٨٨)؛ سنن أبي داود: (٤٧٦٧)؛ سنن النسائي: (٤١٠٢)؛ سنن ابن ماجه: (١٦٨).

(٢) فتح الباري: (١٢/ ٢٨٢، ٢٨٦).

(٣) صحيح مسلم: (١٠٦٦)؛ سنن أبي داود: (٤٧٦٨).

يقتلوه ممن حاربهم بأنهم من خير الشهداء. وقال ﷺ أنه لو أدركهم لقتلهم مثل عاد، أي لمّا كانوا عتاة جبارين كقوم عاد، وجب قتلهم استئصالاً كما استؤصلت قبيلة عاد عن آخرها.

وقد وصفهم ﷺ بأنهم منّا، أبناء جلدتنا، يتكلمون لغتنا، ولكنهم دعاة إلى أبواب جهنم، من أجابهم قذفوه فيها. فلما سأله حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ ﵁: يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا، فَقَالَ: «**هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا، وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا**»، قَالَ: فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذلِكَ؟ قَالَ ﷺ: «**تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ**». قَالَ: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلاَ إِمَامٌ؟ قَالَ ﷺ: «**فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا، وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ**»(١).

أمر النبي ﷺ باعتزال الفرق كلها في الفتنة؛ لأن خطر الانسياق وراءهم كبير، فهم يثيرون في الشباب القليلي العلم والفطنة خوف أن يكون جبانا، يهرب من الجهاد في سبيل الله، يتخلف عن الكفاح المسلح ضد الظلم والطغيان، وخصوصًا وأن عامة الناس يجهلون الأحكام الشرعية المتعلقة بشروط وضوابط الجهاد والمجاهدين، وكذلك علم فتن آخر الزمان، فيسهل تضليلهم عن طريق العواطف.

وفي حديث عجيب يصف ما يحدث بيننا وصفًا معجزًا، وينبغي أن يكون تحذيرًا وافيًا كافيًا لكل من يدفعه غضبه وغيظه إلى العمل العشوائي، يقول ﷺ: «**إِنَّمَا أَتَخَوَّفُ عَلَيْكُمْ رَجُلاً قَرَأَ الْقُرْآنَ حَتَّى إِذَا رُئِيَتْ عَلَيْهِ بَهْجَتُهُ وَكَانَ رِدْءًا للإِسْلامِ اعْتَزَلَ إِلَى مَا شَاءَ اللهُ، وَخَرَجَ عَلَى جَارِهِ بِسَيْفِهِ، وَرَمَاهُ بِالشِّرْكِ**»(٢)، هذا وصف دقيق، غاية في الدقة، للمتطرفين ممن يدعون أنهم إسلاميون، فهم يقرأون القرآن، ويحفظونه، ويجودونه، ويحسنون القلقلة والغنة، ويسيرون لبعض الوقت في طريق لو استمروا فيه لصاروا

(١) صحيح البخاري: (٣٦٠٦).
(٢) صحيح ابن حبان: (٨١).

من صالحي المسلمين الذين يُصلحون ولا يُفسدون، فيكونون عندئذ أنصارًا للإسلام وقوة للمسلمين، ولكنهم لا يلبثوا أن يقولوا: «إلى متى نظل أذلة؟ إلى متى نظل سكوت؟» فيعتزلوا الناس، فيجلسوا مع بعضهم البعض، فيقرأون النصوص، ويؤولونها بعلمهم المحدود، وكما تمليه عليهم أهواؤهم والغيظ الذي يشعله في قلوبهم ما يشاهدونه حولهم من الفساد، ونحن إذ لا ننكر أن هذا الغيظ في محله، إلا أنا نقيده بقيوده الشرعية، فلا نترك العواطف تتحكم في قراراتنا وتصرفاتنا، بل نحن أمة العلم، والعقل، والإذعان للحق وإن كان مرّاً.

يتجنب هؤلاء مجالسة العلماء، ولا يسألونهم عما يستشكل عليهم، ويرونهم خونة باعوا دينهم بدنياهم، بل كفرة ومشركين، فلا يعتمدون إلا على أنفسهم في إصدار الفتاوى بتكفير هذا، وتشريك هذا، وتبديع هذا، واستحلال دم هذا، فإذا ساروا على هذا المنهج فما يلبثوا إلا أن ينسلخوا عن الإسلام، ثم يخرجوا على المسلمين بسلاحهم، ويقتلونهم تقربا إلى الله ﷻ وهم يظنون أنهم يحسنون صنعا. فهل رأيت الصادق المصدوق ﷺ ينبه ويحذر من هذا الأمر بأوضح من هذا الحديث؟

إن المرض المشترك بين أصحاب النماذج الثلاثة هو الكبر، وهو مرض إبليس الذي أخرجه من الجنة حين قال: «أنا خير منه» والكبر عرّفه النبي ﷺ بأنه بطر الحق، أي إنكاره، وغمط الناس، أي ظلمهم[1].

هذا -مرض الكِبْر- هو الذي يمنعهم من حسن الظن بالله ورسوله، وقد منعهم يومًا من حسن الظن في الصحابة ﷺ والاقتداء بهم، ويمنعهم من التعلم، ويدفعهم إلى انتقاد الآخرين، والحط من قدرهم، وعدم احترام آرائهم، ابتداءً من رسول الله ﷺ، والخلفاء الراشدين من بعده، ثم العلماء العاملين الذين هم ورثة الأنبياء وخلفاء النبوة في كل عصر، وإلى آخر الزمان.

(١) صحيح مسلم: (٩٠)؛ سنن الترمذي: (١٩٩٩)؛ سنن أبي داود: (٤٠٩٢).

**القرن الأول من الخوارج:**

وهم الذين خرجوا على الإمام علي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه في صفين، ورفضوا الاستماع إليه وإلى أكابر الصحابة ﷺ، ورفضوا الاستمرار في القتال كما كان يأمرهم، ثم رفضوا التحكيم بعد ذلك. وكان النبي ﷺ قد أخبر علياً ﷺ خبرهم من قبل.

كَانَ عَلِيّ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ جَالِسًا فِي بَعْضِ أَمْرِ النَّاسِ، إذ جَاءَهُ رَجُلٌ عَلَيْهِ ثِيَابُ السَّفَرِ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، فَشَغَلَ عَلِيًّا مَا كَانَ فِيهِ مِنْ أَمْرِ النَّاسِ، سأل الراوي الرجل: مَا شَأْنُكَ؟ قَالَ: كُنْتُ حَاجًّا أَوْ مُعْتَمِرًا، (قال الراوي: لاَ أَدْرِي أَيُّ ذلِكَ قَالَ) فَمَرَرْتُ عَلَى عَائِشَةَ فَقَالَتْ: مَنْ هَؤُلاَءِ الْقَوْمِ الَّذِينَ خَرَجُوا قِبَلَكُمْ يُقَالُ لَهُمُ الْحَرُورِيَّةُ؟ قَالَ: قُلْتُ: فِي مَكَانٍ يُقَالُ لَهُ حَرُورَاءُ، فَسُمُّوا بِذلِكَ الْحَرُورِيَّةَ، قَالَ: فَقَالَتْ: طُوبَى لِمَنْ شَهِدَ هَلَكَتَهُمْ، قَالَتْ: أَمَا وَاللهِ لَوْ سَأَلْتُمُ ابْنَ أَبِي طَالِبٍ لأَخْبَرَكُمْ خَبَرَهُمْ.

قال الراوي: فَمِنْ ثَمَّ جِئْتُ أَسأَلُهُ عَنْ ذَلِكَ، فلمَّا فَرَغ عَلِيّ قَالَ: أَيْنَ الْمُسْتَأْذِنُ؟ فَقَامَ عَلَيْهِ فَقَصَّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا قَصَّ عَلَيَّ، فَأَهَلَّ عَلَيٌّ ثَلاَثاً، ثُمَّ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَلَيْسَ عِنْدَهُ أَحَدٌ إِلاَّ عَائِشَةَ، فَقَالَ لِي: «**يَا عَلِيُّ، كَيْفَ أَنْتَ وَقَوْمٌ يَخْرُجُونَ بِمَكَانِ كَذَا وَكَذَا، وَأَوْمَأَ بِيدِهِ نَحْوَ الْمَشْرِقِ، يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لاَ يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ أَو تَرَاقِيَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الإِسْلامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، فِيهِمْ رَجُلٌ مُخْدَجُ الْيَدِ كَأَنَّ يَدَهُ ثَدْيُ حَبَشِيَّةٍ**»، ثُمَّ قَالَ: «**نَشَدْتُكُمْ بِاللهِ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ، أَحَدَّثْتُكُمْ أَنَّهُ فِيهِمْ**»، قَالُوا: نَعَمْ، فَذَهَبْتُمْ فَالْتَمَسْتُمُوهُ ثُمَّ جِئْتُمْ بِهِ تَسْحَبُونَهُ كَمَا نُعِتَ لَكُم، قَالَ: ثُمَّ قَالَ: صَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ[1].

في هذه الرواية أشار النبي ﷺ بيده الشريفة نحو المشرق، وأراد بذلك العراق،

(١) مسند أبي يعلى: (٤٧٢)؛ مجمع الزوائد: (٦/ ٢٣٩).

ووصفهم بالوصف الذي سوف ينطبق بعدهم على كل قرن من الخوارج يخرج في هذه الأمة، وأنهم يقرأون القرآن ولكنه لا ينفذ إلى قلوبهم، ولا ينورها، ولا يلينها، ولا يدخل فيها الحكمة، وأنهم بتشددهم هذا يخرجون من الدين بالكلية.

أما العلامة الخاصة بهذا القرن بالذات فهي وجود المخدج فيهم ليكون شاهدًا ودليلاً على أنهم هم المقصودون بالحديث، الملعونون على لسان النبي ﷺ وعلى أن الإمام على هو الذي معه الحق، وهو المأمور بقتلهم شر قتلة.

وقد رفع الخوارج حينذاك شعار: «لا حكم إلا لله!» ولا يزالون يرفعونه إلى يومنا هذا، وهي كلمة حق أريد بها باطل، كلما خرجت جماعة تعيث في الأرض قتلاً وفسادًا سمعنا ذلك منهم. وقد كانوا يرفعون أصواتهم بهذا الشعار أثناء ما كان الإمام علي كرم الله وجهه يخطب في مسجد الكوفة، يشوشون عليه خطبته، ويوهمون الناس أنهم على حق، ويهيجون عواطف الجهلاء. وفي إحدى هذه المرات رد عليهم الإمام علي مبيناً لهم موقفه منهم، وهو موقف خال من العواطف وهوى النفس، قائم على الحق والشرع. وفي مرة أخرى بيّن لأصحابه وللمسلمين أن ما يريده هؤلاء ما هو إلا إحلال الفوضى في الأرض وإشعال الفتنة. ففي المرة الأولى جاء رجل وعلي كرم الله وجهه يخطب، فقال: لاَ حُكْمَ إِلاَّ للهِ، ثُمَّ قَامَ آخَرُ فَقَالَ: لاَ حُكْمَ إِلاَّ للهِ، ثُمَّ قَامُوا مِنْ نَوَاحِي الْمَسْجِدِ يُحَكِّمُونَ اللهَ.

فَأَشَارَ عَلَيْهِمْ بِيَدِهِ: اجْلِسُوا، نَعَمْ لاَ حُكْمَ إِلاَّ للهِ، كَلِمَةُ حَقٍّ يُبْتَغَى بِهَا بَاطِلٌ، حُكْمُ اللهِ يُنْتَظَرُ فِيكُمْ، الآنَ لَكُمْ عِنْدِي ثَلاَثُ خِلاَلٍ:

مَا كُنْتُمْ مَعَنَا لَنْ نَمْنَعُكُمْ مَسَاجِدَ اللهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ،

وَلاَ نَمْنَعُكُمْ فَيْئًا مَا كَانَتْ أَيْدِيكُمْ مَعَ أَيْدِينَا،

وَلاَ نُقَاتِلُكُمْ حَتَّى تُقَاتِلُوا، ثُمَّ أَخَذَ فِي خُطْبَتِهِ(١).

(١) مصنف ابن أبي شيبة: (٣٧٩٣٠).

وقد أخذ الفقهاء فيما بعد من موقفه هذا وسائر مواقفه في مواجهة الخوارج ما سمّوه بأحكام البغاة، فهو أول من منع السبي والغنيمة ومطاردة الفارين من ميدان القتال عند تقاتل المسلمين، ولم يكن أحد من الخلفاء قد قاتل مسلمين قبله.

وفي المرة الثانية: دَخَلَ رَجُلٌ الْمَسْجِدَ فَقَالَ: لاَ حُكْمَ إِلاَّ للهِ، ثُمَّ قَالَ آخَرُ: لاَ حُكْمَ إِلاَّ للهِ.

فَقَالَ عَليٌّ: لاَ حُكْمَ إِلاَّ للهِ، إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لاَ يُوقِنُونَ. فَمَا تَدْرُونَ مَا يَقُولُ هَؤْلاءِ؟ يَقُولونَ: لاَ إِمَارَةَ، أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ لاَ يُصْلِحُكُمْ إِلاَّ أَمِيرٌ، بَرٌّ أو فَاجِرٌ.

قَالُوا: هَذَا الْبَرُّ قَدْ عَرَفْنَاهُ، فَمَا بَالُ الْفَاجِرِ؟

فَقَالَ: يَعْمَلُ الْمُؤْمِنُ وَيُمْلِي لِلْفَاجِرِ، وَيُبَلِّغُ اللهُ الأَجَلَ، وَتأْمَنُ سُبُلُكُمْ، وَتَقُومُ أَسْوَاقُكُمْ، وَيُقَسَّمُ فَيْؤُكُمْ، وَيُجَاهَدُ عَدُوُّكُمْ، وَيُؤْخَذُ للضَّعِيف مِنَ الْقَوِيُّ، أَوْ قَالَ: مِنَ الشَّدِيدِ مِنْكُمْ[(١)].

هكذا يبيّن الإمام علي كرم الله وجهه كيف أن الإسلام دين الواقع، وليس دين أحلام اليقظة والمطامع المثالية الخيالية التي لا تحتمل التطبيق، وكيف أنه من القواعد الحيوية عند المسلمين تجنب الفتنة بأي ثمن. أوضح رضي الله عنه أن الحاكم الفاجر خير من لا حاكم، فإن الحاكم الفاجر يحافظ على الأمن الداخلي فيقمع المجرمين، وعلى الأمن الخارجي فيدفع عن الدولة الأعداء، وعلى النظام في المعاملات بين الناس فتقوم الأسواق ويحدث تبادل المنفعة، ويعيّن القضاة حتى يستطيع الضعيف أن ينال حقه ممن هو أقوى منه.

ولكن استمر هذا الشباب الجاهل المتكبر يناصب الخليفة الراشد العداء حتى خرجوا عليه، ودعوا الناس إليهم، واشتدت الفتنة.

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة: (٣٧٩٣١).

قال عَبْدُ اللَّهِ بن عَبَّاسٍ ﷺ: لَمَّا اعْتَزَلَتْ حَرُورَاءَ (يعني: الحرورية)، وَكَانُوا فِي دَارٍ عَلَى حِدَتِهِمْ، قُلْتُ لِعَلِيٍّ: «يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَبْرِدْ عَنِ الصَّلاةِ لَعَلِّي آتِي هَؤُلاءِ الْقَوْمَ، فَأُكَلِّمَهُمْ»، قَالَ: «فَإِنِّي أَتَخَوَّفُهُمْ عَلَيْكَ»، قَالَ: قُلْتُ: «كَلا إِنْ شَاءَ اللَّهُ»، قَالَ: فَلَبِسْتُ أَحْسَنَ مَا أَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ هَذِهِ الْيَمَانِيَّةِ، ثُمَّ دَخَلْتُ عَلَيْهِمْ وَهُمْ قَائِلُونَ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ، فَدَخَلْتُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ أَرَ قَوْمًا قَطُّ أَشَدَّ اجْتِهَادًا مِنْهُمْ، أَيْدِيهِمْ كَأَنَّهَا ثَفِنُ الإِبِلِ، وَوُجُوهُهُمْ مُعَلَّبَةٌ مِنْ آثَارِ السُّجُودِ، قَالَ: فَدَخَلْتُ، فَقَالُوا: مَرْحَبًا بِكَ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ، مَا جَاءَ بِكَ؟ قَالَ: «جِئْتُ أُحَدِّثُكُمْ عَنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، نَزَلَ الْوَحْيُ وَهُمْ أَعْلَمُ بِتَأْوِيلِهِ»، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لا تُحَدِّثُوهُ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَنُحَدِّثَنَّهُ، قَالَ: قُلْتُ: «أَخْبِرُونِي مَا تَنْقِمُونَ عَلَى ابْنِ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَخَتَنِهِ، وَأَوَّلِ مَنْ آمَنَ بِهِ، وَأَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَعَهُ»؟ قَالُوا: نَنْقِمُ عَلَيْهِ ثَلاثًا، قُلْتُ: «مَا هُنَّ»؟ قَالُوا: أَوَّلُهُنَّ أَنَّهُ حَكَّمَ الرِّجَالَ فِي دِينِ اللَّهِ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ: ﴿**إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ**﴾[1].

قَالَ: قُلْتُ: وَمَاذَا؟ قَالُوا: وَقَاتَلَ وَلَمْ يَسْبِ وَلَمْ يَغْنَمْ، لَئِنْ كَانُوا كُفَّارًا لَقَدْ حَلَّتْ لَهُ أَمْوَالُهُمْ، وَلَئِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ لَقَدْ حُرِّمَتْ عَلَيْهِ دِمَاؤُهُمْ.

قَالَ: قُلْتُ: وَمَاذَا؟ قَالُوا: وَمَحَا نَفْسَهُ مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَهُوَ أَمِيرُ الْكَافِرِينَ.

قَالَ: قُلْتُ: أَرَأَيْتُمْ إِنْ قَرَأْتُ عَلَيْكُمْ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ الْمُحْكَمِ، وَحَدَّثْتُكُمْ مِنْ سُنَّةِ نَبِيِّكُمْ ﷺ مَا لا تُنْكِرُونَ، أَتَرْجِعُونَ؟ قَالُوا: نَعَمْ.

قَالَ: قُلْتُ: أَمَّا قَوْلُكُمْ: إِنَّهُ حَكَّمَ الرِّجَالَ فِي دِينِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ يَقُولُ: ﴿**يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ**﴾[2]، وَقَالَ فِي الْمَرْأَةِ وَزَوْجِهَا: ﴿**وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا**

(١) سورة الأنعام، آية: [٥٧].
(٢) سورة المائدة، آية: [٩٥].

﴿فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾(١)، أَنْشُدُكُمُ اللَّهَ أَحُكْمُ الرِّجَالِ فِي حَقْنِ دِمَائِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَصَلاحِ ذَاتِ بَيْنِهِمْ أَحَقُّ أَمْ فِي أَرْنَبٍ ثَمَنُهَا رُبْعُ دِرْهَمٍ؟ قَالُوا: اللَّهُمَّ فِي حَقْنِ دِمَائِهِمْ وَصَلاحِ ذاتِ بَيْنِهِمْ، قَالَ: خَرَجْتُ مِنْ هَذِهِ؟ قَالُوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ.

وَأَمَّا قَوْلُكُمْ: إِنَّهُ قَاتَلَ وَلَمْ يَسْبِ وَلَمْ يَغْنَمْ، أَتَسْبُونَ أُمَّكُمْ، أَمْ تَسْتَحِلُّونَ مِنْهَا مَا تَسْتَحِلُّونَ مِنْ غَيْرِهَا؟ فَقَدْ كَفَرْتُمْ، وَإِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّهَا لَيْسَتْ بِأُمِّكُمْ فَقَدْ كَفَرْتُمْ وَخَرَجْتُمْ مِنَ الإِسْلامِ، إِنَّ اللهَ ﷻ يَقُولُ: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ﴾(٢)، فَأَنْتُمْ تَتَرَدَّدُونَ بَيْنَ ضَلالَتَيْنِ، فَاخْتَارُوا أَيَّهُمَا شِئْتُمْ؟ أَخَرَجْتُ مِنْ هَذِهِ؟ قَالُوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ.

قَالَ: وَأَمَّا قَوْلُكُمْ: إِنَّهُ مَحَا نَفْسَهُ مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَعَا قُرَيْشًا يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ عَلَى أَنْ يَكْتُبَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ كِتَابًا، فَقَالَ: اكْتُبْ: هَذا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، فَقَالُوا: وَاللَّهِ لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ مَا صَدَدْنَاكَ عَنِ الْبَيْتِ، وَلا قَاتَلْنَاكَ، وَلَكِنِ اكْتُبْ: مُحَمَّدُ بن عَبْدِ اللَّهِ، فَقَالَ: وَاللَّهِ إِنِّي لَرَسُولُ اللَّهِ وَإِنْ كَذَّبْتُمُونِي، اكْتُبْ يَا عَلِيُّ: مُحَمَّدَ بن عَبْدِ اللَّهِ، فَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَانَ أَفْضَلَ مِنْ عَلِيٍّ، أَخَرَجْتُ مِنْ هَذِهِ؟ قَالُوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ، فَرَجَعَ مِنْهُمْ عِشْرُونَ أَلْفًا، وَبَقِيَ مِنْهُمْ أَرْبَعَةُ آلافٍ، فَقُتِلُوا(٣).

رجع عشرون ألفًا، علموا لَمَّا سمعوا كلام حَبْر الأمة أنهم كانوا مخدوعين، وأنقذهم ربهم من القتل، ثم من النار، ببركة ابن عم رسول الله ﷺ العالم، الفقيه، الحكيم.

أما الأربعة آلاف الذين أصروا واستكبروا استكبارًا فهم الذين وصفهم النبي ﷺ بأنهم سفهاء الأحلام، يقولون الحق ويفعلون الباطل. وهكذا المتنطعون دائمًا، فكرهم

(١) سورة النساء، آية: [٣٥].

(٢) سورة الأحزاب، آية: [٦].

(٣) الطبراني في الكبير: (١٠٤٥١)؛ مصنف عبد الرزاق: (١٠/ ١٥٧، ١٥٨، ١٥٩)؛ مجمع الزوائد: (٦/ ٢٣٩).

سطحي، لا صبر عندهم لاستيفاء الموضوع دراسة وفهمًا، اختياراتهم دائمًا ظاهرها الوضوح: «إِنْ لَمْ يَكُنْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَهُوَ أَمِيرُ الْكَافِرِينَ»، ولكن حقيقتها التلبيس، إذ أن الأمور كما بيّنها حَبْر الأمة مقيَّدة بقيودها الشرعية، تحتاج إلى فهم من الكتاب والسُّنَّة خال عن الأهواء والحمية. وذلك مع أنهم، كما يقول ابن عباس رضي الله عنهما قوم لم ير أشد اجتهادًا منهم، أيديهم كأنها ثفن الإبل، ووجوههم معلمة من آثار السجود، ولكن لا علم لهم، يسهل تضليلهم بالشعارات المثيرة الغضب والحمية، وتلبيس الحق بالباطل عليهم. لذلك أكد المصطفى ﷺ أفضلية العلماء على العبّاد، كما أكد أنه لا مخرج لمثل هذه الفتن إلا بالعلم.

كان النبي ﷺ قد أخبر عليًا رضي الله عنه أنه مقتول، وأن الذي يقتله أشقى الناس. قال رسول الله ﷺ لعلي ولعمّار يومًا: «**أَلاَ أُحَدِّثُكُمَا بِأَشْقَى النَّاسِ رَجُلَيْنِ**».قالا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «**أُحَيْمِرُ ثَمُودَ الَّذِي عَقَرَ النَّاقَةَ، وَالَّذِي يَضْرِبُكَ يَا عَلِيُّ عَلَى هَذِهِ**». يَعْنِي قَرْنَهُ حَتَّى تُبَلَّ مِنْهُ هَذِهِ يَعْنِي لِحْيَتَهُ[(١)].

وأخبر عليّ بدوره بعض الخوارج بذلك، فقد قَدِمَ عَلِيٌّ عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ مِنَ الْخَوَارِجِ فِيهِمْ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ: الْجَعْدُ بْنُ بَعْجَةَ، فَقَالَ لَهُ: اتَّقِ اللَّهَ يَا عَلِيُّ، فَإِنَّكَ مَيِّتٌ. فَقَالَ عَلِيٌّ رضي الله عنه: «بَلْ مَقْتُولٌ، ضَرْبَةٌ عَلَى هَذَا تَخْضِبُ هَذِهِ -يَعْنِي لِحْيَتَهُ مِنْ رَأْسِهِ- عَهْدٌ مَعْهُودٌ وَقَضَاءٌ مَقْضِيٌّ، وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى» وَعَاتَبَهُ (أي الخارجي) فِي لِبَاسِهِ. فَقَالَ: «مَا لَكُمْ وَلِلِّبَاسِ؟ هُوَ أَبْعَدُ مِنَ الْكِبْرِ وَأَجْدَرُ أَنْ يَقْتَدِيَ بِيَ الْمُسْلِمُ»[(٢)]، أي أن الخارجي اعترض على أمير المؤمنين في لباسه المتواضع، فحتى في ذلك لم يسلم له بالعلم والحكمة وحسن الإقتداء بالنبي ﷺ. وقد بَيَّن له أمير المؤمنين بعض ذلك فأجابه أنه لنفسه أبعد عن الكبر، وللناس قدوة لتجنب التفاخر

---

(١) مسند الإمام أحمد: (٤/ ٢٦٣، ٢٦٤)؛ النسائي في فضائل علي: (١٥٣)؛ الحاكم في المستدرك: (٣/ ١٤٠)؛ مجمع الزوائد: (٩/ ١٣٦).
(٢) مسند الإمام أحمد، (٧٠٣).

والإسراف، وجبر لخاطر الفقير. ومن الواضح أن الخارجي الجاهل لا يعلم قول النبي ﷺ: «**الْبَذَاذَةُ مِنَ الإِيمَانِ**»[(١)].

وفي القصة التالية ما يوضح مدى زيغ الخوارج عن الحق، وغياب عقولهم، وعدم احترامهم لأي من الحرمات: روى رَجُل مِنْ عَبْدِ الْقَيْسِ كَانَ مَعَ الْخَوَارِجِ ثُمَّ فَارَقَهُمْ، قَالَ: إِنَّهُمْ دَخَلُوا قَرْيَةً فَخَرَجَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ خَبَّابٍ[(٢)] ذعِرًا يَجُرُّ رِدَاءَهُ، فَقَالُوا: لَمْ تُرَعْ. قَالَ: «وَاللَّهِ لَقَدْ رُعْتُمُونِي». قَالُوا: أَنْتَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ خَبَّابٍ صَاحِبُ رَسُول اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَهَل سَمِعْتَ مِنْ أَبِيكَ حَدِيثاً يُحَدِّثُهُ عَنْ رَسُول اللَّهِ ﷺ تُحَدِّثُنَاهُ؟ قَالَ: «نَعَمْ، سَمِعْتُهُ يُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ ذَكَرَ فِتْنَةً الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَائِمِ، وَالْقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي، وَالْمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي. قَالَ: «**فَإِنْ أَدْرَكْتَ ذَاكَ فَكُنْ عَبْدَ الله الْمَقْتُولَ**». قَالَ الراوي: وَلاَ أَعْلَمُهُ إِلاَّ قَالَ: «**وَلاَ تَكُنْ عَبْدَ الله الْقَاتِلَ**». قَالُوا: أَنْتَ سَمِعْتَ هَذا مِنْ أَبِيكَ يُحَدِّثُهُ عَنْ رَسُول اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ: «نَعَمْ». قَالَ: فَقَدَّمُوهُ عَلَى ضَفَّةِ النَّهَر، فَضَرَبُوا عُنُقَهُ، فَسَالَ دَمُهُ كَأَنَّهُ شِرَاكُ نَعْلٍ مَا ابْذَقَرَّ وَبَقَرُوا أُمَّ وَلَدِهِ عَمَّا فِي بَطْنِهَا[(٣)].

قتلوا ابن الصحابي وبقروا أم ولده تقربًا إلى الله، وتوحيدًا له، وإعلاء لكلمته!

ولذلك لعنهم النبي ﷺ. قال علي رضي الله عنه: «لَقَدْ عَلِمَ أُولُو الْعِلْمِ مِنْ آل مُحَمَّدٍ ﷺ، وَعَائِشَةُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ فَسَلُوهَا، أَنَّ أَصْحَابَ الأَسْوَدِ ذِي الثَّدَيَّةِ مَلْعُونُونَ عَلَى لِسَانِ النَّبِي الأُمِّيِّ، وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى»[(٤)].

وأخبرنا النبي ﷺ أن الخوارج كلاب النار، ويا لفظاعة هذا الوصف من فم من

---

(١) سنن ابن ماجه: (٤١١٨)؛ سنن أبي داود: (٤١٦١). (**الْبَذَاذَةُ**): التَّقَشُّف.

(٢) هو ابن خبّاب بن الأرتّ رضي الله عنه صاحب رسول الله ﷺ.

(٣) مسند الإمام أحمد: (٢١١٠١)؛ مسند ابن أبي شيبة: (٣٧٨٩٦)؛ الطبراني في الكبير: (٣٦٢٩). (**ابْذَقَرَّ**): تفرَّق. (**وَبَقَرُوا**): وشقوا.

(٤) الطبراني في الأوسط: (٣٥٤٣)؛ والصغير: (٤٣٣).

لا ينطق عن الهوى! حيث قال ﷺ: «**الْخَوَارِجُ كِلاَبُ النَّارِ**»[1].

وقد رَأَى أبو أُمَامَةَ رضي الله عنه رُءُوسًا مَنْصُوبَةً عَلَى دَرَجِ مَسْجِدِ دِمَشْقَ، فَقَالَ: «**كِلاَبُ النَّارِ شَرُّ قَتْلَى تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ خَيْرُ قَتْلَى مَنْ قَتَلُوهُ**». ثُمَّ قَرَأَ: ﴿**يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ**﴾ إِلَى آخِرِ الآيَةِ، قِيلَ لأَبِي أُمَامَةَ: أَنْتَ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ: «لَوْ لَمْ أَسْمَعْهُ إِلاَّ مَرَّةً، أَوْ مَرَّتَيْنِ، أَوْ ثَلاَثًا، أَوْ أَرْبَعًا، حَتَّى عَدَّ سَبْعًا مَا حَدَّثْتُكُمُوهُ»[2]، ويظهر من هذا أن النبي ﷺ حدَّث أصحابه عن الخوارج وفتنتهم مرارًا وتكرارًا، وقد رأينا كيف أنه يكرر الحديث في مناسبات شتى ليكون تناقله وانتشاره في الأمة أمرًا مؤكدًا.

إن الإمام عليّ كرم الله وجهه كان حريصًا -بعد انتهاء القتال يوم النهروان- على أن يجد في قتلاهم ذا الثدية، ليثبت للناس وللتاريخ أن هذا ما أخبر عنه رسول الله ﷺ وأنه على الحق، وهم على الباطل، ويتعظ من بعده ويفهم المراد من الحكمة النبوية. ولما طلب عليّ «المخدج» فلم يجدوه جعل جبينه يعرق، وأخذه الكرب، ثم لما وجدوه خر ساجدًا، فقال: «وَاللهِ مَا كَذَبْتُ وَلاَ كُذِّبْتُ»[3].

وفي صحيح مسلم عن زَيْد بن وَهْب الْجُهَنِيُّ أَنَّهُ كَانَ فِي الْجَيْشِ الَّذِينَ كَانُوا مَعَ عَلِيٍّ رضي الله عنه الَّذِينَ سَارُوا إِلَى الْخَوَارِجِ، فَقَالَ عَلِيٌّ رضي الله عنه: أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**يَخْرُجُ قَوْمٌ مِنْ أُمَّتِي يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ، لَيْسَ قِرَاءَتُكُمْ إِلَى قِرَاءَتِهِمْ بِشَيْءٍ، وَلاَ صَلاَتُكُمْ إِلَى صَلاَتِهِمْ بِشَيْءٍ، وَلاَ صِيَامُكُمْ إِلَى صِيَامِهِمْ بِشَيْءٍ، يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ يَحْسِبُونَ أَنَّهُ لَهُمْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ، لاَ تُجَاوِزُ صَلاَتُهُمْ تَرَاقِيَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الإِسْلاَمِ كَمَا يَمْرُقُ**

(١) سنن ابن ماجه: (١٧٣)؛ مصنف ابن أبي شيبة: (٣٧٨٨٤)؛ الطبراني في الأوسط: (٩٠٨٥)؛ والصغير: (١٠٩٦).
(٢) سنن الترمذي: (٣٠٠٠)؛ سنن ابن ماجه: (١٧٣)؛ الحاكم في المستدرك: (٢٦٥٤)؛ مصنف ابن أبي شيبة: (٣٧٨٩٢).
(٣) الحاكم في المستدرك: (٢٦٥٨).

**السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ**». لَوْ يَعْلَمُ الْجَيْشُ الَّذِينَ يُصِيبُونَهُمْ مَا قُضِيَ لَهُمْ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِمْ ﷺ لاتَّكَلُوا عَنِ الْعَمَلِ، وَآيَةُ ذَلِكَ أَنَّ فِيهِمْ رَجُلاً لَهُ عَضُدٌ وَلَيْسَ لَهُ ذِرَاعٌ، عَلَى رَأْسِ عَضُدِهِ مِثْلُ حَلَمَةِ الثَّدْيِ، عَلَيْهِ شَعَرَاتٌ بيضٌ فَتَذْهَبُونَ إِلَى مُعَاوِيَةَ وَأَهْلِ الشَّامِ وَتَتْرُكُونَ هَؤُلاَءِ يَخْلُفُونَكُمْ فِي ذرارِيِّكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَاللَّهِ إِنِّي لأَرْجُو أَنْ يَكُونُوا هَؤُلاَءِ الْقَوْمَ فَإِنَّهُمْ قَدْ سَفَكُوا الدَّمَ الْحَرَامَ وَأَغَارُوا فِي سَرْحِ النَّاسِ فَسِيرُوا عَلَى اسْمِ اللَّهِ.

قَالَ سَلَمَةُ بْنُ كُهَيْلٍ (الراوي عن زَيْد بن وَهْب): فَنَزَّلَنِي زَيْدُ بْنُ وَهْبٍ مَنْزِلاً حَتَّى قَالَ: مَرَرْنَا عَلَى قَنْطَرَةٍ فَلَمَّا الْتَقَيْنَا وَعَلَى الْخَوَارِجِ يَوْمَئِذٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ وَهْبٍ الرَّاسِبِيُّ فَقَالَ لَهُمْ: أَلْقُوا الرِّمَاحَ وَسُلُّوا سُيُوفَكُمْ مِنْ جُفُونِهَا فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يُنَاشِدُوكُمْ كَمَا نَاشَدُوكُمْ يَوْمَ حَرُورَاءَ. فَرَجَعُوا فَوَحَّشُوا بِرِمَاحِهِمْ وَسَلُّوا السُّيُوفَ وَشَجَرَهُمُ النَّاسُ برِمَاحِهِمْ -قَالَ- وَقُتِلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَمَا أُصِيبَ مِنَ النَّاسِ يَوْمَئِذٍ إِلاَّ رَجُلاَنِ. فَقَالَ عَلِيٌّ ﷺ: «الْتَمِسُوا فِيهِمُ الْمُخْدَجَ». فَالْتَمَسُوهُ فَلَمْ يَجِدُوهُ فَقَامَ عَلِيٌّ ﷺ بِنَفْسِهِ حَتَّى أَتَى نَاسًا قَدْ قُتِلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، قَالَ: «أَخِّرُوهُمْ». فَوَجَدُوهُ مِمَّا يَلِي الأَرْضَ، فَكَبَّرَ ثُمَّ قَالَ: «صَدَقَ اللَّهُ وَبَلَّغَ رَسُولُهُ»[(١)].

إن سفهاء الأحلام هم هؤلاء الذين يقولون قال الله وقال الرسول، ثم يؤولون ما يقولون على حسب أهوائهم، ولا يقبلون المعارضة ولا الخلاف، ويلاحظ عليهم دائما أنهم من أنصار: الغاية تبرر الوسيلة، بينما الإسلام يحرص ليس فقط على أن تكون الغاية شرعية، ولكن كذلك الوسيلة، ولا يجوز أن يتوصل أبدًا بوسيلة غير شرعية إلى غاية شرعية، مهما كانت مهمة وحيوية. إلا أن هؤلاء يدفعهم غيظهم وغضبهم إلى استخدام العنف في غير محله، وتبرير ذلك بفتاوى مشبوهة وتأويلات للنصوص متكلفة.

(١) صحيح مسلم: (١٠٦٦)؛ سنن أبي داود: (٤٧٦٨). و(**الْمُخْدَجِ**): ناقص الخِلْقَة، و(**وَحَّشُوا**): رموا بالشيء عن بُعد منهم.

لما قرر الخوارج أن صحابة رسول الله ﷺ كفار، وليس فقط كفارًا ولكن يستحقوا القتل، اتفقوا على اغتيال أمير المؤمنين عليّ، وأبي موسى الأشعري، ومعاوية بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، تقربًا لله ﷻ. ومن الواضح أن الغاية غير شرعية، فقرار التكفير ضرب من الجنون، حتى وإن لم يكن فهم ليسوا أهله، إذ أن إصدار الأحكام وتنفيذها ليس من حق أي فرد إن لم يكن من الأمراء أو القضاة، والوسيلة كذلك غير شرعية، فالاغتيال ليس من الإسلام في شيء.

**قرون الشيطان الممتدة عبر الزمن:**

أخبر النبي ﷺ أمته أن للشيطان أناس استحوذ عليهم، سوف يخرجون حين فرقة من الناس واختلاف، لهم صفات مشتركة، وفتنتهم من أخطر الفتن على المسلمين، وعبّر عنهم تارة بقرن الشيطان، وتارة بقرني الشيطان، وتارة كرر اللفظ عشرين مرة. وقد فهم الصحابة أن الوصف منطبق على الخوارج الحرورية، وأن لفظ «المشرق» حينئذ يراد به العراق.

قيلَ لِسَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ رضي الله عنه: هَلْ سَمِعْتَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ فِي الْخَوَارِجِ شَيْئًا؟ قَالَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ -وَأَهْوَى بِيَدِهِ قِبَلَ الْعِرَاقِ-: «**يَخْرُجُ مِنْهُ قَوْمٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لاَ يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الإِسْلاَمِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ**»[(١)].

وقد أكد النبي ﷺ مرارًا خروج الفتنة من المشرق، يقول عَبْد اللَّه بْن عُمَرَ رضي الله عنهما: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُشِيرُ إِلَى الْمَشْرِقِ فَقَالَ: «**هَا إِنَّ الْفِتْنَةَ هَا هُنَا، إِنَّ الْفِتْنَةَ هَا هُنَا، مِنْ حَيْثُ يَطْلُعُ قَرْنُ الشَّيْطَانِ**»[(٢)].

وفي رواية: «**رَأْسُ الْكُفْرِ مِنْ هَا هُنَا، مِنْ حَيْثُ يَطْلُعُ قَرْنُ الشَّيْطَانِ**» يَعْنِي: الْمَشْرِقَ[(٣)].

(١) صحيح البخاري: (٦٥٣٥).
(٢) صحيح البخاري: (٣١٠٥، ٣٣٢٠)؛ صحيح مسلم: (٢٩٠٥).
(٣) صحيح مسلم: (٢٩٠٥).

والمقصود بالمشرق هنا ليس العراق، ولكنه نجد، كما يبينه الحديث الآتي: عَن ابن عُمَر رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ النَّبِيّ ﷺ: «**اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي شَامِنَا وَفِي يَمَنِنَا**». قَالُوا: وَفِي نَجْدِنَا؟ قَالَ: «**اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي شَامِنَا وَفِي يَمَنِنَا**». قَالُوا: وَفِي نَجْدِنَا؟ قَالَ: «**هُنَاكَ الزَّلاَزِلُ وَالْفِتَنُ، وَبِهَا يَطْلُعُ قَرْنُ الشَّيْطَانِ**»(١).

وقد بيّن النبي ﷺ أن قرون الشيطان هذه تقطع، الواحد تلو الآخر، ولكنها لا تزال تخرج، إذ أن بعض الفئات التي تطابق صفاتهم النماذج التي أشرنا إليها، نموذج ذي الخويصرة، ونموذج ذي السفعة، ونموذج الغلاة عمومًا من محبي التكفير، لن تزال تظهر في الأمة المرة تلو الأخرى، يسببون الفتن والعنف، ويجرون على أنفسهم وأتباعهم القتل.

يحق لنا هنا أن نتساءل: إلى متى يستمر ذلك، وهل في زماننا هذا خوارج؟ وقد أجاب النبي ﷺ على هذا السؤال إجابة واضحة حين قال أن الخوارج لا زالوا يخرجون إلى أن ينضم آخرهم إلى الدجال. قال ﷺ: «**يَنْشَأُ نَشْءٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لاَ يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، كُلَّمَا خَرَجَ قَرْنٌ قُطِعَ**». قَالَ ابْنُ عُمَرَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**كُلَّمَا خَرَجَ قَرْنٌ قُطِعَ**». أَكْثَرَ مِنْ عِشْرِينَ مَرَّةً «**حَتَّى يَخْرُجَ فِي عِرَاضِهِمُ الدَّجَّالُ**»(٢).

وفي إحدى روايات حديث ذي الخويصرة: «**يَخْرُجُ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ رِجَالٌ كَانَ هَذَا مِنْهُمْ، هَدْيُهُمْ هَكَذَا، يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لاَ يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، ثُمَّ لاَ يَرْجِعُونَ فِيهِ، سِيمَاهُمُ التَّحْلِيقُ، لاَ يَزَالُونَ يَخْرُجُونَ حَتَّى يَخْرُجَ آخِرُهُمْ مَعَ الدَّجَّالِ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ، هُمْ شَرُّ الْخَلْقِ وَالْخَلِيقَةِ**»(٣)، وإذا كان آخرهم سوف ينضم إلى الدجال، فإن معنى ذلك أنه من الممكن أن يكونوا بيننا اليوم، وسيظل

(١) صحيح البخاري: (٦٦٨١).
(٢) سنن ابن ماجه: (١٧٤).
(٣) مسند الإمام أحمد: (٤/ ٤٢٤).



وجودهم في كل زمن محتمل، إلى أن لا يجد آخرهم بدًا من الانضمام للدجال، إذ لا يمكنهم الانضمام للمسلمين الذين هم في نظرهم كفار مشركون حلال دماؤهم. قال النبي ﷺ: «**سَيَخْرُجُ أُنَاسٌ مِنْ أُمَّتِي مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ، يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ لاَ يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، كُلَّمَا خَرَجَ مِنْهُمْ قَرْنٌ قُطِعَ، حَتَّى يَخْرُجَ الدَّجَّالُ فِي بَقِيَّتِهِمْ**»[1].

والذين يقومون بأعمال العنف التي يطلق عليها اليوم اسم الإرهاب في العالم الإسلامي كلهم بلا استثناء يدينون بفكر التكفير الخارجي، ويطبقون آيات من القرآن نزلت في الكفار على المسلمين، يكفرونهم بها ويستحلون دمائهم وأموالهم.



(١) الحاكم في المستدرك: (٨٤٩٧)؛ مجمع الزوائد: (٦/ ٢٢٨، ٢٣٠).



# حادي عشر: علامات يتميز بها زماننا هذا

إن نبينا ﷺ هو نبي آخر الزمان، ومنذ عهده ونحن في آخر الزمان، أي بالنسبة للزمان الكلي من خلق الدنيا إلى يوم القيامة. وقد يطلق آخر الزمان أيضًا في بعض الأحاديث ويراد به آخر أيام الخلافة الراشدة، كما في أحاديث الخوارج الحرورية، ولكنه أكثر ما يطلق على السنين الأخيرة للأمة المحمدية التي تسبق ظهور العلامات الكبرى. بقي أن نرى إذا كان رسول الله ﷺ قد جعل لنا علامات نعرف بها بدون شك أن زماننا هو بالفعل آخر الزمان، وأن العلامات الكبرى على وشك الوقوع.

إن هنالك من الأحاديث ما يشير إلى أشياء لم يكن من الممكن تخيلها لمن كان قبلنا. وإن كثيرًا مما مَرَّ من الأحاديث إنما يصف تفاقمًا لأوضاع بدأت تظهر بعد الخلافة الراشدة مباشرة.

قال ﷺ: «**إِذَا ضُيِّعَتِ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ**». قَالوا: كَيْفَ إِضَاعَتُهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «**إِذَا أُسْنِدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ، فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ**»[1].

وقال ﷺ: «**إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ لأَيَّامًا يَنْزِلُ فِيهَا الجَهْلُ، وَيُرْفَعُ فِيهَا الْعِلْمُ، وَيَكْثُرُ فِيهَا الهَرْجُ**»[2]، وقال ﷺ: «**إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يَفْشُوَ المَالُ وَيَكْثُرَ، وَتَفْشُوَ التِّجَارَةُ، وَيَظْهَرَ الْقَلَمُ**»[3].

---

(١) صحيح البخاري: (٦٤٩٦).
(٢) صحيح البخاري: (٦٦٥٣)؛ سنن ابن ماجه: (٤٠٥٠)؛ مسند الإمام أحمد: (٣٦٩٥).
(٣) مسند الإمام أحمد: (١/ ٤٠٧، ٤١٩).

فهذه أمور كانت موجودة من قبل، ولكنها لم تزل في تزايد حتى أصبحت شائعة وعامة في زماننا هذا، إلا أن هناك أحاديث أخر لا تنطبق إلا على هذا الزمان، ولقد أخبرنا عنها النبي ﷺ إجمالاً وتفصيلاً.

**أما إجمالاً** فبقوله: «**سَوْفَ تَرَوْنَ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ أَشْيَاءَ تَسْتَنْكِرُونَهَا عِظَامًا، تَقُولُونَ: هَلَكْنَا، حُدِّثْنَا بِهَذَا، فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ، فَاذْكُرُوا اللهَ تَعَالَى، وَاعْلَمُوا أَنَّهَا أَوَائِلُ السَّاعَةِ**»(١)، وفي رواية: «**وَلَنْ يَكُونَ ذَلِكَ حَتَّى تَرَوْنَ أُمُورًا عِظَامًا يَتَفَاقَمُ شَأْنُهَا فِي أَنْفُسِكُمْ، وَتَسَاءَلُونَ بَيْنَكُمْ: هَلْ كَانَ نَبِيُّكُمْ ﷺ ذَكَرَ لَكُمْ مِنْهَا ذِكْرًا؟...**»(٢).

وقال الصحابي سَمُرَة بن جُنْدُب رضي الله عنه: «لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَرَوْا أُمُورًا عِظَامًا لَمْ تَكُونُوا تَرَوْنَهَا، تَكُونُ وَلاَ تُحَدِّثُونَ بِهَا أَنْفُسَكُمْ»(٣).

**وأما تفصيلاً** فبذكر أمور بعينها، كما في الأحاديث الآتية: قوله ﷺ: «**لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَتَقَارَبَ الزَّمَانُ، فَتَكُونُ السَّنَةُ كَالشَّهْرِ، وَالشَّهْرُ كَالْجُمُعَةِ، وَتَكُونُ الْجُمُعَةُ كَالْيَوْمِ، وَيَكُونُ الْيَوْمُ كَالسَّاعَةِ، وَتَكُونُ السَّاعَةُ كَالضَّرْمَةِ بِالنَّارِ**»(٤).

وقوله عليه الصلاة والسلام: «**يُوشِكُ أَنْ لاَ تَقُومَ السَّاعَةُ حَتَّى يُقْبَضَ الْعِلْمُ، وَتَظْهَرَ الْفِتَنُ، وَيَكْثُرُ الْكَذِبُ، وَيَتَقَارَبُ الزَّمَانُ، وَتَتَقَارَبُ الأَسْوَاقُ، وَيَكْثُرَ الْهَرْجُ**»، قِيلَ: وَمَا الْهَرْجُ؟ قَالَ: «**الْقَتْلُ**»(٥).

وقوله ﷺ: «**لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ... وَحَتَّى يُقْبَضَ الْعِلْمُ، وَتَكْثُرَ الزَّلاَزِلُ، وَيَتَقَارَبَ**

(١) الطبراني في الكبير: (٧٠٨٣).
(٢) صحيح ابن حبان: (٢٨٥٦)؛ الطبراني في الكبير: (٦٧٩٨-٦٧٩٩).
(٣) الفتن لنعيم بن حماد: (٤٠).
(٤) سنن الترمذي: (٢٣٣٢)؛ صحيح ابن حبان: (٦٨٤٢)؛ مسند الإمام أحمد: (١٠٩٥٦).
(الضَّرْمَة): ما التهب سريعًا من الحطب.
(٥) صحيح ابن حبان: (٦٧١٨).

الزَّمَانُ، وَتَظْهَرَ الْفِتَنُ، وَيَكْثُرَ الهَرْجُ وَهْوَ الْقَتْلُ، وَحَتَّى يَكْثُرَ فِيكُمُ المَالُ فَيَفِيضَ، حَتَّى يُهِمَّ رَبَّ المَالِ مَنْ يَقْبَلُ صَدَقَتَهُ (أي يصبح مهموما أين يجد من يأخذ منه زكاته)، وَحَتَّى يَعْرِضَهُ فَيَقُولَ الَّذِي يَعْرِضُهُ عَلَيْهِ: لاَ أَرَبَ لِي بِهِ. وَحَتَّى يَتَطَاوَلَ النَّاسُ فِي الْبُنْيَانِ..»(١).

وقوله عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ تَسْلِيمَ الخَاصَّةِ، وَفُشُوَّ التِّجَارَةِ حَتَّى تُعِينَ الْـمَرْأَةُ زَوْجَهَا عَلِى التِّجَارَةِ، وَقَطْعَ الأَرْحَامِ، وَشَهَادَةَ الزُّورِ، وَكِتْمَانَ شَهَادَةِ الحَقِّ، وَظُهُورَ الْقَلَمِ»(٢).

وقوله ﷺ: «مِنِ اقْتِرَابِ السَّاعَةِ أَنْ يُرَى الهِلاَلُ قُبُلاً، فَيُقَالُ: لِلَيْلَتَيْنِ، وَأَنْ تُتَّخَذَ المَسَاجِدُ طُرُقًا، وَأَنْ يَظْهَرَ مَوْتُ الْفُجَاءَةِ»(٣).

وقوله ﷺ: «مِنِ اقْتِرَابِ السَّاعَةِ اثْنَتَانِ وَسَبْعُونَ خَصْلَةً: إِذَا رَأَيْتُمُ النَّاسَ: ١- أَمَاتُوا الصَّلاَةَ، ٢- وَأَضَاعُوا الأَمَانَةَ، ٣- وَأَكَلُوا الرِّبَا، ٤- وَاسْتَحَلُّوا الْكَذِبَ، ٥- وَاسْتَخَفُّوا الدِّمَاءَ، ٦- وَاسْتَعْلَوُا الْبِنَاءَ، ٧- وَبَاعُوا الدِّينَ بِالدُّنْيَا، ٨- وَتَقَطَّعَتِ الأَرْحَامُ، ٩- وَيَكُونُ الحُكْمُ ضَعْفًا، ١٠- وَالْكَذِبُ صِدْقًا، ١١- وَالحَرِيرُ لِبَاسًا، ١٢- وَظَهَرَ الجَوْرُ، ١٣- وَكَثُرَ الطَّلاَقُ، ١٤- وَمَوْتُ الْفُجَاءَةِ، ١٥- وَائْتُمِنَ الخَائِنُ، ١٦- وَخُوِّنَ الأَمِينُ، ١٧- وَصُدِّقَ الْكَاذِبُ، ١٨- وَكُذِّبَ الصَّادِقُ، ١٩- وَكَثُرَ الْقَذْفُ، ٢٠- وَكَانَ المَطَرُ قَيْظًا، ٢١- وَالْوَلَدُ غَيْظًا، ٢٢- وَفَاضَ اللِّئَامُ فَيْضًا، ٢٣- وَغَاضَ الْكِرَامُ غَيْضًا، ٢٤- وَكَانَ الأُمَرَاءُ فَجَرَةً، ٢٥- وَالْوُزَرَاءُ كَذَبَةً، ٢٦- وَالأُمَنَاءُ خَوَنَةً، ٢٧- وَالْعُرَفَاءُ ظَلَمَةً، ٢٨- وَالْقُرَّاءُ فَسَقَةً، ٢٩- وَإِذَا لَبِسُوا مُسُوكَ الضَّأْنِ، قُلُوبُهُمْ أَنْتَنُ مِنَ الجِيفَةِ، وَأَمَرُّ مِنَ الصَّبْرِ، يُغَشِّيهِمُ اللهُ فِتْنَةً يَتَهَاوَكُونَ فِيهَا تَهَاوُكَ الْيَهُودِ الظَّلَمَة، ٣٠- وَتَظْهَرُ الصَّفْرَاءُ،

---

(١) صحيح البخاري: (٧١٢١).

(٢) مسند الإمام أحمد: (٣٨٧٠، ٣٩٨٢)؛ الحاكم في المستدرك: (٧٠٤٣).

(٣) الطبراني في الصغير: (١١٣٢، ٩٣٧٦).

يَعْنِي الدَّنَانِيرَ، ٣١- وَتُطْلَبُ الْبَيْضَاءُ، يَعْنِي الدَّرَاهِمَ، ٣٢- وَتَكْثُرُ الخَطَايَا، ٣٣- وَتَغُلُّ الأُمَرَاءُ، ٣٤- وَحُلِّيَتِ المَصَاحِفُ، ٣٥- وَصُوِّرَتِ المَسَاجِدُ، ٣٦- وَطُوِّلَتِ المَنَائِرُ، ٣٧- وَخُرِّبَتِ الْقُلُوبُ، ٣٨- وَشُرِبَتِ الخُمُورُ، ٣٩- وَعُطِّلَتِ الحُدُودُ، ٤٠- وَوَلَدَتِ الأَمَةُ رَبَّتَهَا، ٤١- وَتَرَى الحُفَاةَ الْعُرَاةَ وَقَدْ صَارُوا مُلُوكًا، ٤٢- وَشَارَكَتِ المَرْأَةُ زَوْجَهَا فِي التِّجَارَةِ، ٤٣- وَتَشَبَّهَ الرِّجَالُ بِالنِّسَاءِ، ٤٤- وَالنِّسَاءُ بِالرِّجَالِ، ٤٥- وَحُلِفَ بِاللهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُسْتَحْلَفَ، ٤٦- وَشَهِدَ المَرْءُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُسْتَشْهَدَ، ٤٧- وَسُلِّمَ لِلْمَعْرِفَةِ، ٤٨- وَتُفُقِّهَ لِغَيْرِ الدِّينِ، ٤٩- وَطُلِبَتِ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الآخِرَةِ، ٥٠- وَاتُّخِذَ المَغْنَمُ دُوَلا، ٥١- وَالأَمَانَةُ مَغْنَمًا، ٥٢- وَالزَّكَاةُ مَغْرَمًا، ٥٣- وَكَانَ زَعِيمُ الْقَوْمِ أَرْذَلَهُمْ، ٥٤- وَعَقَّ الرَّجُلُ أَبَاهُ، ٥٥- وَجَفَا أُمَّهُ، ٥٦- وَبَرَّ صَدِيقَهُ، ٥٧- وَأَطَاعَ زَوْجَتَهُ، ٥٨- وَعَلَتْ أَصْوَاتُ الْفَسَقَةِ فِي المَسَاجِدِ، ٥٩- وَاتُّخِذَتِ الْقَيْنَاتُ وَالمَعَازِفُ، ٦٠- وَشُرِبَتِ الخُمُورُ فِي الطُّرُقِ، ٦١- وَاتُّخِذَ الظُّلْمُ فَخْرًا، ٦٢- وَبِيعَ الحُكْمُ، ٦٣- وَكَثُرَتِ الشُّرَطُ، ٦٤- وَاتُّخِذَ الْقُرْآنُ مَزَامِيرَ، ٦٥- وَجُلُودُ السِّبَاعِ صِفَاقًا، ٦٦- وَالمَسَاجِدُ طُرُقًا، ٦٧- وَلَعَنَ آخِرُ هَذِهِ الأُمَّةِ أَوَّلَهَا، فَلْيَتَّقُوا عِنْدَ ذَلِكَ: ٦٨- رِيحًا حَمْرَاءَ، ٦٩- وَخَسْفًا، ٧٠- وَمَسْخًا، ٧١- وَقَذْفًا، ٧٢- وَآيَاتٍ»[(١)].

يظهر من هذا أنه من العلامات التي لم تكن قبل زماننا هذا تقارب الزمان وتقارب الأسواق، وزيادة المال، وفشو التجارة، وظهور القلم، والتطاول في البنيان، وزخرفة المساجد، وكثرة الزلازل، والسلام على المعرفة، واتخاذ المساجد طرقًا، ولبس الطيالسة، وغياب العقول، وإدناء الشاب صديقه وإقصائه أباه، وعقوقه لأمه وطاعة زوجته، وظهور المياثر (أي السيارات)، وظهور الكاسيات العاريات، وظهور موت الفجاءة، والأمراض التي لم تكن في الأسلاف، ويتكلم التافهون في أجهزة الإعلام، وجدال

(١) أبونعيم في حلية الأولياء: (٣/ ٣٥٨، ٣٥٩). والحديث ضعيف، ولكن أكثر العلامات مذكورة متفرقة في الكتب الستة.

المنافق والمشرك المسلم باستخدام نصوص الكتاب والسنة، والهرج أي القتل في الحروب والإرهاب، وهناك علامات أخرى مميزة لهذا الزمان سنأتي إليها عما قليل.

لقد ورد لفظ تقارب الزمان في أحاديث أخرى كثيرة، والزمان لا يتقارب إلا بوسائل المواصلات والاتصالات الحديثة التي تجعل السفر وقضاء المصالح يستغرق وقتًا قصيرًا جدًا بالنسبة لما كان يستغرق من قبل.

ومن ناحية أخرى، يتقارب الزمان بنزع البركة من الوقت بحيث أن العمل الصالح الذي كان يستغرق يومًا يصبح يحتاج إلى شهر، بينما الفساد الذي كان يحدث في شهر يصبح يحدث في يوم واحد. وقد ذهبت المراحل الأولى من تقارب الزمان التي فيها السنة كالشهر، والشهر كالجمعة، والجمعة كاليوم، وأصبحنا كما هو ملاحظ ومشهود نعيش أيامًا تَمُرّ كالساعة، وساعات تَمُرّ كالضرمة بالنار، أي كسعفة الجريد إذا اشتعلت نارًا، فتوقدت دقائق قليلة ثم انطفأت. ولذلك فالناس الآن دائمًا في عجلة، يركضون يمينا وشمالا ويشعرون أنهم لا يدركون ما يركضون وراءه.

وأما تقارب الأسواق فذلك أيضًا مشاهد في كل مكان، فقد ذهب الزمان الذي كان فيه السوق في مكان معين من البلدة وفي يوم معين من الأسبوع، وأصبحت المدن الآن شوارعها كلها سوق واحدة متصلة، يسير الناس فيها من أول المدينة إلى آخرها بين الدكاكين ولافتات الدعاية. وهناك كذلك تقارب الأسواق عالميًا، بحيث صار استيراد البضائع وتصديرها والتعرف على الجديد من المخترعات يستغرق أيامًا قليلة، بل ساعات، لسرعة وسائل النقل والاتصال. وتقارب الأسواق يعني كثرتها، وذلك يعني كسادها.

ومن العلامات أيضًا أن هذه الأمة التي لم تكن تترك السلام أصبحت الآن وكل إنسان فيها لا يسلم إلا على من يعرفه، لتباعد قلوبهم وتنافرها. وهذا شيء لم يزدد وينتشر إلا في السنوات الأخيرة، فقد أدركنا أوقاتًا وبلادًا كان لابد فيها لكل مسلم أن يسلم على من يعرف ومن لا يعرف إذا تواجهوا في الشوارع وغيرها.

أما موت الفجاءة، فهو أن يموت الإنسان فجأة بدون سابق مرض أو سبب يظهر في التشريح بعد الوفاة. ولقد أعلن أطباء الغرب سنة ١٩٩٢م أنهم يواجهون ظاهرة لم تكن من قبل، وهي موت الفجاءة، وعرّفوه بأنه الموت المفاجئ بدون مرض ظاهر، وقد كانوا يرونها من قبل في الأطفال الرضع فقط، ولكنها الآن تفشت في الشباب والكهول.

وتخبرنا هذه الأحاديث عن علامات أخرى، منها أن الرجل سوف يستعين بزوجته في التجارة، أي تقف معه أو بدلاً منه في الدكان، وهذا شيء كان لا يكاد يصدق في أمة كانت النساء فيها محفوظات عن الاختلاط، وعن أعين الغرباء، فأصبحت الأمة بتقليدها للنصارى واليهود تبيح الاختلاط، ووقفت النساء تبيع وتشتري وتعمل كعمل الرجال.

وأما السفر بين الأفقين فإنما هو إشارة إلى الطائرات التي تنقل الركاب من الأفق إلى الأفق في ساعات قليلة، فيسافر التاجر من أفق إلى أفق فيأتي ببضاعة لا تحقق له ربحًا.

ومن العلامات ظهور من يتكلم في أمور لم يكن يتكلم فيها من قبلنا من أيديولوجيات مستوردة، وأفكار مستوحاة من الغرب، مثل نظرية التطور لداروين، ونظرية العقل الباطن لفرويد، والنظريات الاجتماعية والاقتصادية التي افتتن بها المثقفون من الأمة وحاولوا تطويع الإسلام لتأييدها، بينما الإسلام منها بريء.

قال ﷺ: «**يَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ دَجَّالُونَ كَذَّابُونَ يَأْتُونَكُمْ مِنَ الأَحَادِيثِ بِمَا لَمْ تَسْمَعُوا أَنْتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ، فَإِيَّاكُمْ وَإِيَّاهُمْ، لاَ يُضِلُّونَكُمْ وَلاَ يَفْتِنُونَكُمْ**»[١].

ويدل على أن أعمال الأمة ساءت أنهم فعلاً يصرفون المبالغ الطائلة على زخرفة مساجدهم، وكأن الزخرفة الظاهرية للمساجد تصلح القلوب وتدخل الجنة، بينما الأمر عكس ذلك تمامًا، فإنما هي دليل على فساد قلوبهم، ورسول الله ﷺ يقول: «**مَا سَاءَ عَمَلُ قَوْمٍ قَطُّ إِلاَّ زَخْرَفُوا مَسَاجِدَهُمْ**»[٢]، ويجب هنا التمييز بين الفن الراقي لعمارة المساجد في

(١) صحيح مسلم: (٧)؛ مسند الإمام أحمد: (٨٥٨٠)؛ الحاكم في المستدرك: (٣٥١).
(٢) سنن ابن ماجه: (٧٤١).

بلاد المسلمين من الأندلس إلى التركستان، ذلك الفن الذي جعل المساجد أماكن ينشرح فيها الصدر، ويحس فيها المتعبد بالخشوع، وينجبر فيها خاطر المهموم، وتلك البدع المضحكة التي تصرف عليها الملايين في زماننا هذا، ينافس بها الممول والمهندس المساجد الأخرى في البذخ والإسراف والألوان الفاقعة التي يمجها الذوق السليم. وهذه علامتها أنها تشتت الفكر، وتقبض الصدر، ولا يسعد بها إلا غليظ الطبع.

أما العلم الذي يظهر فقد يفهم منه أنه العلم الديني المبثوث في وسائل الإعلام، الذي أصبح يصل إلى الجميع في بيوتهم، والذي يقرأه ويسمعه الناس، ولكن دون فهم ولا قبول ولا تطبيق عملي، ويدل على ذلك قوله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ قَالَ: أَبُثُّ الْعِلْمَ فِي آخِرِ الزَّمَانِ حَتَّى يَعْلَمَهُ الرَّجُلُ وَالمَرْأَةُ، وَالْعَبْدُ وَالحُرُّ، وَالصَّغِيرُ وَالْكَبِيرُ، فَإِذَا فَعَلْتُ ذَلِكَ بِهِمْ أَخَذْتُهُمْ بِحَقِّي عَلَيْهِمْ**»[1]، وهذا لم يكن ممكنًا قبل وسائل الإعلام الحديثة.

وقد يفهم منه إنه العلم بالدنيا الذي هو أدنى درجات العلم، وهو علم التكنولوجيا ورسائل الماجستير والدكتوراه الذي أعطي الصدارة هذه الأيام، وقُدِّم على علوم الآخرة. ولكن هذا العلم لا يكون علمًا نافعًا إلا إن ظل محكومًا بعلوم الوحي، خاضعًا لها، فلا يطغى ولا يصير تجسسًا على الناس، وتلويثًا للبيئة، وفسادًا في الأرض، وإلا فإنما هو جهل، كما قال ﷺ: «**إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ سِحْرًا، وَإِنَّ مِنَ الْعِلْمِ جَهْلاً**...»[2]، وأما عن انتشار القلم فإنه من علامات هذا الزمان، إذ أنه لم يكن يحمل الأقلام فيما مضى إلا طلبة العلم، وكان عليهم تحضير الحبر في الدواة وتجهيز الأقلام، أما الآن فكما هو مشاهد الكل يكتب، والأقلام في جيوب الناس أجمعين. وقد كان يظن أن يكون القلم أداة للعلم، فإذا هو أداة للجهل، ولذلك ذكر في الحديث بعد ذكر قبض العلماء، وارتفاع العلم، وظهور الجهل، فمن العجيب أن ظهور القلم يصحبه قبض للعلم النافع، وزيادة في الجهل المصاحب لزيادة العلوم المادية الدنيوية، وانشغال الناس عنه بالتجارة (أي الدنيا). ولقد قال الله تعالى فيمن يبرع في علم الدنيا، وهو عن علم

(١) سنن الدارمي: (١/ ٨٠).
(٢) سنن أبي داود: (٥٠١٢).

الآخرة في غفلة: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾(1).

ولما كان عكس الموازين يستوجب مقت الله. قال ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يَبْغَضُ كُلَّ جَعْظَرِيٍّ جَوَّاظٍ سَخَّابٍ بِالأَسْوَاقِ، جِيفَةٌ بِاللَّيْلِ، حِمَارٌ بِالنَّهَارِ، عَالِمٌ بِأَمْرِ الدُّنْيَا، جَاهِلٌ بِأَمْرِ الآخِرَةِ**»(2)، فمن لم يكن متصفًا بالأوصاف الخسيسة المذكورة في أول الحديث ولكنه كان مهندسًا، أو طبيبًا، أو محاميًا، أو دبلوماسيًا، أو خبيرًا في أي شأن آخر من شئون الدنيا، فهو عالم بأمر الدنيا، فإن لم يكن لديه من العلم الديني -علم الحكمة النبوية- ما يكافئ ما عنده من علم الدنيا، فهو أعلم بالدنيا منه بالآخرة، وهو لذلك مقصر في حق ربه ودينه.

فينبغي لكل إنسان أن يزن أموره بأن يضع علمه الدنيوي في إحدى كفتي الميزان، وعلمه الأخروي في الأخرى، ثم ينظر، فإن رجحت كفة العلم الدنيوي، أي إنه لم يبذل في تلقي العلم الذي أرسل إليه من ربه نفس الوقت والمجهود والهمة التي بذلها في تحصيل العلم الدنيوي، فإنه إنسان مقصر في حق ربه، مقصر في حق نفسه، جاهل بأمر الآخرة.

ولا يقولن أحد: «إن العمل عبادة»، فإن العمل لكي يصير عبادة يحتاج إلى شروط كثيرة لا يعلمها ولا يسعى إلى العلم بها الذين يفضلون الدنيا على الآخرة، ولكن يبررون ذلك لأنفسهم وللآخرين بمثل هذه الأقاويل المضللة. إن العمل لكي يصير عبادة يجب أن يكون في الحلال الصرف، ليس في أي جزء منه شيء حرام أو شبهة، وأن يكون متقنًا، وأن لا يكذب ولا يصور الأشياء على غير ما هي، ويجب أن يسبقه ويصحبه نيات صالحة، كأن ينوي الإنسان أن يكون عمله هذا خالصًا لوجه الله، ليس فيه رياء ولا سمعة ولا إعجاب بالنفس، وأن ينوي أن يعمل ليطعم نفسه وأهله الحلال، ويعف نفسه عن السؤال، ويشغل نفسه عن البطالة والإفساد، وينوي أن ينفع بعمله المسلمين، وكذلك أن يكفيهم شره أثناء أدائه للعمل، وأن يكون

---

(1) سورة الروم، آية: [7].

(2) صحيح ابن حبان: (72)؛ البيهقي في السنن: (10/ 194). (**الجَعْظَرِيّ**): الغليظ المتكبر؛ (**الجَوَّاظ**): الحريص على الدنيا، المنوع للخير؛ (**جِيفَة بالليل**): أي نائم نومًا عميقًا كالميت، لا يقوم من الليل شيئا ولا يذكر الله فيه؛ (**حمار بالنهار**): لا شغل له إلا اللهث وراء شهواته الحيوانية.

مساهمًا في صلاح مجتمعه وليس في فساده، وأن لا يشغله العمل عن العبادة حين يحين وقتها، ولا ينسى ربه بالكلية في أي وقت من الأوقات، وأن لا يَمنّ به على أحد.

وقد ذكرنا من قبل غياب العقول: يقول ﷺ: «**إِنَّ مِنْ عَلاَمَاتِ الْبَلاَءِ وَأَشْرَاطِ السَّاعَةِ: أَنْ تَعْزِبَ الْعُقُولُ، وَتَنْقُصَ الأَحْلاَمُ...**»(١)، أي أن الناس ينقص عندها العقل والقدرة على التفكير، فيسهل الاستخفاف بعقولهم بواسطة الأفكار الزائفة والحظوظ الفانية.

ومن العلامات التي لم يكن من الممكن فهم الإشارة إليها في الحديث ظهور ما يعرف بالسوبر ماركت. يقول النبي ﷺ: «**سَيَكُونُ رِجَالٌ مِنْ أُمَّتِي يَأْكُلُونَ أَلْوَانَ الطَّعَامِ، وَيَشْرَبُونَ أَلْوَانَ الشَّرَابِ، وَيَلْبَسُونَ أَلْوَانَ الثِّيَابِ، يَتَشَدَّقُونَ فِي الْكَلاَمِ، أُولَئِكَ شِرَارُ أُمَّتِي**»(٢)، وإذا نظرنا إلى أحوال الأمة فيما مَرَّ من الأزمنة نجد أنه باستثناء السلاطين والأمراء فإن الشعوب لا تتغذى إلا على أصناف محدودة من الطعام مرتبطة بالمحاصيل والمواسم، ولا تشرب إلا الماء واللبن، وقد يكون معهما نوع أو نوعان آخران من الشراب على الأكثر، ولا تختلف ملابس بعضهم عن البعض، فترى شعوب المغرب العربي تلبس نفس اللباس، وشعوب الصحراء الكبرى تتشابه في اللباس، وفي السودان الكل يلبس الثوب الأبيض والعمامة البيضاء، وكذلك تجد زي الناس متشابه في الهند، وجنوب شرق آسيا، وهلم جرا. لم يكن من الممكن تخيل أننا في سنين قليلة صرنا ندخل الدكان فنختار من بين خمسين نوع من المشروبات، ومئات الأنواع من المأكولات، ومئات الأنواع من الملبوسات. وقد فَقَد أهل ذلك الزمان تواضعهم من كثرة الرفاهية، وصاروا متكبرين، يتشدّقون في الكلام.

وقد كثر لبس الطيالسة، وهي مما لم يكن شائعًا إلا في أهل البادية، فصار الآن في الكثير من بلاد العرب كما ذكرنا. قال النبي ﷺ: «**إِذَا اقْتَرَبَ الزَّمَانُ كَثُرَ لُبْسُ الطَّيَالِسَةِ، وَكَثُرَتِ التِّجَارَةُ، وَكَثُرَ الْمَالُ، وَعَظُمَ رَبُّ الْمَالِ بِمَالِهِ، وَكَثُرَتِ الْفَاحِشَةُ، وَكَانَتْ إِمَارَةُ**

(١) سبق تخريجه ص٦٠ من الكتاب.
(٢) الطبراني في الأوسط: (٢٣٥١).

الصِّبْيَانِ، وَكَثُرَ النِّسَاءُ، وَجَارَ السُّلْطَانُ، وَطُفِّفَ فِي المِكْيَالِ وَالمِيزَانِ، وَيُرَبِّي الرَّجُلُ جِرْوَ كَلْبٍ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يُرَبِّيَ وَلَدًا لَهُ، وَلا يُوَقَّرُ كَبِيرٌ، وَلاَ يُرْحَمُ صَغِيرٌ، وَيَكْثُرُ أَوْلاَدُ الزِّنَا، حَتَّى أَنَّ الرَّجُلَ لَيَغْشَى المَرْأَةَ عَلَى قَارِعَةِ الطَّرِيقِ، فَيَقُولُ أَمْثَلُهُمْ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ: لَوْ اعْتَزَلْتُمَا عَنِ الطَّرِيقِ، وَيَلْبَسُونَ جُلُودَ الضَّأْنِ عَلَى قُلُوبِ الذِّئَابِ، أَمْثَلُهُمْ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ المَدَاهِنُ»[1]، ومع لبس الطيالسة طراز خاص من اللحى: «يَكُونُ قَوْمٌ يَخْضِبُونَ فِي آخِرِ الزَّمَانِ بِالسَّوَادِ، كَحَوَاصِلِ الحَمَامِ، لاَ يَرِيحُونَ رَائِحَةَ الجَنَّةِ»[2]، أي يصبغ أهل الدنيا والبحث عن الملذات شعورهم ولحاهم بالسواد ليظهروا بمظهر الشباب.

ومن العلامات الواضحة هجرة أهل المدينة المنورة منها إلى غيرها حينما تدفقت أموال البترول من حقول الخليج، وسعيهم وراء المشاريع التجارية والصناعية وغيرها، بالرغم من نصيحة الرسول ﷺ لهم بعدم تركها حين قال: «يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَدْعُو الرَّجُلُ ابْنَ عَمِّهِ وَقَرِيبَهُ: هَلُمَّ إِلَى الرَّخَاءِ! هَلُمَّ إِلَى الرَّخَاءِ! وَالمَدِينَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ. وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ يَخْرُجُ مِنْهُمْ أَحَدٌ رَغْبَةً عَنْهَا إِلاَّ أَخْلَفَ اللهُ فِيهَا خَيْرًا مِنْهُ. أَلاَ إِنَّ المَدِينَةَ كَالْكِيرِ تُخْرِجُ الخَبِيثَ. لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَنْفِيَ المَدِينَةُ شِرَارَهَا كَمَا يَنْفِي الْكِيرُ خَبَثَ الحَدِيدِ»[3].

أما العلامات الصغرى التي لم تظهر بعد، فمنها أن يتناقص عدد المسلمين حتى يصيروا قلة مستضعفة بالشام، وأن يتناقص عدد الرجال حتى يصبح للخمسين امرأة قيم أي مسئول واحد، وانحسار نهر الفرات عن جبل من ذهب، وتكليم السباع والجمادات الإنسان، وأن تعود جزيرة العرب مروجًا وأنهارًا.

---

(١) سبق تخريجه ص١٠٣ من الكتاب.

(٢) سنن أبي داود: (٤٢١٢)؛ سنن النسائي: (كتاب الزينة ١٥)؛ مسند الإمام أحمد: (١/ ٢٧٣)، مسند أبي يعلى: (٢٦٠٣)؛ البيهقي في شعب الإيمان: (٦٤١٤)؛ الطبراني في الكبير: (١٢٢٥٤).

(٣) صحيح مسلم: (١٣٨١).

# ثاني عشر: النجاة من الفتن

رأينا مما سبق أن العلامات الصـغـرى قد ظهر أكثرها، وهي الآن واضحة وضـوحًا لا يدع مجالا للشك، وإذا كان الحال كذلك، فإن ذلك يؤذن بقرب وقـوع أولى العلامـات الكبرى، وهي ظهور الدجال، وذلك بعد ظهور الإمام المهدي، ثم نـزول نـبي الله عيـسى ﷺ وقتله الدجال، ثم يأجوج ومأجوج، ثم حدوث ثلاثة خسوف، أحـدهم بالمـشرق، وآخر بالمغرب، وثالث في جزيرة العرب، والدخان، وطلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة، وأخيرًا خروج نار من قعـر عـدن تـسوق النـاس إلى المحـشر. وأثنـاء ذلـك، تهـدم الكعبة، ويعطل الحـج، ويرفـع القـرآن مـن الأرض، ويـستمر الزمـان في التـدهور حتـى لا يبقى على وجه الأرض من يقول: «لا إله إلا الله!» وعندئذ تقوم القيامة.

وظهور المهدي يتلو فتنًا ومعارك ومذابح تحدث في المنطقة الممتدة ما بين الفـرات إلى سيناء، يشعلها الطاغية الـسفياني، وتـستمر سـت سـنوات، فـإذا انقـضت الـست سنوات من بداية تلك الفتن ظهر المهدي وبويع بمكة. وهذه الأحـداث ليـست بعيـدة الوقوع هذه الأيام، في هذه المنطقة التي ذهب عنها الاستقرار، وعَمَّـت فيهـا الفوضـى السياسية والحروب، وتتأجج فيها نيران اعتداءات إسرائيل المستمرة، ومن الواضح أن الأحداث التاريخية في هذا الزمن تتحرك بـسرعة كـبيرة جـدًا، ولم يعـد قيـام وانهيـار الدول والإمبراطوريات يستغرق المئات من السنين كما في الماضي القريب، أو الآلاف من السنين كمـا في الماضـي البعيـد، ولكـن عـشرات الـسنين، وفي القريـب العاجـل تستغرق مثل هذه الأمور الجسيمة شهورًا أو أسابيع.

وقد وصلنا منذ مدة إلى مرحلة أن الأرض ملئت ظلمًا وجورًا بالفعـل، ولم يبـق

إلا أن يشتد الأمر قليلاً حتى يبعث الله الإمام المهدي فيملؤها عـدلاً، فلـم يبـق مـن العلامات الوسطى إلا تلك التي ذكرناها في الفصل السابق، ثم تلك التي تسبق ظهور الإمام المهدي، وهي ظهور الطاغية السفياني بالـشام، ومـا يتبـع ذلـك مـن الحـروب والمذابح، ثم ظهور الرايات السود من خراسان.

قال ابن مسعود ﷺ: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُـول اللَّـهِ ﷺ إذ أَقْبَـلَ فِتْيَـةٌ مِـنْ بَنِـي هَاشِمٍ، فَلَمَّا رَآهُمُ النَّبِـيُّ ﷺ اغْرَوْرَقَتْ عَيْنَـاهُ وَتَغَيَّرَ لَوْنُـهُ، قَالَ فَقُلْتُ: مَا نَـزَالُ نَـرَى فِي وَجْهِكَ شَيْئًا نَـكْرَهُهُ. فَقَالَ: «**إِنَّا أَهْلُ بَيْتٍ اخْتَارَ اللهُ لَنَا الآخِرَةَ عَلَى الدُّنْيَا، وَإِنَّ أَهْـلَ بَيْتِي سَيَلْقَوْنَ بَعْدِي بَلاَءً وَتَشْرِيدًا وَتَطْرِيدًا، حَتَّى يَأْتِيَ قَوْمٌ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ مَعَهُـمْ رَايَـاتٌ سُودٌ فَيَسْأَلُونَ الخَيْرَ فَلاَ يُعْطَوْنَهُ، فَيُقَاتِلُونَ فَيُنْصَرُونَ، فَيُعْطَوْنَ مَا سَأَلُوا فَلاَ يَقْبَلُونَهُ، حَتَّـى يَدْفَعُوهَا إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي فَيَمْلَؤُهَا قِسْطًا كَمَا مَلَؤُوهَا جَوْرًا، فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِـنْكُمْ فَلْيَأْتِهِمْ وَلَوْ حَبْوًا عَلَى الثَّلْجِ**»[(١)]، وفي رواية بزيادة: «**فَإِنَّهُ المَهْدِيّ**»[(٢)].

إن الأمر سوف يستمر لا محالة علـى مـا هـو عليـه الآن مـن التـدهور، وتـزداد الفوضى في كل المجالات، ويزداد الناس بُعدًا عن الدين، ولكن لـن يظهـر المهـديّ إلا والمسلمون قليل حينذاك والدين ضعيف.

عن أُمّ شَرِيك ﷺ أَنَّهَا سَمِعَتِ النَّبِـيَّ ﷺ يَقُولُ: «**لَيَفِـرَّنَّ النَّـاسُ مِـنَ الـدَّجَّالِ فِي الجِبَالِ**». قَالَتْ أُمُّ شَرِيكٍ: يَا رَسُولَ اللَّـهِ، فَـأَيْنَ الْعَـرَبُ يَوْمَئِـذٍ؟ قَـالَ: «**هُـمْ قَلِيـلٌ**». وفي رواية: «**وَجُلُّهُمْ بِبَيْتِ المَقْدِسِ، وَإِمَامُهُمْ رَجُلٌ صَالِحٌ**»[(٣)]، يعني المهدي.

وقال النبي ﷺ: «**إِنَّ النَّاسَ دَخَلُوا فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا، وَسَيَخْرُجُونَ مِنْهُ أَفْوَاجًا**»[(٤)].

---

(١) سنن ابن ماجه: (٤٠٨٢)؛ مصنف ابن أبي شيبة: (٣٧٧٢٧)؛ مسند البزار: (١٥٥٦).
(٢) الفتن لنعيم بن حماد: (٨٩٥).
(٣) صحيح مسلم: (١٤٥)؛ والزيادة عند ابن ماجه: (٤٠٧٧).
(٤) مسند الإمام أحمد: (١٤٧٣٧)؛ الحاكم في المستدرك: (٨٥١٨).

وقال ﷺ: «**يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لاَ يَبْقَى مِنَ الإِسْلاَمِ إِلا اسْمُهُ، وَلاَ يَبْقَى مِنَ الْقُرْآنِ إِلا رَسْمُهُ، مَسَاجِدُهُمْ عَامِرَةٌ وَهِيَ خَرَابٌ مِنَ الْهُدَى، عُلَمَاؤُهُمْ شَرُّ مَنْ تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ، مِنْ عِنْدَهُمْ تَخْرُجُ الْفِتْنَةُ وَفِيهِمْ تَعُودُ**»(١).

وفي أيام المهدي تحدث الملاحم، ويخرج الدجال، وينزل سيدنا عيسى عليه السلام فيقتله بباب لد، أي قريبًا من تل أبيب، ثم تأتي جحافل يأجوج ومأجوج، ثم يسود الأمان الأرض مدة من الزمان، ثم تبدأ في التدهور ثانية حتى يصير الأمر إلى الحضيض، ويذهب الإيمان، ولا يبقى إلا شرار الناس، وهم الذين تظهر عليهم سائر العلامات الكبرى، وهم الذين تقوم عليهم الساعة حين ينفخ في الصور، فيصعق جميع من على الأرض.

ولكن قبل هذا -قبل انحطاط الأمة إلى هذا الحد- أحداث وأحداث، فإن جاءت الفتن المظلمة التي من أهلكته أدخلته جهنم خالدًا فيها فكيف يكون الأمر؟

إن كل قارىء لِمَا مَرَّ من النصوص لابد وأن يكون قد كوّن رأيًا عما ينبغي له عمله في مثل هذه الظروف، وما يأتي إنما هو رأيي الخاص الذي وصلت إليه عن طريق محاولتي لفهم هذه النصوص وتطبيقها على الواقع الذي نعيشه.

**الأولوية الأولى:**

إن هناك تعليمات نبوية توجهنا إلى كيفية التصرف السليم عند كل من هذه المآزق، وهذه التعليمات أكثرها مختص بالأفراد، لا بالحكومات والدول.

إن الأولوية الأولى بالنسبة للأفراد هي الاستقامة على النهج النبوي القويم، وذلك بفعل المأمورات، وتجنب المنهيات، لاستجلاب البركات، ودفع اللعنات، وذلك وإن كان ضروريًا لابد منه، إلا انه لم يعد كافيًا، فلابد أن يتلوه اكتساب العلم النافع، وتعليمه للزوجات والأولاد والأقارب والأصدقاء.

(١) البيهقي في شعب الإيمان: (١٩٠٨).

ولقد تحدثنا في (المدخل)، ثم في مواقع شتى عبر الكتاب، عن العلـم الـضروري الذي لا غنى عنه في آخر الزمان، وسوف نكمـل حـديثنا هنـا إن شـاء الله بإشـارات موجزة، فإن الأمور ينبغي أن تكون قد اتضحت بما فيه الكفايـة -كمـا ذكرنـا- أثنـاء قراءة أبواب الكتاب المختلفة، وما نورده الآن ما هو إلا تذكير بـبعض مـا قيـل، مـع إضافة بعض الاستنتاجات، وتكرار بعض البديهيات.

إن العلم النافع شقان؛ **الشق الأول**: هو أساسيات العلـم الـشرعي مـن عقيـدة، وفقه، وسيرة نبوية، وأخلاق محمدية، وغيرها، **والشق الثاني**: علـم أشـراط الـساعة، ماذا هي، وفي أي مرحلة نحن، وما هو المطلوب في هذه المرحلة؟ ثـم العلـم الفرقـانى المذكور في الفصل السابع، والذي يسمح بفهم العلامات كـنمط يتبـع قـوانين، وهـذه القوانين تتحدد على ضوئها الأولويات.

إن الفـتن الفكريـة -وهـي أخطـر الفـتن؛ لأنهـا تـؤدي إلى إنكـار الله والـدين، أو الانحراف البعيد عن سواء الـسبيل- هـي الـتي يكـون «**اللِّسَانُ فِيهَا أَشَدُّ مِنْ وَقْعِ السَّيْفِ**»[1]، وهي التي لابد للنجاة منها من هذا العلم، لقوله ﷺ: «**سَتَكُونُ فِتَنٌ يُصْبِحُ الرَّجُلُ فِيهَا مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، إِلاَّ مَنْ أَحْيَاهُ اللهُ بِالْعِلْمِ**»[2]، هـذه الفتنـة أو الفـتن الـتي يكون اللسان فيها هو سلاح الإهلاك، هي التي يصبح الرجل فيهـا مؤمنًـا فيقنعـه آخـر بالكفر، أو الشرك، أو بيع دينه بدنياه، ولابد للسان لكي يحقق هذه الأشياء مـن وسـائل الإعلام الحديثة، لكي ينتقل الحديث الفتّان من مشارق الأرض إلى مغاربها في لحظـات، وهذا ظاهر جلي في أيامنا هذه، وسوف يزداد ظهـورًا، حتـى إذا وقعـت فتنـة الـدجال تكون هذه الأمور قد وصـلت إلى ذروتهـا. والعـصمة مـن هـذه المخـاطر، كمـا يقـول المصطفى ﷺ إنما هي بالعلم، ونكرر أن ذلك العلم هو الذي يُمَيِّز به الإنسان الحق مـن الباطل، ويعرف الدجال من المهدي، أو من نبي الله عيسى عليه السلام، ويعرف فضل الآخرة

(١) صحيح الترمذي: (٢١٧٨)؛ سنن ابن ماجه: (٣٩٦٧).
(٢) سبق تخريجه ص١٥ من الكتاب.

على الدنيا فلا يفتتن بها، ويعرف الحلال من الحرام حين يختلط الأمر، ويعرف كذب النظريات الغربية التي مَرَّ الحديث عنها[1]، واستغلالهم لسائر العلوم في قلب الموازين، حتى جعلوا الحق باطلاً، والباطل حقًا، تمهيدًا لوصول سيدهم الدجال.

هذا العلم الذي جاء به سيد المرسلين ﷺ إجمالاً وتفصيلاً، وغفل عنه الكثير من متعلمي ومثقفي المسلمين في هذه الأيام، ففقدوا المرجعية التي تحميهم وتحمي من يستمع إليهم من تلاعب الدجاجلة والرويبضة. وقد قال ﷺ: «**أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ جِدَالُ الْمُنَافِقِ عَلِيمِ اللِّسَانِ**»[2].

وكمّ العلم المطلوب لكي يكتسب الإنسان البصيرة اللازمة ليس كبيرًا، ولا صعبًا، ولا يعوقه عن عمله الدنيوي، ولا عن دراسته، ولا عن علاقاته الاجتماعية، فلا عذر في الغفلة عنه.

### الأولوية الثانية:

فإذا حددنا الأولوية الأولى بأنها الاستقامة واكتساب العلم، فإن الأولوية الثانية هي اجتناب الفتن. إن الأمر النبوي الذي يقول: «**إِذَا رَأَيْتَ النَّاسَ قَدْ مَرَجَتْ عُهُودُهُمْ وَخَفَّتْ أَمَانَاتُهُمْ وَكَانُوا هَكَذَا**». وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ قَالَ فَقُمْتُ إِلَيْهِ فَقُلْتُ لَهُ: كَيْفَ أَفْعَلُ عِنْدَ ذَلِكَ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ؟ قَالَ: «**الْزَمْ بَيْتَكَ، وَامْلِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، وَخُذْ مَا تَعْرِفُ وَدَعْ مَا تُنْكِرُ، وَعَلَيْكَ بِأَمْرِ خَاصَّةِ نَفْسِكَ، وَدَعْ عَنْكَ أَمْرَ الْعَامَّةِ**»[3]، معناه أن ينتبه كل إنسان لنفسه وعلاقته بربه، وينتبه لأهل بيته وإنقاذهم من مخاطر الزمان، فكم من والد ووالدة أصابتهم الحسرة والندامة لَمَّا رأوا ابنًا لهم يتناول المخدرات، وآخر

---

(١) سبق الحديث عن هذه النظريات تحت عنوان: (الأفكار الشيطانية) في فصل (**مخاطر آخر الزمان**) من هذا الكتاب، وهي: نظرية التطور، ونظرية العقل الباطن، ونظرية التقدم.

(٢) صحيح ابن حبان: (٨١).

(٣) سبق تخريجه ص٩٤ من الكتاب.

ينخرط في سلك الإرهاب، أو ابنـة لهـم تتـزوج عرفيًـا، وأخـرى تـذهب لتـدرس في الخارج فتتبنى حياة الكفار وترفض العودة.

وقوله: «وَدَعْ عَنْكَ أَمْرَ الْعَامَةِ»، لكي يكـون مـن الواضـح للـشباب الجـامح أن الإصلاح لابد أن يبدأ بالذات، وقد لا يتعداها، والمهم المحافظة على الأمانة الـتي هـي دين الله وتوريثها للأجيال القادمة، وأمر العامة في أكثر الأحيان لا يمكن إصـلاحه إلا لمن هم في مواقع المسئولية الكبرى.

قال ﷺ: «**إِنَّمَا سَتكُونُ فِتَنٌ، لاَ يَسْتَطِيعُ الْمُؤْمِنُ أَنْ يُغَيِّرَ فِيهَا بِيَـدٍ وَلاَ بِلِـسَانٍ**» قيـل: يَا رَسُولَ اللهِ، هَلْ يُنْقِصُ ذلِكَ مِنْ إِيمَانِهِمْ؟ قال: «**لاَ، إِلا كَمَا يُنْقِصُ الْقَطْرُ مِنَ السِّقَاءِ**»، قيل: وَلِمَ ذلِكَ؟ قال: «**يَكْرَهُونَهُ بِقُلُوبِهِمْ**»(١).

فعلى كل مسلم يعيش مآسي آخر الزمان أن يتجنّـب ويجنّـب أهلـه الفـتن، فـإن القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خـير مـن الماشـي، والماشـي فيهـا خـير مـن الساعي. وقد بالغ النبي ﷺ في النهي عن ذلك، إلى حد أن ينهى ليس فقط عن إشعال الفتن والمشاركة فيها، بل حتى عن المشاركة فيها دفاعًا عن النفس، وهنـا ينبغـي لكـل مسلم أن يقف، ويتعقل معنى هذا الكلام، ويبحـث عـن أبعـاده وتفاصـيله، ويتخـذ قراره. قال ﷺ: «**سَتكُونُ أَحْدَاثٌ، وَفِتنَةٌ، وَفُرْقَةٌ، وَاخْتِلاَفٌ، فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَكُونَ الْمَقْتُولَ لاَ الْقَاتِلَ فَافْعَلْ**»(٢).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**تَكُونُ فِتْنَةٌ النَّائِمُ فِيهَـا خَـيْرٌ مِـنَ الْمُضْطَجِعِ، وَالْمُضْطَجِعُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَاعِدِ، وَالْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَـائِمِ، وَالْقَـائِمُ فِيهَـا خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي، وَالْمَاشِي خَيْرٌ مِنَ الرَّاكِبِ، وَالرَّاكِـبُ خَـيْرٌ مِـنَ الْمُجْـرِي، قَتْلاَهَـا كُلُّهَـا فِي النَّارِ**». قَالَ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَتَى ذلِكَ؟ قَالَ: «**ذَلِكَ أَيَّامُ الْهَرْجِ**». قُلْتُ: وَمَتَى أَيَّامُ

(١) الطبراني في الأوسط: (٦١٥٣)؛ مجمع الزوائد: (٧/ ٢٧٥).
(٢) الحاكم في المستدرك: (٥٢٢٣، ٨٥٧٨)؛ الطبراني في الكبير: (٤٠٩٩)؛ مسند الإمام أحمد: (٢٢٥٥٣).

الْهَرْجِ؟ قَالَ: «**حِينَ لاَ يَأْمَنُ الرَّجُلُ جَلِيسَهُ**». قَالَ قُلْتُ: فَما تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكْتُ ذلِكَ؟ قَالَ: «**اكْفُفْ نَفْسَكَ وَيَدَكَ وَادْخُلْ دَارَكَ**». قَالَ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ إِنْ دَخَلَ رَجُلٌ عَلَيَّ دَارِي؟ قَالَ: «**فَادْخُلْ بَيْتَكَ**». قَالَ قُلْتُ: أَفَرَأَيْتَ إِنْ دَخَلَ عَلَيَّ بَيْتِي؟ قَالَ: «**فَادْخُلْ مَسْجِدَكَ وَاصْنَعْ هَكَذَا**». وَقَبَضَ بِيَمِينِهِ عَلَى الْكُوعِ «**وَقُلْ رَبِّيَ اللهُ حَتَّى تَمُوتَ عَلَى ذَلِكَ**»(١).

وقال ﷺ: «**مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلاَحَ فَلَيْسَ مِنَّا**»(٢)، وقال ﷺ: «**سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ**»(٣).

إن الأمور مضطربة، لا يُعْرَف الحق فيها من الباطل، وكل من أراد أن يفعل شيئًا لدفع هذه الفتن لا يزيدها إلا اضطرابًا، ولذلك كان الساكن فيها خيرًا من المتحرك، والمقتول فيها خيرًا من القاتل. وهذا كله يتعلق بالفتن التي تشتعل بين المسلمين، أما إذا حدث غزو من الخارج من قِبَل الكفار، فهنا يعلن الحاكم -ومن له حق الفتوى من علماء المسلمين- الجهاد ويخرج كل من كان قادرًا عليه، ويكون الأمر واضحًا، لا لبس فيه، فإما النصر وإما الشهادة، ويجب على كل مسلم أن ينوي وهو آمن في بيته أنه إن حدث هذا فلن يكون من المتخلفين، بل من المسارعين إلى تلبية أمر الله ورسوله، ولو تحت إمرة الحاكم الفاجر، وكذلك ينوي إن أمره مثل ذلك الحاكم بقتال المسلمين أن لا يطيعه، حتى وإن حُبس وقُتِل.

فإذا تجنّب الفتن فعليه أيضًا أن يصون نفسه عن مشاركة الحكام في ظلمهم، فلا يكون من أعوان الحاكم وزبانيته. قال ﷺ للمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِيكَرِب: «**أَفْلَحْتَ يَا قُدَيْمُ إِنْ مُتَّ وَلَمْ تَكُنْ أَمِيرًا، وَلاَ كَاتِبًا، وَلاَ عَرِيفًا**»(٤).

(١) مسند الإمام أحمد: (٤٢٨٦)؛ الحاكم في المستدرك: (٥٣٩٧)؛ مسند البزار: (١٤٤٤)؛ مصنف ابن أبي شيبة: (٣٧٤٢٩)؛ الطبراني في الكبير: (٩٧٧٤).
(٢) صحيح البخاري: (٧٠٧٠، ٧٠٧١).
(٣) صحيح البخاري: (٧٠٧٦).
(٤) سنن أبي داود: (٢٩٣٣).

ولا يكون من الـذين يتـآمرون ضـده (أي ضـد الحـاكم) فيـشعلون نـار الفتنـة، ويزيدون في الفوضى. قال ﷺ: «**مَنْ خَرَجَ مِنَ السُّلْطَانِ شِـبْرًا مَـاتَ مِيتَـةً جَاهِلِيَّـةً**»[1]، ولا من الذين يلجأون إلى العنف، فيستحلون قتل الأبرياء. قال ﷺ: «**مَـنْ خَـرَجَ مِـنَ الطَّاعَةِ وَفَارَقَ الجَمَاعَةَ فَمَاتَ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً، وَمَنْ قَاتَلَ تَحْتَ رَايَةٍ عُمِّيَّةٍ يَغْضَبُ لِعَـصَبَةٍ، أَوْ يَدْعُو إِلَى عَصَبَةٍ، أَوْ يَنْصُرُ عَصَبَةً، فَقُتِلَ فَقِتْلَةٌ جَاهِلِيَّةٌ، وَمَنْ خَرَجَ عَلَى أُمَّتِي يَضْرِبُ بَرَّهَا وَفَاجِرَهَا، وَلاَ يَتَحَاشَ مِنْ مُؤْمِنِهَا، وَلاَ يَفِي لِذِي عَهْدٍ عَهْدَهُ، فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْـهُ**»[2].

والشاهد هنا وصفه للذي يخرج على المسلمين لا يُمَيِّـز بيـنهم؛ لأنهـم كلـهم في نظره مشركون، ولا يتحاشى في تفجيره للمؤمنين، فهذا الـذي نـراه اليـوم، ولا يـسع أحد أن ينكر أن هذا الوصف ينطبق بدقة على إرهـاب هـذا الزمـان. ومـن ثـم فـإن الحكم فيه أن رسول الله ﷺ يتبرأ منهم ومن أفعالهم، فهم ليسوا منه، ولا هـو مـنهم، وإن ادَّعوا وأقسموا على غير ذلك.

ولا من الذين لا يدور كلامهم إلا على ما يهيج الاختلاف بين الناس في عامـة أمورهم، فيكون أسـلوبهم إلهـاب العواطـف، وتـأجيج العـصبيات، والتلبـيس علـى الناس، وليس الحوار الهادئ العقلاني البنّاء. يقـول تعـالى: ﴿**وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ**﴾[3]، ويقـول سـبحانه: ﴿**وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ**﴾[4]، ويقول: ﴿**وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ**﴾[5]، ويقول: ﴿**أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ**﴾[6].

---

(١) صحيح البخاري: (٧٠٥٣).

(٢) صحيح مسلم: (١٨٤٨). (**لا يتحاشى**): لا يفزع لذلك ولا يكترث له ولا ينفر منه.

(٣) سورة آل عمران، آية: [١٠٥].

(٤) سورة الأنعام، آية: [١٥٣].

(٥) سورة آل عمران، آية: [١٠٣].

(٦) سورة الشورى، آية: [١٣].

وقد أنذر ﷺ بعدم اتباع من يشذ برأيه بعيدًا عما هو متفق عليه عند عقلاء الناس من العلماء والحكماء، فقال ﷺ: «**إِنَّ أُمَّتِي لَنْ تَجْتَمِعَ عَلَى ضَلاَلَةٍ، فَإِذَا رَأَيْتُمُ اخْتِلاَفًا فَعَلَيْكُمْ بِالسَّوَادِ الأَعْظَمِ**»(١)، والسواد الأعظم هو الجماعة الكثيرة (أي جمهور العلماء)، فإن اتفاقهم أقرب إلى الإجماع.

وقال ﷺ: «**إِنَّ اللهَ أَجَارَكُمْ مِنْ ثَلاَثِ خِلاَلٍ: أَنْ لاَ يَدْعُوَ عَلَيْكُمْ نَبِيُّكُمْ فَتَهْلِكُوا جَمِيعًا، وَأَنْ لاَ يَظْهَرَ أَهْلُ الْبَاطِلِ عَلَى أَهْلِ الحَقِّ، وَأَنْ لاَ تَجْتَمِعُوا عَلَى ضَلاَلَةٍ**»(٢)، وهذا يَنْجَرُّ أيضًا على ما ابتليت به هذه الأمة في آخر الزمان من هؤلاء الذين يرمون الناس بالشرك يمينًا وشمالاً، حتى صارت هذه الكلمة الشنيعة على ألسنتهم أسهل من إلقاء السلام، وذلك مع قول رسول الله ﷺ فيهم وفي أمثالهم: «**هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ**»، وتكراره لهذا القول ثلاثاً(٣)، والمتنطعون هم: المتشددون في الدين بغير علم ولا أدب، وقد أمرهم ﷺ بغير ذلك حين قال: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الْغُلُوُّ فِي الدِّينِ**»(٤)، كما حذرهم ﷺ بقوله: «**أَيُّمَا رَجُلٍ قَالَ لأَخِيهِ: يَا كَافِرُ. فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا**»(٥).

وأكد ﷺ أنه لا يخاف أن تعبد أمته الشيطان، ولكنه يخاف من غواية الشيطان لهم فيما دون الكفر والشرك، فقال ﷺ: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ**»(٦)، وقد حرش الشيطان بينهم أي تحريش، وقامت

---

(١) سنن ابن ماجه: (٣٩٥٠).
(٢) سنن أبي داود: (٤٢٥٣).
(٣) صحيح مسلم: (٢٦٧٠)؛ سنن أبي داود: (٤٦٠٨)؛ مسند الإمام أحمد: (٣٦٥٥)؛ مسند البزار: (١٨٧٧، ١٨٧٨)؛ مسند أبي يعلى: (٥٠٠٤، ٥٠٠٧)؛ الطبراني في الكبير: (١٠٣٦٨).
(٤) سنن ابن ماجه: (٣٠٢٩)؛ سنن النسائي: (٣٠٥٧)؛ الطبراني في الكبير: (١٢٧٤٧)؛ مسند أبي يعلى: (٢٤٢٧).
(٥) صحيح البخاري: (٥٧٥٣)؛ صحيح مسلم: (٦٠).
(٦) صحيح مسلم: (٢٨١٢)؛ مسند الإمام أحمد: (١٤٤٠٦). (**التحريش**): الحمل على الفتن والحروب.

بينهم حروب ومعارك استحلت فيها الدماء والأموال والأعراض، ولا تزال الأمور بينهم في توتر دائم. وعبدوا الجاه والدرهم والدينار ونسوا الله، وأصبح الرجل الصالح فيهم غريبًا مستوحشًا، لا حول له ولا قوة، لكن يخاف ﷺ تكالبهم على الدنيا، وتنافسهم عليها، وتقاتلهم على حطامها، حتى تُوقعهم في المهالك والمحرمات. وقد قال ﷺ: «**إِنِّي فَرَطُكُمْ، وَأَنَا شَهِيدٌ عَلَيْكُمْ، إِنِّي وَالله لأَنْظُرُ إِلَى حَوْضِي الآنَ، وَإِنِّي قَدْ أُعْطِيتُ خَزَائِنَ مَفَاتِيحِ الأَرْضِ، وَإِنِّي وَالله مَا أَخَافُ بَعْدِي أَنْ تُشْرِكُوا، وَلَكِنْ أَخَافُ أَنْ تَنَافَسُوا فِيهَا**»[1]، فقد أكَّد ﷺ أنه ليس الكفر ولا الشرك يخشى على أمته، بينما يصر خوارج هذا الزمان أن يرموا أكثر المسلمين بها.

إن على وجه الأرض اليوم ألفًا وخمسمائة مليون من المسلمين الموحدين. نعم إنهم بعدوا عن الدين وفسق منهم الكثير، ولكن بين ذلك وبين رميهم بالشرك بَوْن شاسع، وبُعْد الناس عن الدين إنما سببه حبهم للدنيا، كما أخبر ﷺ. ولكنك ترى أكابر الذين يبثون هذا الفكر ويضللون أتباعهم به، ويدفعونهم إلى تكفير الناس، ورميهم بالشرك ظلمًا وبهتانًا، واعتبار أنفسهم الفرقة الناجية، واعتبار سائر الملايين كفار دمهم حلال وهم وقود النار، هم أكثرهم تكالبًا على الأموال، والعمائر الفارهة، والسيارات الفاخرة؛ وننبّه مرة أخرى أن قلب الموازين، وعكس الأمور، ما هو إلا نوع من الدجل يمهد الطريق للدجال الأكبر، الذي أخبرنا الصادق المصدوق ﷺ أنهم سوف ينضمون إليه حين ظهوره.

### العون والتأييد الإلهي:

وإذا كان التمييز بين الآراء والمذاهب والتيارات صعبًا ويتطلب مجهودًا كبيرًا دؤوبًا، فإن العون الإلهي حاضر إن شاء الله. فقد قال ﷺ: «**الْعِبَادَةُ فِي الْهَرْجِ كَهِجْرَةٍ إِلَيَّ**»[2]، وقال عليه الصلاة والسلام: «**إِنَّكُمْ فِي زَمَانٍ مَنْ تَرَكَ مِنْكُمْ عُشْرَ مَا أُمِرَ بِهِ**

(١) صحيح البخاري: (٦٤٢٦).
(٢) صحيح مسلم: (٢٩٨٥)؛ سنن ابن ماجه: (٣٩٨٥).

هَلَكَ، ثُمَّ يَأْتِي زَمَـانٌ مَنْ عَمِلَ مِنْهُمْ بِعُشْـرِ مَا أُمِـرَ بِـهِ نَجَا»(١).

وقال ﷺ: «إِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامَ الصَّبْرِ، الْمُتَمَسِّكُ فِيهِنَّ يَوْمَئِذٍ بِمِثْلِ مَا أَنْتُمْ عَلَيْـهِ، لَـهُ كَأَجْرِ خَمْسِينَ مِنْكُمْ»، قَالُوا: يَا نَبِيَّ اللهِ، أَوَمِنْهُمْ؟ قَالَ: «بَلْ مِنْكُمْ»، قَـالُوا: يَـا نَـبِيَّ اللهِ، أَوَمِنْهُمْ؟ قَالَ: «لاَ، بَلْ مِنْكُمْ» ثَلاثُ مَرَّاتٍ أَوْ أَربعًا(٢).

وقال ﷺ: «مَنْ تَمَسَّكَ بِسُنَّتِي عِنْدَ فِسَادِ أُمَّتِي فَلَهُ أَجْرُ مِائَةِ شَـهِيدٍ»(٣)، وكـل ذلـك يعني أنه إذا اجتهد المرء فيما أمر به فسوف يجد بالعمـل القليـل مـن التأييـد والهدايـة والتوفيق الرباني مثل ما كان يجده الأولون بما عملوا من الأعمـال الكـبيرة العظيمـة، وهذه سنة كونية أخرى، وهي أن الله ﷻ يعـوّض المـؤمن المحـاط بـالفتن والعراقيـل، المتضرر من نزع البركة من الوقت، بأن يضاعف له العون والتوفيق بقدر ما يلاقيه من الصعاب، ويفتح له أبواب الهداية بقدر مـا يتعـرض لـه مـن الغوايـة، ويـضاعف لـه الثواب في الآخرة حتى يلحقه بالأولين. وأكثر النـاس تأييـدًا وتوفيقًـا أولئـك الـذين سَّماهم النبي ﷺ الأمة أو الطائفة المنصورة. قال ﷺ: «لاَ يَزَالُ مِنْ أُمَّتِي أُمَّةٌ قَائِمَةٌ بِـأَمْرِ اللهِ، لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَـهُمْ وَلاَ مَنْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ»(٤).

### مشكلة العلماء والفتوى:

فإذا كان لابد من العلم، وإذا كان العلماء منصورين مؤيدين حتى يـوم القيامـة، فمن هم هؤلاء العلماء الحكماء العقـلاء الـذين يمكننـا أن نـستمع إلـيهم ونستـضيء بهديهم؟ إن العالم الإمام الذي يقتدى به في ظلمات بحر الفتن اللُّجيّ لابد وأن يكـون ليس فقط متمكنًا من العلوم الشرعية، عاملاً بها، ولكنه يجب كذلك أن يكون خـبيرًا

(١) سنن الترمذي: (٢٢٦٧).

(٢) الطبراني في الكبير: (٢٨٩)؛ والأوسط: (٣١٢١)؛ سنن الترمذي: (٣٠٥٨)؛ الحاكم في المستدرك: (٧٩١٢)؛ صحيح ابن حبان: (٣٨٥)؛ مجمع الزوائد، (٧/ ٢٨١).

(٣) أبونعيم في حلية الأولياء: (٨/ ٢٠٠).

(٤) صحيح البخاري: (٣٦٤١)؛ سنن ابن ماجه: (٦، ٧، ٨، ٩).

بأحوال الدنيا التي نعيش بها، رآها بعينه، وسافر في أرجاء المعمورة، وشاهد أنماط الحضارات والثقافات المختلفة، واطَّلع على التيارات الفكرية المعاصرة والمستحدثات العلمية، ودرس المشكلات التي تثيرها الأمور المستحدثة مثل الاستنساخ، وتأجير الأرحام، والخلايا الجذعية، وسائر ما ظهر في الآونة الأخيرة، كما يجب أن يكون له دراية بالتاريخ والعلوم الإنسانية.

ولا يجوز لكل من قرأ شيئًا من العلوم الشرعية أن يتصدَّر للفتوى، فإن من يفعل ذلك لابد أن يكون عالِمًا بكتاب الله تعالى، وبناسخه ومنسوخه، وعامه وخاصه، ولسان العرب، وأقوال السلف، وإجماع واختلاف العلماء، ويكون قادرًا على أن يفرق بين المتشابهات، وأن يستمع لمن خالفه، فلا ينقاد للعصبية، ولا يعتريه الكبر، ولا تميل به الأهواء، بل تكون نيته أبدًا إظهار الحق.

هذه شروط المفتي الذي له أن يجتهد في قضايا الساعة، وإن لم تتوفر في شخص واحد فلا بأس أن يُجْمَع لها مجموعة من العلماء، يشتركون في بحث كل قضية من القضايا المطلوب بحثها. وإذا عَلِمْنا ذلك عَلِمْنا أنه ليس لكل من يظن أنه صاحب عقل مفكر أن ينتقد العلماء كلما سمع منهم ما لا يوافق رأيه، ولا أن يجادلهم حتى يتمكن في العلم كما تمكنوا.

ويجب كذلك أن نعلم أنه ليس من الممكن أن يكون جميع علماء الأمة أئمة، ويكفي أن يكون عدد قليل منهم في كل عصر على درجة عالية من الاتساع والتمكين. أما سائر العلماء الذين لم تتوفر فيهم هذه الشروط وليسوا على اطلاع كامل بما يحدث في العالم المعاصر، فلا تزال منوطة بهم مهام كبيرة، ألا وهي بث العلوم الشرعية في الناس، وتعليمهم كل ما يحتاجونه في حياتهم اليومية لكي تصح عباداتهم ومعاملاتهم، ونصحهم وإرشادهم، ودعوتهم إلى الخير. وكما لا ينبغي إضاعة وقت الأئمة من العلماء بسؤالهم عن الأمور العادية، فيجب عدم تحميل سائر العلماء فوق ما يحتملوا بسؤالهم عن نوازل العصر التي لا يقوم لها إلا الفحول، ولكن

يجب علينا -نحن العوام- احترامهم وإجلالهم، والأخذ عنهم بلا تردد في جميع الأمور العادية التي هم فيها خبراء، والتي لا تحتاج إلى ما سبق ذكره، ومعرفة أن اختلافهم رحمة وتوسعة على الأمة وليس نقيصة.

**هل هذا نوع من السلبية؟**

قد يشعر البعض أن ترتيب الأولويات هكذا إنما هو دعوة إلى السلبية واعتزال المجتمع، والأمر ليس كذلك، فإن النبي ﷺ أمرنا ألا نقعد عن العمل أبدًا، فقال ﷺ: «**إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لاَ يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ**»(١). بل هي دعوة إلى الواقعية في التفكير والتنفيذ، والتزام الأمر والنهي كما جاء بهما الوحي، واستيضاح الحدود الشرعية لكل عمل حتى لا يخرج عنها فيصبح مردودًا عند الله ﷻ. والواقعية بمعنى أن يعلم كل منا ما في استطاعته وما ليس في استطاعته، وعدم الاستطاعة قد يكون لعدم القدرة العملية على عمل ما، أو لأن هذا العمل محظور شرعًا.

إن المسلم مطالب بأن يساهم في إصلاح الأمة في كل لحظة من حياته، ابتداء بنفسه، ثم الأقرب فالأقرب. فإذا أغراه الشيطان أن يخطط لإصلاح الدول والبلاد، بينما هو جاهل في عباداته، لا يعلم كيف يتقن وضوءه، غير مستقيم في أخلاقه، لا يعرف الفرق بين الغيبة والنميمة والبهتان، فوضوي في تصرفاته، غير عالم بالعلوم الضرورية، غير قادر على أن يعلم أهله ومن حوله ولا أن يكون قدوة لهم، فقد دخل به متاهة أحلام اليقظة، وسوف يظل يدور فيها حول نفسه، يكثر من الكلام بحجة أن من لم يهتم بأمور المسلمين فليس منهم، وأكثر كلامه في ما ينبغي للحكومات فعله، بينما هو قد أهمل فعل الشيء الذي يستطيعه. فإذا أغراه الشيطان مثلاً أن يمضي وقته في الحديث مع كل من يلاقيه عن قضية فلسطين، ولكنه يكسل عن أن يبدأ بنفسه وبما

(١) أحمد في مسنده. (**الفسيلة**): هي النخلة الصغيرة.

يستطيع أن يساهم به على الفور دون أن يتمكن من إعاقته أحد، وهو أن يقوم ليدعو الله للفلسطينيين في الثلث الأخير من الليل الذي وعده مـولاه باسـتجابة دعائـه فيـه، فهو بذلك يترك الشيء السهل المتاح على الفور لأنه صـعب علـى الـنفس، وينـشغل بالحديث عما هو بعيد المنال، ولكن لأن الحديث دون عمل سهل، فهل نـصدق أن في كلامه أي جدية؟ وإذا أمضى الليالي يناقش مع أصحابه المتحمسين أحـوال المـسلمين المزرية، ثم قام كل منهم في الصباح إلى عملـه فلـم يُحْـسِن فيـه، وأهمـل، وأسـاء إلى الناس، كأنهم ليسوا أنفسهم أولئك المسلمون الذين كان ينـاقش كيفيـات إصـلاحهم بالليل، فهل لأي من كلامه قيمة عند الله؟

أما الذين في صدورهم دوافع قوية تدفعهم لخدمة أوطـانهم مـن خـلال العمـل السياسي الحزبي، أو الصحفي، أو الإعلامي، أو خلافه، فهل فيما قلناه ما يمنعهم من ذلك؟ كلا، بشرط أن لا يهمل نفسه وأهله، ولا تكـون نيتـه التنـافس علـى الـسلطة والامتيازات الدنيوية، فيدخل عليه الشيطان من هذا الباب فيفسد عليه عمله، فيصبح ضارًا بدلاً من أن يكون نافعًا، ولا ينجر إلى القذف والتشهير ونشر الفضائح، فالعمل يجب أن يكون شريفًا، وإن كـان ذلـك صـعبًا، وكلمـا كـان الإنـسان عالِمًـا بـالعلوم الضرورية التي ذكرناها كان أدائه أقوى وتأثيره أبلغ.

**واجب الحكومات:**

أما الحكومات، فإن افترضنا جدلاً أنه سـيكون يومًـا في بـلاد المـسلمين حكومـة هَمَّها الأول خدمة شعبها بصدق، وليس هَمَّها الأول الاستمرار في الحكم والاستفادة منه، فقد رأينا على ضوء ما مَرَّ أنه من البديهي أنها سوف يكون واجبًـا عليهـا إحيـاء النموذج الفكري الإسلامي في أطفال وشباب المسلمين عن طريق التعليم والإعـلام، ذلك النموذج الذي تكون فيه الأولويات هي ذاتها أولويات الكتاب والسنة، ويكـون الهدف منه إحياء القيم الإسلامية، قيم الفضيلة والعفـة والإحـسان، وصـد هجمـات الأعداء الفكرية، سواء كانت من الخارج أم من الداخل.

إن شباب الأمة إذا تعلَّموا منذ الصغر القيم والأخلاق السامية، وأخبروا فنظروا فشاهدوا ما ينتظرهم من فتنة وتلبيس واختبار مع تدهور الزمان واقتراب الساعة، وعلموا كيف يبين لهم العلم النبوي الحق من الباطل في كل موقف، وتدربوا على العمل الجماعي والفكر الجماعي وإنكار الذات، وتدربوا على عدم الرضا بأقل من الإتقان الكامل لكل عمل يقومون به، وتدربوا على استعمال عقولهم بطريقة سليمة تقوم على المنطق والمرونة واتساع الأفق والانتباه لتعمية الهوى وخداع الشيطان، كان النجاح حليفهم بإذن الله.

إن التركيز في تعليم الأولاد على العلوم المادية كالفيزياء والكيمياء والأحياء يؤدي إلى استخدامهم أسلوب التفكير العلمي المحدود، أي المبني على أن يكون الأمر إما أبيض أو أسود، سالب أو موجب، بغض النظر عن الدرجات اللا متناهية من الرمادي بينهما، هذا الأسلوب السطحي الذي إذا استخدم في الأمور الإنسانية عامة، النفسية منها، والتاريخية، والاجتماعية، فإنه يؤدي بصاحبه إلى آراء ومواقف متصلبة، متكلفة، وعدم قدرة على تفهم الرأي الآخر؛ كما أنه يقتل فيهم كل حاسة وذوق فني. ويا ليتهم بعد ذلك يكتسبون المنهج الفكري العلمي السليم، بما فيه من طرح النظريات، واستحداث التجارب لإثباتها أو نفيها، والدقة في استقراء نتائج هذه التجارب، بل نراهم لا يأخذون من المنهج العلمي إلا أسوأ ما فيه، ويتركون أحسن ما فيه؛ لأن الذين يعلمونهم هم أنفسهم واقعون في المأزق ذاته.

والدول التي تفوقت تكنولوجيًا لم تهمل أبدًا دراسة العلوم الإنسانية، وهي العلوم التي تكسب الإنسان، -حتى العالم التجريبي- مرونة في التفكير، وقدرة على استيعاب المتناقضات، وعلى استنباط القوانين وتفهم السنن.

ونحن المسلمون لدينا من هذه العلوم ما هو أوسع وأكمل وأفيد، فعلومنا مبنية على أصول من الوحي الإلهي، وعندنا -إن فقهنا- الضوابط التي تمنع العلم التجريبي من الطغيان، فإن للمنهج العلمي جانب في غاية الضرر، فهو المنهج الذي أوصل

الإنسان إلى القمر، ولكنه أيضًا لوّث كوكب الأرض حتى أوشك أن يختنق، وهو الذي لما تفتحت أمامه بعض أسرار الله في خلقه ظن أنه سوف يصل إلى علم كل شيء، والسيطرة على كل شيء، فترك الدين رأسًا، مستهزئًا بمن لا يزال يؤمن به، وألغى مفهوم الألوهية وأزاله من قاموسه. وهم يعلمون أن فوق العلم هناك الضوابط التي تقع تحت عنوان القيم والأخلاق، ولكن الكثير من علماء الغرب يتهربون من مواجهة المآزق الفكرية والأخلاقية التي يسببها العلم، مدّعين أنها ليست من تخصصهم، فيتركون التصرف في مخترعاتهم لأرباب السلطة من السياسيين، كأنهم لا يعلمون أن السياسي في بلادهم لا أخلاق له ولا قيم، ولا همّ له إلا الوصول إلى السلطة والاستمرار فيها، لا يرى ضيرًا في البطش بالشعوب الضعيفة لخدمة مصالحه، ولا يرى بأسًا في استخدام الأسلحة الفتَّاكة، في الوقت نفسه الذي يحرّمها على غيره، كالقنابل الذرية في الحرب العالمية الثانية، والنابالم في فيتنام.

وللأسف فإن الكثير من المسلمين اندفعوا بلا رَوِيَّة خلف بريق التقدم التكنولوجي الغربي، بالرغم من تمسكهم بدينهم، وعدم قبولهم للعلمانية والإباحية الغربية، ولكن غرر بهم المفهوم الغربي للتقدم المادي على أنه مطلق، ومستمر بلا نهاية، وغير مشروط ولا مقيد، ومفيد للإنسانية.

وإنا لندرك تمامًا أنا لا نستطيع أن نقف بمعزل عن العلم الحديث ومنتجاته، ولا أن ندَّعي أنه يمكننا في مثل هذا الزمان الاستغناء عن التكنولوجيا، والعودة بالزمان إلى الماضي، بل نحن مضطرون أن نخوض هذا البحر، ولذلك يجب أن نمكن شبابنا من استيعاب العلم الحديث ومنتجاته استيعابًا متقنًا، وأن يتفوقوا في ذلك، ويكونوا متمكنين فيه، ولكن مع كونهم مدركين تمامًا لما للشيطان فيه من نصيب، ولما فيه من أضرار مادية بيئية، واجتماعية، وأخلاقية، فيكون استعمالهم له بالطريقة التي تحد من الأضرار، وتنتفع بالمحاسن، مع الاستفادة من خبرات من سبق، وهو عكس ما يحدث الآن.

أما الإعلام فيجب أن يبث القيم السامية ولا ينجرف إلى التقليد الأعمى. إن التركيز على نبش وتقليب الفتن في الفضائيات أصبح تجارة كبرى، فكلما امتلأت الفضائية بالفتن كلما ازدادت نجاحًا، وذلك لا يمكن إلا وأن يكون له آثار سلبية. إن حرية الرأي يجب أن يكون لها ضوابط، وهذه الضوابط يجب أن تنبع من ضمائر المفكرين والمثقفين، لا أن تفرض عليهم قهرًا، وأن يتفقوا على منهج يرجون بالالتزام به حدوث الفائدة من الحوار وتجنب الفتن. ونشر القيم السامية يكون عن طريق تبصير الناس بما يراد بالأفلام والبرامج الأمريكية من تطبيع للرذيلة، والتركيز على القيم في المسلسلات وسائر البرامج الأخرى، وعن طريق التراجع عن الفجور المكشوف في الأغاني وغيرها. ويجب ترشيد الإعلانات بحيث يمنع خلق الاحتياجات الوهمية عند الناس، وإشعال شبق الدنيا، كما يجب الإصرار على الفضيلة ومنع استخدام الجنس في تسويق المنتجات.

وعلى كل مسئول، سواء كان في قطاع حكومي أو غيره، أن يعلم أن تقوى الله والإحسان في العمل هما أسس النجاح، والإحسان في العمل إنما هو من التقوى، فإن الخطط الخمسية والسبعية لا يمكن لها أن تؤتي ثمارها في ظل التسيب الأخلاقي.

**عود إلى السنن الكونية والحرب الفكرية:**

وفي كل ما سبق يجب تذكر السنن الكونية، وهي أن نجاح المسلمين منوط بتمسكهم بدينهم، بينما الكفار كلما ازدادوا كفرًا ازدادوا تمكينًا في الدنيا إلى حين، وأن كل ما يرضي الله من الأعمال يستنزل البركات ويدفع البلاء، بينما المعاصي تجلب اللعنات وتؤدي إلى الفشل، ولابد أن يدخل ذلك في أي تخطيط مستقبلي للمسلمين، وإلا لن تنجح أعمالهم ومشاريعهم، فإن الخطط التي تخالف السنن الكونية التي نَبَّهَنا إليها الله ورسوله لا يمكن أن يكتب لها النجاح.

إن مما يميز الحرب الفكرية أنه بمجرد أن ينكشف للإنسان وجه الضلالة في الفكرة التي تواجهه يختفي خطرها، ويكون قد انتصر في هذه المعركة ونجا من مخاطرها، وعليه

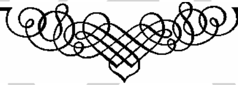


بعد ذلك بدراسة الفكرة التي بعدها والخروج من خطرها عليه بنفس الطريقة. وينطبق هذا على كلٍ من المسلم والمسيحي في بلادنا على حد سواء، فالكل مستهدف، والمسيحيون أيضًا متمسكون بدينهم، يرفضون الإلحاد، ويتمسكون بالفضيلة، ويرفضون الرذيلة، ويريدون العفة وحُسْن الْخُلُق لأبنائهم وبناتهم، فالمصلحة واحدة، والمجهود ينبغي أن يكون موحدًا.

اللهم أرنا الحق حقًا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه. اللهم رُدّ هذه الأمة إلى دينها ردًا جميلاً، واكفهم شر الفرقة والاختلاف، واكفهم شر الفتن، ما ظهر منها وما بطن، واكفهم شر الدجاجلة، والرُّوَيْبِضَة، وكل ضال مضل، واكفهم شر وسوسة الشياطين، وشر الهوى والنفس الأمارة بالسوء، يا قوي يا قدير، يا قريب يا مجيب.

والحمد لله أولاً وأخيرًا، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وآله وصحبه وسلم.

تم بحمد الله





# المحتويات

| الموضــــوع | رقم الصفحة |
|---|---|

| الموضـــوع | رقم الصفحة |
|---|---|

| الموضـــــوع | رقم الصفحة |
|---|---|